ربي،

كيف عصيتك؟!

الجزء الأول: في لحظات صدق مع النفس

مراجعة: الشيخ/ خ.

عضو الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين

كتابة:

الأخ/ عبد السِتِّير

ربي، كيف عصيتك؟!

الجزء الأول: في لحظات صدق مع النفس

كتابة: الأخ/ عبد السِتّير

التدقيق اللغوي: هشام عبده الروبي؛ عبد الرحمن غريب علي.

مراجعة: الشيخ/ خ.

عضو الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين

الكتاب يجوز مشاركته أو نسخه لمنفعة المسلمين بالعلم، ولكن ليس للتربح الشخصي. إذا أراد أحد تنقيته أو تلخيصه وإعادة نشره فلا مانع عندي ولكن ليتق الله.

بسم الله،

والحمد لله،

والصلاة والسلام على رسول الله.

معاهدة

إن هذا الكتاب فيه أمر بالمعروف ونهيٌ عن المنكر، وعسى أن أُخفق بتأخري عن بعض ما أحُث عليه وبوقوعي في بعض ما ذممته، وفي ذلك حملٌ عليَّ إذ قد أبلغ منزلة من يقول ما لا يفعل والعياذ بالله. وعلى هذا الأساس، ربما أُشمل فيمن قال عنهم الرسول (صلى الله عليه وسلم) "يُؤْتَى بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُ بَطْنِهِ، فَيَدُورُ بِهَا كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ بِالرَّحَى، فَيَجْتَمِعُ إِلَيْهِ أَهْلُ النَّارِ فَيَقُولُونَ: يَا فُلانُ مَا لَكَ، أَلَمْ تَكُنْ تَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَى عَنْ الْمُنْكَرِ؟ فَيَقُولُ: بَلَى، قَدْ كُنْتُ آمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَلا آتِيهِ، وَأَنْهَى عَنْ الْمُنْكَرِ وَآتِيهِ"[1]. فأخي القارئ، كي لا تكون عبئًا عليَّ بكونك شاهدًا عليَّ، أُعاهدك أن تدعو لي ألا أكون من هؤلاء، وأسأل الله لي ولكم مثل ذلك، والهدى والتقى والعفو والعافية في الدنيا والآخرة.

أما لمن لن يدعو لي، أُعلمه أن بمُضيه في قراءة هذا الكتاب فإنه يسري عليه عهدٌ أن ليس له حُجَّة عليَّ ولا أن يُحمِّلني أي عبء يوم القيامة. وإني أعتذر من جِفَّتي في الكلام وصراحتي المريرة بهذه الطريقة، ولكن خطورة الموقف تستدعي هذا، وقد قال الإمام الحسن البصري (رحمه الله): وَاللَّهِ لأَنْ تَصْحَبَ أَقْوَامًا يُخَوِّفُونَكَ حَتَّى تُدْرِكَ أَمْنًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تَصْحَبَ أَقْوَامًا يُؤَمِّنُونَكَ حَتَّى تَلْحَقَكَ الْمَخَاوِفُ[2]. فإني أُفضل أن أصارحكم في الدنيا مقابل أن نكون لبعض أعوانًا في الآخرة، بدلًا من أن تظنوا بي الأفضلية بينكم في الدنيا ثم نغدر ببعضنا بالتلاوم وخوض مذلة إلقاء الأحمال على بعضٍ في الآخرة.

وأدعو بدعاء رسول الله (صلى الله عليه وسلم) رجاءً أن يستجيبه الله لي ولكم: اللَّهُمَّ اقْسِمْ لَنَا مِنْ خَشْيَتِكَ مَا يَحُولُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مَعَاصِيكَ، وَمِنْ طَاعَتِكَ مَا تُبَلِّغُنَا بِهِ جَنَّتَكَ[3].

---

[1] صحيح مسلم 5305.

[2] الجواب الكافي لابن قيم الجوزية 28.

[3] سنن الترمذي 3424، جزء من الحديث.

عن الكتاب

عندما يقع العبد في معصية الله، ثم يسكن ويتفكر ويراجع نفسه، ويتذكر العوامل التي تحث على الامتناع عن المعصية، والوعيد الذي يلحق بالمعصية، ويُعاين عواقب المعصية على البدن والقلب، حينئذ يتعجب: كيف وقع في معصية ربه بالرغم من كل هذا؟ فبموازنة مكاسب المعصية أمام الخسائر، يجد أنه لا منطق ولا مبرر كافٍ لإقباله على المعصية، ولكنه الهوى، فيتعجب المرء كيف أن هواه حمله على أمرٍ يُنافي المنطق. ولا يبقى أمام العبد إلا الندم والإنابة إلى ربه الذي عصاه في المقام الأول، وتَرَجِّيه على المغفرة في محاولة للعبد إصلاح ما فعله، فحقًّا لا ملجأ ولا منجا من الله إلا إليه.

وفيما يختص بسبب كتابتي لهذا الكتاب، وبيانًا لما يحتويه، فإني كنت أعيش فترة من حياتي أنسَب ما أصف به حالي آنذاك أني كنت: تائهًا جاهلًا سفيهًا. فالحمد لله الذي هداني بعدها وأرشدني إلى الحق من الباطل بوضوح وعلى علمٍ، فعرفت كيف ينبغي أن أكون. وعندما كتبت هذا الكتاب، كنت صريحًا عن نفسي في حدود ما يجوز قوله، وسردت ملاحظاتي في أثناء تلك الفترة، واجتهدت في جمع وكتابة المعلومات والملحوظات التي تحدث قبل وفي أثناء وبعد المعصية، شاملةً أساليب وأسلحة الشيطان والنفس في استدراج المرء للمعصية.

وكل هذا لتوعية القارئ، وكي يكتسب خبرةً دون أن يخوض فيما وقعت أنا فيه، آملًا أن يحتاط ويتسلح من الوقوع في المعصية فلا يقع فيها عن جهل أو قلة استعداد، وإن وقع فيها علم ما وجب عليه فعله. والخبرة تتمثل في أن أُبين له الظواهر المتعلقة بالمعصية كي يُلاحظها، مثل مقدمات المعصية من صد النفس عن تذكر سلبيات المعصية كي يشتاق إليها، فيعينه معرفة المُقدمات على الاحتراس منها وأخذ التدابير الوقائية والإجراءات المُضادة، ومن ثمَّ تفادي المعصية. وأيضًا يعينه معرفة تبعات المعصية، مثل ذهاب الرزق والبركة، فهذا أدعى أن يُحَفِّزه في عدم ارتكابها ثانيةً.

فهذا الكتاب: كتابٌ من تائبٍ، هُدِيَ إلى علمٍ يسعى أعداء الإسلام لمواراته، ولاحظ وقائع في الحياة فأعلنهما. هذا مع ذكر نماذج من حاله فيما مضى، وتكلم عن بعض ما خاضه أو أصيب به ليعتبر غيره.

أخي القارئ، إذا أفادك هذا الكتاب وأعجبك ففضلًا رشّحه لإخوانك حتى ينتفعوا به.

ملحوظة: سعيت في استخدام الأحاديث الثابتة عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في استدلالاتي، فعامةً إن الأحاديث ما بين صحيح وحسن/جيد إلا إذا ذكرت أنه ضعيف، وهذا في إطار حدود معرفتي. هذا مع العلم أني قد استخدمت ترقيم العالمية، عندما أمكن، في ترقيم الأحاديث.

عن المؤلف

إني لست عالمًا ولا حتى تلميذًا لعالمٍ، ولكن هداني الله فاجتهدت متطلعًا في (بعض) علوم الإسلام. وبما أني لست عالمًا، فليس من حقي أن أنشر مثل هذا الكتاب دون مراجعته من عالمٍ، لأني قد أضُر المسلمين أو الإسلام خطأ وإن كان دافعي نفعهم. فقد أقول كلامًا يتعارض مع الشرع، أو يجلب فتنًا، أو مُفترًى لا أصل له، أو ناتجًا عن سوء فهم للنصوص، فأضل ويكون عليَّ وزر ذلك إذ أتكلم دون علم. ومن هذا المنطلق، كان من الواجب أن أُعرض هذا الكتاب على عالم كي يراجعه ويُحقق فيه، إما أن ينهاني عن نشره وإما أن يسمح بنشره بعد تصليحه. وهذا هو الحق الذي يجب فعله، كي لا أكون من الذين يتكلمون في الإسلام بجهلٍ.

سبب كتابتي هذا الكتاب هو أني كنت مسرفًا في معصية الله في سابق عهدي، ثم أقبلت على التوبة، وأردت أن تكون توبتي لها جانب ملموس، فعزمت أن يكون بهذا الكتاب. والسبب الآخر لكتابتي هو أن يكون كتابي وقايةً لمن بعدي من أن يمر بما مررت به أنا، فلا يصبح ضحيةً لهواه أو أداة في يد الشيطان. ولا أستطيع أن أفي وصف مدى صبر الله عليَّ، ويكفيني ذكر أني كنت على معصية دنيئة (غير أنها لم تكن من الكبائر بفضل الله وحفظه، والحمد له) في سابق عهدي وأوشكت أن أنفضح لا محالة، ولكن حدث ما لا أستطيع أن أصفه إلا بأنها أُعجوبة. قد سترني الله بها بعد أن نفدت مني سُبُل التستر وبعدما أيقنت أني سأنفضح، فوقاني الفضح وتبعات ذلك من العواقب. وهذه الواقعة جعلتني أتفكر كثيرًا وأتعجب، لماذا سترني الله بالرغم من أني في عصيانه، وليست أي معصية بل كانت معصية غدر.

فأي رأفة وأي كرم هذا بالرغم من مخالفتي له، فما وجدت إلا أن صبره وستره عليَّ، إلى أن أتوب من مخالفتي إياه، هي معاملة لا تصدر إلا من الرب مع عبده، لأنه العظيم والغني عنهم. ومنذ تلك الفترة وأنا أُحب صفة الستر عند الله، وهذه صفة أشمل من الصبر لأن الستر يشترط وجود الصبر. وبما أن لله اسمًا بهذه الصفة أيضًا، يغفل عنه كثير من الناس (جاء في حديث "إنَّ اللهَ تعالى حييٌّ سِتِّيرٌ، يُحبُّ الحياءَ والسَّترَ، فإذا اغتسَلَ أحدُكُم فلْيستَتِرْ"[1])، فأحببت تلك الصفة المغفول عنها أكثر وأكثر. ولذلك كنَّيت نفسي "عبد السِتِّير" لهذا الكتاب، فهو ليس اسمي، وحتى أكون مجهولًا أمام عامة الناس كي لا أكون قد فضحت نفسي بعدما سترني الله، إذ قد تكلمت عن بعض أحوالي في عهدي القديم ليعتبر القارئ.

[1] صحيح الجامع للألباني 1756.

مقدمة الكتاب

هذا الكتاب مُقسَّمٌ إلى عدة أجزاء، ومع أنه عامة يهدف إلى زيادة علم القارئ ووعيه حتى يكون مُلِمًّا بالقضية، فيرى الصورة المُجملة بأبعادها، إلا أن كل جزء له هدفه. يبدأ الجزء الأول من الكتاب ببعض التعريفات حول موضوع المعصية ليفهم المرء المصطلحات المستخدَمة، ثم يأتي العنوان الرئيسي للجزء الأول "في لحظات صدق مع النفس"، والذي يشمل الأفكار المُضلة المُهلكة التي ترِد على خاطري لأستحل المعاصي، نتيجة الهوى أو ما يُسوِّله الشيطان.

ولا شك أن من تلك الأفكار ما يطرأ في أذهان بعض الناس أيضًا، أفكار ما بين الحث على ارتكاب المعصية وبين التثبيط عن تركها. وتم الرد على كل فكرة بطريقة علمية ومنطقية حتى لا يبقى لها عُذر ويظهر بُطلانها، وكي لا تُوقِع أحدًا غيري إذ تزال تتردد في العقل حتى قد تستميل العبد وتؤثر في سلوكه. وقد لا يسلم من بعض تلك الأفكار حتى الفقيه. وأكثر الناس عُرضة لأن يكونوا ضحايا لهن هم الذين يرون أنهم في مأمن منهن، فالغرور يؤدي إلى تراخي الحرص ومن ثمَّ يكون مدخلًا للعدو، فيتسبب في السقوط.

ثم يليه جزء "تعرف على الخالق وعلى كل طرفٍ في القضية"، والذي يزيد المرء حُبًّا لله وإعراضًا عن الدنيا، وهذا يساعده على اتباع الحق واجتناب الباطل، وتنأى نفسه عن ارتكاب المعصية. وهذا الجزء يعمد إلى منع المرء من الوقوع في المعصية عن طريق إثارة مشاعره.

أما الجزء الثالث "المعاصي: تبعاتها وآثارها"، فهو يُبَغِّض المرء في المعصية حتى يُنزِّه نفسه عنها؛ وعلى الوجه الآخر فإن الجزء الرابع "ما المقابل لترك المعصية؟" يُحفِّز المرء على ترك المعصية لينال المكاسب. ثم يليهما الجزء "كيف أحُثّ نفسي على ترك المعاصي"، وهو إرشادٌ عملي على كيفية الإقلاع عن المعصية، خاصةً المُعتادة. والجزء السادس "كيف أتخلص من عبء الذنوب؟" يُساعد المرء في اجتيازه لمرحلة الخطأ، والشروع في مرحلة الإصلاح بعدما وقع في المعصية، وتُجنِّبه الوقوع في اليأس الذي ليس له فائدة إلا تثبيط المرء عن تحسين وضعه.

ووضعت بعد ذلك الجزء السابع والأخير "صفات محمودة وصفات مذمومة"، والذي ذكرت فيه بعض الصفات التي يُستحب اكتسابهن، وأُخَر ينبغي التخلص منهن. هذه التقويمات تكون بمنزلة وقاية للعبد من الوقوع في المعصية أصلًا، إذ تغلق أبوابًا رئيسية تؤدي إلى معاصٍ شتى. وألحقت بهذا الجزء عنوان "بعد أن كل شيءٍ قد قيل وفُعل، هناك أمل" لتحفيز العبد على الإقبال على ربه بالاستغفار والتوبة بغض النظر عما صدر منه، ويضم وصية أخيرة شاملة موجزة تُلِم بجميع أركان قضية المعصية من الجهة العملية، وتُعالج مشكلة عصيان الله من جذورها إذا تم الالتزام بهذه النصيحة. يتبع كل هذه العناوين خاتمة الكتاب.

فهرس الجزء الأول

عن الكتاب 3
عن المؤلف..... 4
مقدمة الكتاب..... 5
فهرس الجزء الأول..... 6
تعريفات حول موضوع المعصية. 8
معاني المصطلحات:..... 8
أقسام المعاصي:..... 10
أصل المعاصي:..... 12
بواعث العصيان: 13
1. في لحظات صدقٍ مع النفس..... 13
أولًا: الأفكار التي تصدر من محور الغرور:..... 14
سأتمتع بالدنيا بالإضافة إلى فوزي بالجنة في الآخرة 14
لا يزال الوقت مُبكرًا على أن أقلع عن المعاصي 31
على الرغم من أني مُقصِّرٌ مع الله، فإنني بقوة الإيمان الذي في قلبي قد أُدرك منزلة من هو أفضل مني في العمل..... 42
أستطيع أن أوازن الأمور، بالمواظبة على الأعمال الصالحة مع ارتكابي المعصية 52
ما دام المُستغفر يُغفر له، لي أن أفعل ما أشتهيه عمدًا ثم أستغفر الله، وأُكرر ذلك..... 57
لا ضير فيما أفعله من معاصٍ ما دامت صغيرة/قليلة جدًّا 70
إن سعة رحمة وعفو الله واسعة، وافتراض أن هناك ذنبًا أعظم من عفو الله هو افتراء وجُرأة على الله..... 78
لا بأس فيما أرتكبه ما دمت سأموت شهيدًا..... 81
قد أنجزت كثيرًا من العمل الصالح، فلا بأس من الترفيه عن نفسي (بالمعصية) 85
إنه يحق لي أن أختار معصية واحدة أكون معذورًا في ارتكابها..... 94
ثانيًا: الأفكار التي تعمل نحو اليأس وإضعاف عزيمة المرء: 99
ما دمت خُلقت خطَّاء وسأقع في معصية ما لا محالة، فلماذا أُجاهد المعصية؟ 99
سأفعل هذه المعصية فقط هذه المرة. 105
قد ارتكبت من المعاصي ما لا يُمكن إصلاحه..... 107
تنتقدني وتهاجمني الناس لإعراضي عن المعصية 109
عامة الناس في لهوٍ وتقصير، ولا أستطيع أن أحمل هذا الدين وحدي، فلن يحدث فرق إن وقعت في بعض المعاصي 113
عندي من البلاء الشديد ما يعذرني في ارتكاب المعصية، وأحتاج إلى التخفيف عن نفسي (بالمعصية) 119
إن وساوس الشيطان تتردد في ذهني حتى أكاد أن أُجن أحيانًا، فلا تخمد إلا بفعل المعصية..... 124
ثالثًا: الأفكار التي ترد على أساس تحسير المرء:..... 126
ستفوتني لذة المعصية إذا لم أغتنمها! 126
رابعًا: الأفكار التي ترد بناءً على جهل أو سوء استيعاب:..... 129

إن للدنيا حقًّا، فلا يمكن أن نترك تحصيل الرزق، ولا يجوز أن نترك الأرض دون تعمير 129
إن الذي يعصي الله ثم يتوب أفضل من الذي لا يعصي الله ولا يتوب؟! 132
إني سأرتكب هذه المعصية لأُحقق خيرًا من ورائها 134
أنتظر حتى يهديني الله لأُقلع عن المعاصي 139
إن المعاصي التي أرتكبها مكتوبة عليَّ فلا يمكن أن أتفاديها 142
إنني في منتهى الصغر بالنسبة إلى الله من أن ينظر إليَّ فيغضب لمعصيتي له، وهو غنيٌّ من أن يعذبني عليها 152
لا يمكن أن تكون تلك معصية إذ لا ضرر منها 153
لا يمكن أن يكون ذلك حراما إذ إن أغلب الناس يفعلونه! 156
لا يمكن أن أُعاقب على هذا الفعل (المعصية) إذ سيكون ظُلمًا 160
أنا لم أختر أن أُختبَر 162

تعريفات حول موضوع المعصية.

معاني المصطلحات:

العصيان هو: الامتناعُ عن الانقيادِ. والمقصد في هذا الكتاب من المعصية أو عصيان الله هو: مُخالفة أمرِه، ومُعاندته، والخروج عن طاعته.

والسيئة هي: ما يسوء الإنسان في دنياه أو آخرته. قال تعالى {وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا} [آل عمران 120]، وقال {وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ} [النساء 78].

والخطيئة: من الخطأ، وهو عدم الإصابة. وقد يكون عن عمد، وقد يكون عن غير عمد، إلا أنه غير العمد أكثر. قال تعالى {رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا} [البقرة 286]، وقال {وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ} [الأحزاب 5].

قال الأصفهاني في مفردات غريب القرآن: الخطيئة والسيئة يتقاربان، لكن الخطيئة أكثر ما تقال فيما لا يكون مقصودًا إليه، بل يكون القصد سببًا لتولد الفعل منه (انتهى).

وقال البيضاوي في تفسير قوله تعالى {بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ}: الفرق بين السيئة والخطيئة: أن السيئة تقال فيما يقصد بالذات، والخطيئة: تغلب فيما يقصد بالعرض، لأنه من الخطأ (انتهى).

أما الفرق بين الذنب والإثم، ففي اللغة: الذنب في الأصل الأخذ بذَنبِ الشيء، ويُستعمل في كل فعل يستوخم عقباه اعتبارًا بذَنَب الشيء، ولهذا يُسمى الذنب تبعة اعتبارًا لما حصل من عاقبته (انتهى من مفردات القرآن للأصفهاني).

والإثم هو: اسم للأفعال المبطئة عن الثواب، وقوله تعالى {فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ} يعني في تناولهما إبطاء عن الخيرات (انتهى من مفردات القرآن للراغب).

أما في الشرع فقد يكونان، أي الإثم والذنب، بمعنى واحد، مثل قوله تعالى {وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْما}. قال القرطبي: قيل هما بمعنى واحد، كرر لاختلاف اللفظ تأكيدًا له، والخطيئة هي هنا الذنب. وقيل في تفسير الآية: إن الخطيئة بمعنى الصغيرة، والإثم بمعنى الكبيرة.

وقد يكونان –أي الإثم والذنب– متغايرين، فيكون معنى الذنب المعصية، ومعنى الإثم ما يترتب عليها، فيقال: فلان أَثم بذنبه.

والفاحشة هي ما عظم قبحه من الأقوال والأفعال، أي ما تجاوز قدره، وتُطلق الفاحشة على الزنا كناية، قال تعالى: {وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ} [النساء 15]. والله أعلم.

والفجور هو الانبعاث في المعاصي. وأصل الكلمة تأتي من التَّفَتُّح، إشارةً إلى أن الفجور هو أن الفرد يألف العصيان ويَهون عنده، والناتج هو الإسراف في المعاصي.

والفسوق يعني الخروج عن شيء. وفي الشريعة يُستخدم للتعبير عن الخروج عن طريق الحق (أي عن طاعة الله وعن الطريق المستقيم). ومن ثَمَّ، فإن الفسوق يقع بالقليل أو الكثير من الذنوب، ولكن الأغلب أنه يُطلق على العصيان كثيرًا. بالأمثلة، فإن المسلم الفاسق معناه الذي يعصي ربه مع التوحيد؛ والفاسق عن الإسلام معناه الكفر.

أما على الجهة المعاكسة من العصيان، تكون التقوى. التقوى هي الاسم من التُقَى، والمصدر: الاتِّقاء، وهي مأخوذة من مادة وَقَى، فهي من الوقاية، وهي ما يحمي به الإنسان نفسه. وأما المعنى الشرعي، فقد ذكر العلماء في تعريفها عدة عبارات، فمن ذلك قولهم:

– التقوى أن يجعل المسلم بينه وبين ما يخشاه من ربه، من غضبه وسخطه وعقابه، وقايةً تَقِيَه من ذلك، وذلك بفعل طاعته واجتناب معاصيه.

– التقوى أن تعمل بطاعة الله على نور من الله، ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله على نور من الله، تخاف عقاب الله.

– أن تجعل بينك وبين ما حرم الله حاجبًا وحاجزًا.

– التقوى هي الخوف من الجليل، والعمل بالتنزيل، والقناعة بالقليل، والاستعداد ليوم الرحيل.

وينبغي معرفة الفرق بين مغفرة الله وعفوه، خاصة أن لله أسماء بهما، وكي يتم تدبر الآيات والأحاديث الوارد فيهما المصطلحان، مثل {فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا} [النساء 99]. قال الإمام الغزالي (رحمه الله) حول أسماء الله: العفُوّ الذي يمحو السيئات ويتجاوز عن المعاصي، وهو قريب من اسم الغفور ولكنه أبلغ منه، لأن الغُفران يُنبّئ عن الستر، والعفو يُنبّئ عن المحو، والمحو أبلغ من الستر[1].

وأصل معنى كلمة التوبة هو الرجوع، والتوبة بما نتداولها هي رجوع العبد إلى الله مُعترفًا بخطئه ونادمًا، مع مُعالجة الخطأ إن أمكن. والفرق بين معنى الإنابة والتوبة صغير، فالإنابة معناها الرجوع باعتياد، أي الرجوع المُتكرر إلى الله، وقيل إنها يُصاحبها فعل الطاعات.

[1] المقصد الأسنى 117.

أقسام المعاصي:

العصيان يندرج تحت أحد بابين: إما ترك لأمر أوجبه الله، وإما ارتكاب منكر قد نهى الله عنه. وكلٌّ منهما ينقسم إلى صغائر وكبائر الذنوب؛ فترك الصلاة كبيرة في ترك الواجبات، وشهادة الزور كبيرة في ارتكاب المنهيات. وهناك تقسيمات أخَر تفصيلية؛ فمن حيث اعتبار محلّه ينقسم إلى: ظاهر على الجوارح أو باطن في القلوب؛ ومن حيث اعتبار مُتعلّقه ينقسم إلى: في حق الله أو في حق مخلوقات الله.

ولا شك أن هناك فرقًا في الوزر بين الذنوب، كما أن هناك فرقًا في الأجر بين الأعمال الصالحة، وفيهما يتفرق العباد في درجاتهم عند الله. توجد أدلة كثيرة على أن هناك كبائر وصغائر للذنوب، كما في قول الله تعالى {إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا} [النساء 31]. وقد اختلف العلماء في عدد الكبائر، إلا أن بعضهم قد اجتهد في وضع تعريف عام لهن، ذكر الذهبي (رحمه الله) كثيرًا منهم في كتابه "الكبائر"، منه ما قاله ابن عباس (رضي الله عنه) أن الكبائر: كل ذنب ختمه الله تعالى بنارٍ، أو غضب، أو لعنة، أو عذاب[1]. ونحو هذا قال الحسن البصري (رحمه الله). وقال ابن عباس (رضي الله عنه) إن الصغيرة هي ما دون الحدَّين: حد الدنيا، وحدّ الآخرة [الحدّ هو العقاب الذي يُلزمه الله لمن يفعل ذنبًا مُحددًا].

ثم أجمل وأوضح الإمام الذهبي (رحمه الله) قائلًا في تعريف الكبيرة: أن من ارتكب حُوبًا [إثمًا] من هذه العظائم: مما فيه حدٌّ في الدنيا، كالقتل والزنا والسرقة، أو جاء فيه وعيد في الآخرة من عذابٍ وغضبٍ وتهديدٍ، أو لُعن فاعله على لسان نبينا محمد (صلى الله عليه وسلم)، فإنه كبيرة ولا بُد، مع تسليم ذلك أن بعض الكبائر أكبر من بعض؛ ألا ترى أنه (صلى الله عليه وسلم) عدَّ الشرك من الكبائر، مع أن مرتكبَه مُخلد في النار ولا يُغفر له أبدًا. قال الله تعالى {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ} [النساء 48]، وقال تعالى {إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ} [المائدة 72]، ولا بد من الجمع بين النصوص[2].

وتعريفًا بما هو من أكبر الكبائر، بناءً على نصوص شرعية، هُم: الإشراك بالله، عقوق الوالدين (العق هو القطع، والمراد به صدور ما يتأذى به الوالد من ولده من قول أو فعل، إلا في شرك أو معصية الله، ما لم يتعنَّت الوالد)، قتل النفس (بغير حق)، شهادة الزور، الزنا، الفرار يوم الزحف (أي الهروب من العدو عند لقائه في الحرب)، السِحر، أكل الربا، أكل مال اليتيم، قذف المُحصنات المؤمنات الغافلات (أي اتهام العفيفات بالزنا غيبًا)، الإلحاد في الحرم، اليمين الغموس

---

[1] الشعب للبيهقي 292، 7150.

[2] الكبائر للذهبي 89.

(أي الحلف الكذب الذي يُقتطع به مال امرئ مسلم)، عدم التستر من البَول (أي عدم التنزه منه، مثل بعدم الاستنجاء، وهو غسل العضو بعد التبول).

لكن، لا تقتصر كبائر الذنوب على هؤلاء، إنما أولئك هم أكبرهم، فهناك ذنوب أُخر عظيمة وكبيرة عند الله بناء على نصوص شرعية، مثل اللواط وشرب الخمر والسرقة والرشوة ومنع الزكاة والتكبُّر، فمن الصعب حصر عددهم بالضبط. قيل لابن عباس (رضي الله عنه): الكبائر سبع؟ قال: هي إلى السبعين أقرب[1].

وينبغي الانتباه أن مصطلح "الكبيرة" لا يعني أن صغائر الذنوب يُستهان بهن وليسوا بمُهلكات، لأن هناك أدلة كثيرة تنفي ذلك، منها أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) قال "إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ، فَإِنَّهُنَّ يَجْتَمِعْنَ عَلَى الرَّجُلِ حَتَّى يُهْلِكْنَهُ"[2]. وهناك آفات كثيرة للصغائر سيأتي إن شاء الله ذكرهن لاحقًا في كيفية أن يرتبطوا بكبائر، مثل ما قاله بعض العلماء: والإصرار على الصغيرة يجعلها كبيرة.

وقال الشيخ أبو حامد الغزالي (رحمه الله) في "البسيط في المذهب" كلامًا مُبيّنًا وقويًّا عن مسألة تقسيم المعاصي إلى صغيرة وكبيرة، قائلًا: ولا شك في كون المخالفة [لحد من حدود الله] قبيحة بالنسبة إلى جلال الله تعالى، ولكن بعضها أعظم من بعض، وتنقسم باعتبار ذلك إلى ما تُكفِّره الصلوات أو صوم رمضان أو الحج أو العمرة أو الوضوء، أو صوم عرفة أو صوم عاشوراء أو فعل الحسنة أو غير ذلك مما جاءت به الأحاديث الصحيحة، وإلى ما لا يُكفِّره ذلك كما ثبت في الصحيح "مَا لَمْ تُغْشَ الْكَبَائِرُ"[3]، فسمى الشرع ما تُكفِّره الصلاة ونحوها صغائر، وما لا تُكفّره كبائر، ولا شك في حسن هذا، ولا يخرجها هذا عن كونها قبيحة بالنسبة إلى جلال الله تعالى، فإنها صغيرة بالنسبة إلى ما فوقها، لكونها أقل قبحًا، ولكونها متيسرة التكفير، والله أعلم (انتهى).

قد وضع أيضًا الشيخ الغزالي تقسيمًا آخر للمعصي، وهذا على أساس نوعها:

1- الذنوب المَلَكِيَّة: فالذنوب الملكيّة: أن يتعاطى العبد ما لا يصلح له من صفات الرّبوبيّة، كالعظمة، والكبرياء، والجبروت، والقهر، والعلوّ، واستعباد الخلق، ونحو ذلك.

ويدخل في هذا الشّرك بالرّبّ تعالى، وهو نوعان: شرك به في أسمائه وصفاته وجعل آلهة أخرى معه، وشرك به في معاملته، وهذا الثّاني قد لا يوجب دخول النّار، وإن أحبط العمل الّذي أشرك فيه مع الله غيره [وذلك هو الرّياء].

---

[1] تفسير الطبري 254/8.

[2] مسند أحمد 3627.

[3] صحيح مسلم 342.

وهذا القسم أعظم أنواع الذّنوب، ويدخل فيه القول على الله بلا علم في خلقه وأمره، فمن كان من أهل هذه الذّنوب، فقد نازع الله سبحانه في ربوبيّته وملكه، وجعل له ندًّا، وهذا أعظم الذنوب عند الله، ولا ينفع معه عمل.

2- الذنوب الشيطانية: وأمّا الشّيطانيّة: فالتّشبّه بالشّيطان في الحسد، والبغي، والغشّ، والغلّ، والخداع، والمكر، والأمر بمعاصي الله، وتحسينها، والنّهي عن طاعته، وتهجينها، والابتداع في دينه، والدّعوة إلى البدع والضّلال.

وهذا النّوع يلي النّوع الأوّل في المفسدة، وإن كانت مفسدته دونه.

3- الذنوب السَّبعِيَّة: وأمّا السّبعيّة: فالعدوان، والغضب، وسفك الدماء، والتوثّب على الضعفاء والعاجزين، ويتولّد منها أنواع أذى النّوع الإنسانيّ، والجرأة على الظلم والعدوان.

4- الذنوب البهيمية: وأمّا الذنوب البهيميّة فمثل الشَّرَه، والحرص على قضاء شهوة البطن والفرج. ومنها يتولّد الزّنى، والسّرقة، وأكل أموال اليتامى، والبخل، والشّحّ، والجبن، والهلع، والجزع، وغير ذلك.

وهذا القسم أكثر ذنوب الخلق لعجزهم عن الذّنوب السّبعيّة والملكيّة، ومنه يدخلون إلى سائر الأقسام، فهو يَجُرُّهم إليها بالزّمام، فيدخلون منه إلى الذّنوب السّبعيّة، ثمّ إلى الشّيطانيّة، ثمّ إلى منازعة الرّبوبيّة، والشّرك في الوحدانيّة[1].

أصل المعاصي:

قال الإمام ابن القيم: أصول المعاصي [أي منبعها] كلها، كبارها وصغارها، ثلاثة:

1- تعلُّق القلب بغير الله.

2- وطاعة القوة الغضبية.

3- و[طاعة] القوَّة الشهوانية.

وهي: الشرك، والظلم، والفواحش. فغاية التعلُّق بغير الله: الشرك، وأن يُدعَى معه إله آخر، وغاية طاعة القوة الغضبية: القتل، وغاية طاعة القوَّة الشهوانية: الزنا.

[1] مختصر منهاج القاصدين لابن قدامة 252.

ولهذا جمع الله سبحانه بين الثلاثة في قوله {وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ} [الفرقان 68].

وهذه الثلاثة يدعو بعضها إلى بعض، فالشرك يدعو إلى الظلم والفواحش، كما أنَّ الإخلاص والتوحيد يصرفها عن صاحبه، وكذلك الظلم يدعو إلى الشرك والفاحشة، فإنَّ الشرك أظلم الظلم، قال تعالى {إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ} [لقمان 13]. والفاحشة تدعو إلى الشرك والظلم؛ فهذه الثلاثة يجرُّ بعضها إلى بعض فيأمر بعضها ببعض[1].

بواعث العصيان:

إن من الأسئلة المحورية: ما العوامل التي تدفع بالمرء إلى قرار تنفيذ المعصية؟ وهذا سؤال مهم، إذ بمعرفة المصادر الحاثة على العصيان يستطيع العبد أن يحترز منهم ويسعى في مقاومتهم. العوامل الثلاث هي: النفس (سواء للهوى أم لدفع ابتلاء)، شياطين الجن، شياطين الإنس.

بمعرفة هذا، يستطيع المرء أن يأخذ تدابير وقائية حتى يُقلِّص من عصيانه لله، فقد يُحجم شهوات النفس بترك بعض المباحات مثلًا ليتدرب على مُخالفتها ويُعوِّدها على طاعة عقله. وأما فيما يختص بعصيان الله لدفع ابتلاء، فهذا يواجه باستيعاب غرض ابتلاء الله للعباد وتقوية اليقين بالله والصبر، وهذا عن طريق التفقه في الدين. وقد ينفذ من تأثير شيطان الجن بكثرة قراءة القرآن أو الاستعاذة بالله أو لزوم الأذكار كأمثلة، وقد يتخلص من تأثير شياطين الإنس بالابتعاد عن رفيق السوء والحط من قدر الدعاة لغير سُنَّة الرسول (صلى الله عليه وسلم). وسيأتي الكلام عن الثلاث عوامل تلك بتفصيل أكثر في خلال الكتاب إن شاء الله.

1. في لحظات صدقٍ مع النفس

راقبت نفسي أحيانًا عندما هممت بارتكاب ذنبٍ، إذ تتردد في نفسي أفكار تُسَوِّل المعصية، فتارة أقول لنفسي "إنها صغيرة"، وتارة "سأتوب ويغفر الله لي"، وتارة "لا مفر من المعصية، فهي ستصدر مني لا محالة عاجلًا أم آجلًا"، وغير ذلك. ولكن في لحظات سكينة يتصارح فيها المرء مع نفسه، وجدت أن جميعها ما هي إلا حجج لإخماد ضميري، اتضَّح بُطلانها، وذلك بعد التحقق منها في حوار صادق مع النفس. إنها أفكار سولتها لي نفسي، أو الشيطان الذي يجري في جسدي كما قال النبي (صلى الله عليه وسلم) "إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنْ الإِنْسَانِ مَجْرَى الدَّمِ"[2]. هذه الأفكار تدخل على

[1] الفوائد لابن قيم الجوزية 81.

[2] صحيح مسلم 4040.

المرء من محاور أساسية، منها الاغترار أو اليأس أو التحسير أو سوء الفهم. ها هي الأفكار التي تراودني:

أولًا: الأفكار التي تصدر من محور الغرور:

سأتمتع بالدنيا بالإضافة إلى فوزي بالجنة في الآخرة

قد ينتاب المسلم فكرة أنه قد يتمتع بالدنيا كيفما شاء، لأنه لا ضير إذ إنه شهد شهادة الحق فسيدخل الجنة، كما دلت أحاديث عدة على ذلك مثل قوله (صلى الله عليه وسلم) "مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، وَالْجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ، أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنْ الْعَمَلِ"[1]. ولكن، حتى إن استطاع أن يتماسك المرء بالشهادة فيكون ممن شملتهم هذه السعة، فهناك عدة علل في ذلك النمط الفكري. ومع أن اليأس من مغفرة الله مذموم، فإن التسليم بنيل مغفرة الله قد يُذهب بالمرء إلى الجهة الأُخرى من الطيف، وهو الإسراف والاستخفاف بالمعاصي. فالمطلوب هو الموازنة: عدم اليأس من نيل عفو الله ولكن مع عدم الجزم بنيله. فلنذكر بعض العلل الخطيرة لهذا الفكر:

هذا النهج شبيهٌ بمسلك الذين باعوا دينهم من اليهود. قد جاء في بعض الذين مضوا بالكتب السابقة {فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُواْ الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لاَّ يِقُولُواْ عَلَى اللهِ إِلاَّ الْحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِ وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ} [الأعراف 169]. هذه الآية تتكلم عن اليهود الذين درسوا كتابهم وما فيه من أحكام ثم أتوا ما حرَّم الله، بأن إذا عُرض عليهم الأدنى (متاع الحياة الدنيا) أقبلوا عليه ولو كان مخالفًا لأحكام كتبهم، واغتروا فلم يتوبوا إذ إنهم كانو يكررون الفعلة، وكانوا يجزمون بأنهم سيغفر لهم جُرأةً وتأويلًا على الله!

سبحان الله على عظمته، فلا ينبغي أن أظن أني أتيت بفكرةٍ جديدةٍ أو حُجةٍ مُبتكرةٍ، أو وجدت ثغرة أستطيع بها أن أنجو بعصيان الله، لأن من أكثر التبريرات شيوعًا لمرتكبي المعاصي اقتناعهم أنهم سيُغفر لهم. ومع أن هذا وارد دون توبة، كما دلت بعض الآيات والأحاديث (للعاصي وليس لمن خان دينه) مثل "بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي بِطَرِيقٍ اشْتَدَّ عَلَيْهِ الْعَطَشُ فَوَجَدَ بِئْرًا فَنَزَلَ فِيهَا فَشَرِبَ، ثُمَّ خَرَجَ فَإِذَا كَلْبٌ يَلْهَثُ يَأْكُلُ الثَّرَى مِنْ الْعَطَشِ فَقَالَ الرَّجُلُ: لَقَدْ بَلَغَ هَذَا الْكَلْبَ مِنْ الْعَطَشِ مِثْلُ الَّذِي

[1] صحيح مسلم 3180.

كَانَ بَلَغَ مِنِّي، فَنَزَلَ الْبِئْرَ فَمَلأَ خُفَّهُ مَاءً ثُمَّ أَمْسَكَهُ بِفِيهِ حَتَّى رَقِيَ فَسَقَى الْكَلْبَ، فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ فَغَفَرَ لَهُ"[1]، فإن على الجانب الآخر لله مكرًا، من أَمِنَ منه يوشك أن يُصيبه.

وقولي لنفسي "سيُغفر لي" هو أمن من مكر الله وجرأة على الله وفُجر، لأني أحزم أن الله سيفعل فعلًا في حين له أن يفعله أو لا، وأفتري عليه عهدًا لم يعطني إياه، وإنما هو فضل ورحمة من الله يصيب بها من يشاء. فالأَولى ترك هذا الاعتقاد الذي يسوله الشيطان لي ولنا، فلسنا بأول ناس تراودنا هذه الفكرة كما نبأنا الله في كتابه الكريم كي نتعظ، ويجب أن ننتهز هذه النصيحة الغيبية التي تُبين لنا أن الله يعلم سرائرنا، فلا نخدع أنفسنا.

ثم يجب أن يقف المرء وقفة مع نفسه ولينظر إلى الأدلة والمؤشرات، ولا ينظر إلى المشاعر والظنون، وعلى ذلك الأساس فليسأل نفسه: هل حالة الأمة الآن مُكرمةٌ من الله أم نحن في عقاب وذُلٍ من الله؟ وبنظرة حيادية سيرى المرء أن أغلب المسلمين في الفترة الحالية أعمالهم تدل على أنهم يتواكلون على أنهم شهدوا أن لا إله إلا الله، وتهاونوا بالالتزام بشريعة الله فتهاونوا بالعصيان، بل وصار هذا علانية.

اعتمد كثير من المسلمين أنهم على الدين الصواب فأنهم المُميزون عند الله، أو أنهم أدُّوا ما عليهم بالشهادة وحدها، وبسبب ذلك كله فإن الأمة الإسلامية من الأمم المتأخرة علميًّا واقتصاديًّا وعسكريًّا مقارنة بالأمم الكافرة. فمن يقول لنفسه إنه نجى بالشهادة فليسأل نفسه السؤال المنطقي {وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىَ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَللهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ} [المائدة 18]، فهل يُعقل أن أقوامًا ترى أنها ناجيةٌ من العذاب في حين يُعاقبون على ذنوبهم، فكيف تكون ناجيةً؟

إضافةً إلى ذلك كله، قد ينزلق المرء إلى أفكارٍ باطلة تُؤدي به إلى الهلاك إذ إنها أماني، مثل قول اليهود إنهم شعب الله المختار فلهم العزة والتميز والعصمة من العذاب، وأن الجنة خالصة لهم من دون الناس. وهناك أيضًا قول النصارى إن صُلب المسيح (عليه السلام) كفَّارةٌ لهم لما يقترفونه من أعمال سوء، على أساس أنه أفدى بنفسه، فعانى ليحمل عن أتباعه أوزارهم فسيدخلون الجنة. على الوجه الآخر، هناك مسلمون يرون أنهم بسبب شهادتهم أنه لا إله إلا الله فلن يدخلوا النار، وسيُغفر لهم بالرغم من عصيانهم لله، متواكلين على أنهم أفضل من أهل الكتاب في العقيدة. أوليس تلك أماني أيضًا؟!

فقد غفل هؤلاء وهؤلاء عن قول الله تعالى {لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلاَ يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللهِ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا} [النساء 123]، فهذه الآية نزلت عندما افتخر

[1] صحيح مسلم 4162.

أهل الكتب بتقدم كتابهم وأنبيائهم (عليهم السلام)، وافتخر المسلمون بخاتم النبيين (صلى الله عليه وسلم) وكتابهم الذي ينسخ الكتب السابقة. وفي الآية دلالة على زجر الفريقين عن الاغترار بالكتب والأنبياء بدلًا من تقديم العمل الصالح، أو عدم اعتبار عواقب الأعمال السيئة. ولكن بالنسبة إلى المسلم (كما جاء في التفاسير) أنه يُجزى بعمله السيئ بأن يُكفَّر عنه في الدنيا بالبلايا، والحمد لله على رحمته وعفوه.

ولكن هذا لا يعني أن من لم تكفِ كفَّاراته في الدنيا من محو مساوئ أعماله، أنه لن يُجازى عليها في الآخرة، بل إن الآية تشير إلى أن العدل سيتحقق عامةً. وهذا هو الذي أردت الإشارة إليه، أن المسلم قد يُمحى من ذنوبه بالكفارات في الدنيا، ولكن إذا ازدادت عن حدِّها بسبب أمانيه، فإنه سيُجازى عليها في الآخرة. ولن يمنعه أنه مُسلم من أن يقع في مثل ما وقع فيه أهل الكتاب من مبدأ خاطئ (مع فرق الدرجة)، فقد انزلقوا تدريجيًّا في الأماني حتى ادَّعوا أنهم مغفورٌ لهم مُطلقًا! بل هؤلاء الذين جزموا أن الله سيغفر لهم، قد خرج كثير منهم من دينهم سواء بفساد عقيدتهم أو بأعمالهم التي عارضت شرعهم. كذلك، قد يتبنى المسلم ذلك المنهج حتى ينحدر إلى كبائر الذنوب، فيُصبح منافقًا أو كافرًا بأعماله.

فالعبرة بالأعمال وليس بفخر الانتساب لكتابٍ أو رسولٍ، لأن العمل هو دليل الانتساب لكتابٍ أو رسولٍ، وليس الأمر خاضعًا لأماني ورغبات أهل الكتب السابقة أو حتى نحن. هي قاعدة ثابتة وشاملة: من يعمل سوءًا يُجز به، بغض النظر عن إيمانه بالله أو كُفره.

أليس هذا غرورًا؟ من الفطنة والورع أن يراجع المرء نفسه بين الحين والآخر، بدلالات الأعمال وبوقائع النتائج، من أن يكون قد أصابه الغرور. فما أسهل تسلله إلى نفس المرء، النفس التي تُحب إعلاء قدرها عن الآخرين في المقام الأول. وقول المرء لنفسه إنه سيدخل الجنة مع أنه ماكث على المعاصي (لأي عذر أو تبرير كان) فلا شك أنه من الغرور، ويجب ألا يستبعد المرء أن يكون قد أصابه الغرور، لأن الاقتناع بالعصمة من الغرور هو غُرورٌ في حد ذاته!

وما يجعل المرء يرى سهولة تسلل الغرور إلى أي أحد، وهو لا يُلاحظ أو لا يعترف بذلك، هو أنه كان هناك من أفجر من المسلم العاصي (وهو الكافر)، ومع ذلك ادَّعَى أن له الجنة. فإذا كان الكافر قد غفل عن تسلل الغرور إليه بالرغم من مدى قبح عمله، فكيف لا يغفل مَن دونه في سوء العمل عن تسلل الغرور إليه؟ ألم يقل الكافر {وَمَآ أَظُنّ السّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رّدِدتّ إِلَىَ رَبّي لأَجِدَنّ خَيْرًا مّنْهَا مُنْقَلَبًا} [الكهف 36]؟! وقال آخر {وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مّنّا مِن بَعْدِ ضَرّآءَ مَسّتْهُ لَيَقُولَنّ هَذَا لِي وَمَآ أَظُنّ السّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رّجِعْتُ إِلَىَ رَبّيَ إِنّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىَ فَلَنُنَبّئَنّ الّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ

وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ} [فصلت 50]. وزعم غيره {أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا (77) أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا (78) كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا (79) وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا} [مريم 77-80].

بل ومنهم من ساقه غروره، حتى تجرأ وفجر، إلى مرحلة أنه يُقدِّم لله ما يكره ومع هذا يزعم أن الله سيُكافئه بالحُسنى {وَيَجْعَلُونَ لِلّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى لاَ جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ} [النحل 62]، فأي منطق هذا؟ ومع أن الآية تتكلم عن الذين نسبوا لله البنات، فإن لها مسلكًا في المعنى العام أيضًا، فقد يكون المرء مسلمًا ويعثو في المعاصي والإفساد في الأرض ومع ذلك مُقتنعٌ أن له الجنة مع أول الأفواج في الآخرة. فكل الذين سبق ذكرهم قد كفروا بالآخرة أو أشركوا بالله، ومع ذلك يرون أنهم حتى إن بُعثوا سيكون لهم خير الجزاء.

فيهم مثلًا من اغتر بكرم الله عليه بالمال أو الأولاد أو الأراضي، فجزم أن هذا دليل حب الله له وتفضيله، فتأوَّل على الله أنه تعالى سيُكرمه ويُفضِّله في الآخرة أيضًا فيكافئه بحسن الجزاء. كيف يُعقل هذا وقد كفروا بالله والآخرة، أو تطاولوا على حق الله بجعل معه شريكًا، أو قدَّموا له من الأعمال ما يكرهه وقد نهاهم عنها، فأي افتراء وسفه ذلك؟!

إن مَثَلَ هؤلاء كمثل رجل يُفسد في بلدٍ لها حاكم شرعي، فجعل الناس يقولون للرجل: أطع أمر الحاكم ولا تُخالفه؛ فظل يرد عليهم قائلًا: إن الحاكم ليس له سلطان على هذا البلد، وحتى إن كان مسيطرًا وتقابلنا فإنه سيُكرمني كي يُحبِبني فيه. ثم ظل هكذا حتى إذا بلغ الحاكم ما يقوله وما يفعله ذاك الرجل من مخالفة قوانينه وتحديه بعد ذلك، أرسل جنوده وجلبوا ذاك الرجل وأوقفوه أمامه، فمن منا يظن أن ذاك الحاكم سيُكرم الرجل المُفسد بدلًا من ردعه؟ فقد أصاب هؤلاء غرورٌ بأنفسهم أفجَّ من غرور المسلم العاصي بنفسه، ومع ذلك لم يُلاحظوا، ومن ثمَّ نستنتج أن غرور المسلم العاصي بنفسه درجة من الدرجات في سُلَّم الاغترار.

والمشكلة الرئيسية تكمن في أن طبع المرء يميل إلى أنه إذا أنعم الله عليه في الدنيا اعتبر أن ذلك معناه أن الله راضٍ عن أفعاله، بل ويُحبّه ولذلك يُكرمه، فيغتر وينسب الجنة لنفسه أيضًا بالرغم من أنه قد يكون ظالمًا لعباد الله. فالضلال لا يجب أن يأمن منه أحد، ومن أَمِن منه أو استبعد أن يصيبه لأنه يرى أنه أرقى من ذلك، قد جعل نفسه عرضة للإصابة به أكثر في الواقع. فمن منا لا يأخذ بنصيحة سيدنا حذيفة بن اليمان (رضي الله عنه، الذي استأمنه رسول الله صلى الله عليه وسلم بِكَتمِ أسماء المنافقين) وقد قال: إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَى هَذِهِ الأُمَّةِ أَنْ يُؤْثِرُوا مَا يَرَوْنَ عَلَى مَا يَعْلَمُونَ، وَأَنْ يَضِلُّوا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ[1].

[1] حلية الأولياء وطبقات الأصفياء لأبي نعيم الأصبهاني 278/1.

بل أليس هذا سفهًا؟ ينبغي ألا يكون منهج المرء في الحياة أن يخوض في المعاصي، ويؤجل همّ التفكير والتعامل مع معضلة عواقب هذا إلى الآخرة، لحظة لا مفر من المواجهة. هذا لكيلا يُدرِج نفسه تحت قول الله {إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا} [الإنسان 27]، فيكتشف كم كان سفيهًا. فهذا النهج الفكري هو عين توريط النفس، فلماذا أفعل بنفسي هذا، بل السؤال الأدق: لماذا فعلت بنفسي هذا؟

إن شهادة التوحيد يجب أن تُثبَت بالعمل، وجميع الأدلة تشير إلى ذلك. نادى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) سيدناَ مُعاذ (رضي الله عنه) "يَا مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ"، قَالَ: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ، قَالَ "يَا مُعَاذُ"، قَالَ: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ (ثَلاثًا)، قَالَ "مَا مِنْ أَحَدٍ يَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ صِدْقًا مِنْ قَلْبِهِ إِلا حَرَّمَهُ اللَّهُ عَلَى النَّارِ"، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَلا أُخْبِرُ بِهِ النَّاسَ فَيَسْتَبْشِرُوا، قَالَ "إِذًا يَتَّكِلُوا"؛ وَأَخْبَرَ بِهَا مُعَاذٌ عِنْدَ مَوْتِهِ تَأَثُّمًا[1]. (عند موته تأثمًا أي أخبر بهذا الحديث عند موته خوفًا من إثم كتمان علمٍ تعلمه من رسول الله صلى الله عليه وسلم).

هذا الحديث لتطمين قلوبنا وليس لفتح باب التواكل، فلا يغتر أحدنا بإيمانه أو بعمله، فهذا أول طريق الهلاك. وذلك لأن من قال لنفسه "أنا الآن أصبحت صالحًا" أو "أنا ناجٍ من عذاب الله" لن يتقدم ولن يتحسن، ولا سبيل أمامه إلا الانحدار من منزلته بسبب غروره وإهماله في المحافظة على إحسانه. والغرور في حد ذاته تدنٍ في المنزلة إذ فيه تعظيم للنفس، وذلك مما يبغضه الله، والصحابة الكرام لم يسلموا من الشك في أن أعمالهم تكفي للنجاة، حتى قبضهم الله على ذلك بالرغم من أعمالهم التي نصرت الإسلام. ثم إن هناك أحاديث تدل على أن هناك من شهد أنه لا إله إلا الله ودخل النار، فلعل القضية في الحديث المذكور أعلاه يكمن في كلمة "صِدْقًا مِنْ قَلْبِهِ". والصدق من القلب يكون مؤشره العمل الداعم للشهادة كما دلنا الإمام البصري (رحمه الله): إِنَّ الإِيمَانَ لَيْسَ بِالتَّحَلِّي وَلا بِالتَّمَنِّي، إِنَّمَا الإِيمَانُ مَا وَقَرَ فِي الْقَلْبِ وَصَدَّقَهُ الْعَمَلُ[2].

فإن النفس ينبغي لها قيود تحكمها طوال الوقت، ولو لم نفعل ذلك لخرجت عن السيطرة وتدحدرت في المعاصي حتى تغرق فيها. ومعنى أن يشهد العبد بأنه لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ويكون صادقًا في هذا من قلبه، هو أن يكون دالًّا على هذا بعمله، أي يسعى في طاعة الله والبعد عن معصيته إثباتًا لمصداقية قلبه. أما من يشهد بهذا ولا يثبته بالعمل

---

[1] صحيح البخاري 125.

[2] المُصَنَّف لابن أبي شيبة 217/7.

فذلك المتمني، المتمني بأن له الجنة دون عمل، وذلك هو المتوهم الخادع لنفسه، وهو مُتجه إلى الهلاك في الآخرة، ولكن إذا شاء الله نجَّاه. فليحذر كل واحد منا من نفسه وعمله، ولنحاسب أنفسنا قبل أن نُحاسَب ويأتي حكم الله بغتة.

ثم قد جاء عن سيدنا أبي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه): خَرَجْتُ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي حَائِطٍ فَقَالَ "يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، هَلَكَ الأَكْثَرُونَ إِلا مَنْ قَالَ هَكَذَا وَهَكَذَا، وَقَلِيلٌ مَا هُمْ" (أي المُكثرون من المال فإن يُنفق ماله في الخير، بصيغة المبالغة)، فَمَشَيْتُ مَعَهُ ثُمَّ قَالَ "أَلا أَدُلُّكَ عَلَى كَنْزٍ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ: لا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إِلا بِاللَّهِ"، ثُمَّ قَالَ "يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، تَدْرِي مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ؟" قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ "حَقُّهُ أَنْ يَعْبُدُوهُ لا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا"، ثُمَّ قَالَ "تَدْرِي مَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ؟ فَإِنَّ حَقَّهُمْ عَلَى اللَّهِ إِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ أَنْ لا يُعَذِّبَهُمْ"، قُلْتُ: أَفَلا أُخْبِرُهُمْ؟ قَالَ "دَعْهُمْ فَلْيَعْمَلُوا"[1]. وفي موضع آخر قال سيدنا مُعَاذ بْنِ جَبَلٍ (رضي الله عنه): سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ "مَنْ لَقِيَ اللَّهَ لا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا يُصَلِّي الْخَمْسَ وَيَصُومُ رَمَضَانَ غُفِرَ لَهُ"، قُلْتُ: أَفَلا أُبَشِّرُهُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ "دَعْهُمْ يَعْمَلُوا"[2].

وفي رواية أخرى جاء أيضًا أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لِمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ "مَنْ لَقِيَ اللَّهَ لا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ"، قَالَ: أَلا أُبَشِّرُ النَّاسَ؟ قَالَ "لا، إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَتَّكِلُوا"[3]. ففي جمع تلك الأحاديث الثلاثة نستنتج أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) حث على العمل مع الشهادة لإثباتها، لاسيما أن العمل قد يُعارض الشهادة، فكم مَن يقول "لا إله إلا الله" بلسانه ومع ذلك يُشرِك بالله في عمله. أفليس هناك من اتخذ إلهه هواه، ومَن يكون عبدًا للدينار والدرهم، ومَن يُرائي بالصالحات ليقول الناس عليه صالحًا؟ ثم إن من المشركين من يقولون كلمة التوحيد بمعناها، ولكنهم يعبدون الأصنام لتُقرِّبهم إلى الله! هذا وأن الرسول (صلى الله عليه وسلم) أراد لنا الرقي في منازل الجنة وليس دخول الجنة فقط.

والتواكل عكس التوكل الذي يتضمن السير في الطريق اعتمادًا على الله مع الأخذ بالأسباب المستطاعة، وأما التواكل فيكون دون الاجتهاد في الأسباب والوسائل. وقد نسي المتواكل الأحاديث الأخرى، مثل قوله (صلى الله عليه وسلم) "وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا ثُمَّ تَمَنَّى عَلَى اللَّهِ"[4].

وقد استمسك بعض المسلمين بالجزء الأول من الحديث المذكور سابقًا، الذي يتحدث عن ثواب شهادة التوحيد، ولم ينتبهوا إلى الجزء الأخير من الحديث حق الانتباه "لا، إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَتَّكِلُوا". ويجب ملاحظة المصطلح المستخدم في الحديث الأخير، فجاء اللفظ "تَمَنَّى عَلَى اللَّهِ" لأن التمني هو

---

[1] مسند أحمد 10497.

[2] مسند أحمد 21019.

[3] صحيح البخاري 126.

[4] سنن ابن ماجه 4250، جزء من الحديث.

الرغبة في الشيء دون شرط السعي إليه، وهو وصف دقيق لحال ذاك العاصي العاجز، إذ إنه لا يعمل أعمالًا صالحة تؤهله، بل ويعصي الله، ومع ذلك يرغب في الجنة.

أما المستهترون منهم، الذين يُدركون أنه هناك احتمال أن يلبثوا في النار اليسير من الوقت لفشل حجتهم، ومع ذلك أقبلوا على المعصية اعتمادًا على وعد الله للناطق بالشهادتين أن يدخل الجنة، فتلك الصفة من صفات اليهود. أولئك اليهود كانت عاقبتهم أن الله مكر بهم بسبب مكرهم {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاما مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ} [آل عمران 24]، فلنسأل أنفسنا كيف نرى مصيرهم؟ ووالله، ليس هناك شيء اسمه "اليسير من الوقت" في النار، وإن الإنسان لا يتحمل الصبغة في نار جهنم، التي هي سوداء من شدة حرارتها.

وأيضًا نرى أن الأحاديث تُكمِّل بعضها، فهناك أحاديث ثبتت وجوب أعمالٍ أُخرى مع التوحيد مثل قوله (صلى الله عليه وسلم) "مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَصَامَ رَمَضَانَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ"[1]. هذا يعني أن هناك أعمالًا مُضادة لتلك تُدخل النار، ولكن كلاهما لم يُذكر في الأحاديث المذكورة قريبًا. فإن الصلاة من لوازم الأعمال المطلوبة لدخول الجنة، ومن تركها عنادًا فلا يُغني عنه قول 'لا إله إلا الله' إذ قد نقضها بأفعاله، كما دل الحديث "الْعَهْدُ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ الصَّلَاةُ، فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ"[2] (معنى الحديث أن الميثاق والأمان على الدماء الذي للمنافقين هو بإقامتهم الصلاة، فإن تركوها فقد برئت منهم الذمة ويمكن قتالهم).

تبعًا، هذا يعني أيضًا أن هناك أعمالًا تُوجب دخول النار بالرغم من أنها لا تُخرج عن الإسلام، مثل اللواط لأن الله يلعن فاعله. ثم إن جملة "لا، إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَتَّكِلُوا" تدل على أنه (صلى الله عليه وسلم) لا يرغب في أن يُنشر الحديث بين عامة الناس، إذ إن الجاهلين في علوم الدين سيفهمونه على غير محمله، فيتَّكلون ويتهاونون بالعمل فلا ينجون من عذاب الله.

وللأسف فإن كثيرًا من الناس تأوَّل الآيات والأحاديث على غير مقصدها، أو يتمسكون ببعض الأحاديث ويتجاهلون أخَر، فاستباحوا المعاصي فضلوا، وأضلوا غيرهم، ويسوقون الأمة إلى الهلاك بهذا النهج. قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "هَلَاكُ أُمَّتِي فِي الْكِتَابِ وَاللَّبَنِ"، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا الْكِتَابُ وَاللَّبَنُ؟ قَالَ "يَتَعَلَّمُونَ الْقُرْآنَ فَيَتَأَوَّلُونَهُ عَلَى غَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَيُحِبُّونَ اللَّبَنَ فَيَدَعُونَ الْجَمَاعَاتِ وَالْجُمَعَ وَيَبْدُونَ"[3]. فَيَتَأَوَّلُونَهُ عَلَى غَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ أي يُفسِّرونه بغير معناه، أو بغير المقصد من الآية مثلًا، وذلك سواء جهلًا أم عمدًا؛ اللَّبَنَ أي لبن الإبل؛ الْجَمَاعَاتِ وَالْجُمَعَ

[1] صحيح البخاري 6873، جزء من الحديث.

[2] سنن الترمذي 2545.

[3] مسند أحمد 16774.

وَيَبْدُونَ أي صلاة الجماعة في المسجد وصلاة الجمعة، ويذهبون إلى البادية، وهي المساحات الشاسعة الصالحة للرعي، وكثيرًا ما تكون في أطراف القرى بعيدًا عن الناس والمساجد.

وما تأويلهم للنصوص الشرعية بأهوائهم إلا نتيجة عدم التزامهم بالحق (وهو وجوب أخذ التفسير من أهل العلم)، فخدعوا أنفسهم أنهم فهموا مغزى الدنيا. وعلى هذا الدرب ساروا، فقال عنهم الحسن البصري (رحمه الله): إِنَّ الْمُؤْمِنَ أَحْسَنَ الظَّنَّ بِرَبِّهِ فَأَحْسَنَ الْعَمَلَ، وَإِنَّ الْفَاجِرَ أَسَاءَ الظَّنَّ بِرَبِّهِ فَأَسَاءَ الْعَمَلَ[1]. ففي قوله أن المؤمن أحسن الظن بالله في أنه يرى أن الله سيغفر له زلاته إذا أطاع ربه، فأحسن العمل وأصاب {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [البقرة 218]. أولئك الذين يرجون رحمة وعفو الله بحق وبصدق.

وأما الفاجر فإنه أخطأ في قبول الواقع، ويرى أن الله سيغفر له مهما صدر منه. إنه يظن أن الله سيغفر له مع أنه لم يُطع الله، فهو يلتزم بالشرع حسب ما يمليه عليه هواه دون مجاهدة ولا معاتبة ولا محاسبة لنفسه، فكانت ذريعة لإسرافه في المعاصي، وبذلك أساء العمل. وهذا ما أشار إليه أَبو الْعَالِيَةِ أيضًا في قوله: يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ تَخْرُبُ صُدُورُهُمْ مِنَ الْقُرْآنِ وَلا يَجِدُونَ لَهُ حَلاوَةً وَلا لَذَاذَةً، إِنْ قَصَّرُوا عَمَّا أُمِرُوا بِهِ قَالُوا: إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ، وَإِنْ عَمِلُوا بِمَا نُهُوا عَنْهُ قَالُوا: سَيَغْفِرُ لَنَا إِنَّا لَمْ نُشْرِكْ بِاللَّهِ شَيْئًا، أَمْرُهُمْ كُلُّهُ طَمَعٌ لَيْسَ مَعَهُ صِدْقٌ، يَلْبَسُونَ جُلُودَ الضَّأْنِ عَلَى قُلُوبِ الذِّئَابِ، أَفْضَلُهُمْ فِي دِينِهِ الْمُدَاهِنُ[2] (المُداهن أي الذي يتظاهر أو يخدع الناس، ولعله يقصد أن الناس من قلة علمهم في الدين يظنونه من أمثل المُلتزمين بالدين).

والخلاصة من كل كلامي هذا هي التشديد على أهمية العمل بدلًا من التمني، فقد سنَّ الله الطريق إلى رحمته ومغفرته بأن يكون بالأخذ بالأسباب، وهو العمل الصالح. فكيف يُتوقع لمن لم يأخذ بالأسباب ولم يسمع كلام الله أن ينال الرحمة والمغفرة بالرغم من ذلك؟

فسبحان الله لأن ذلك لا يكون إلا في الاستثناءات، ولكن يتَّخذها البعض على أنها القاعدة بدلًا من الاستثناء. قد يتَّكلون على حديث مثل الذي قال فيه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَسْتَخْلِصُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُءُوسِ الْخَلائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَنْشُرُ عَلَيْهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ سِجِلا، كُلُّ سِجِلٍّ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَقُولُ لَهُ: أَتُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا؟ أَظَلَمَتْكَ كَتَبَتِي الْحَافِظُونَ؟ قَالَ: لا يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: أَلَكَ عُذْرٌ أَوْ حَسَنَةٌ؟ فَيُبْهَتُ الرَّجُلُ فَيَقُولُ: لا يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: بَلَى إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً وَاحِدَةً، لا ظُلْمَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ. فَتُخْرَجُ لَهُ بِطَاقَةٌ فِيهَا: أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَيَقُولُ: أَحْضِرُوهُ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ مَا هَذِهِ الْبِطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السِّجِلاتِ؟ فَيُقَالُ: إِنَّكَ لا تُظْلَمُ، فَتُوضَعُ

[1] الجواب الكافي لابن القيم 25.

[2] الزهد للإمام أحمد بن حنبل 1741.

السِّجِلاتُ فِي كَفَّةٍ، فَطَاشَتْ السِّجِلاتُ وَثَقُلَتْ الْبِطَاقَةُ، وَلا يَثْقُلُ شَيْءٌ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ"[1] (سِجِل أي كتاب كبير فيه الأعمال؛ فَيُبْهَتُ أي غُلب وقُهر، وتحير وانقطعت عنه الحجة؛ فَطَاشَتْ أي خفَّت).

فمثل هذا الموقف الاستثنائي (والدلالة على أنه استثنائي هو أن الله يستخلصه من بين الخلائق، ولو كانت تلك الحالة عامة لما كان هناك داعٍ أن يُشهد عليه باقي الخلائق)، فقد يكون قد قال تلك الشهادة بإخلاص وانكسارٍ يندر بلوغه، أو بصدقٍ وانشراح قلب لا نستوعب مداه. وربما قالها قبل موته بلحظات، فكانت حسنته الوحيدة وحسنت بها خاتمته، كحال الصحابي الذي دخل الجنة ولم يسجد لله سجدةً واحدة (أسلم ثم استُشّهِد بعدها بلحظات). وربما يُضاف إلى نيله عفو الله أنه صدق مع الله في الإقرار بخطئه، أن ما في الكتب قد ارتكبه بالفعل، وأنه لا عذر له، فلم يلجأ للكذب أو التكذيب أو الأعذار أو المجادلة.

فمن منا يجرؤ أن يزعم أنه قال 'لا إله إلا الله' مرة بصدق لا مثيل لها من أحد غيره؟ ومن منا يجزم أنه عندما يكون في مثل هذا الموقف العصيب أمام الله فإنه لن يكذب ولا يُكذِّب السجلات ولن يُجادل؟! فالحديث لم يُبين جوانب حالة ذلك الرجل حتى نعي ما الذي نجّاه تحديدًا، فقد يكون قد قال الشهادة بإيمانٍ خالصٍ وصِدقٍ بالغ، ويكون هذا شرطًا لحدوث ما حدث معه، خاصة أن هناك حديثًا للرسول (صلى الله عليه وسلم) يؤيد أهمية الصدق في الشهادة "مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، صَادِقًا مِنْ قَلْبِهِ، دَخَلَ الْجَنَّةَ"[2]. ولو أن كلمة 'لا إله إلا الله' تضمن دخول الجنة ومحو كل الذنوب عامةً، لما كان هناك مسلم واحد يدخل النار ولو للحظة. ولكن هناك أدلة كثيرة أن هناك مسلمين، ينطقون الشهادة، يدخلون النار ليُكفِّروا عن ذنوبهم. فلأعمل ولتعملوا، وعلى الله الحساب والجزاء.

ذلك كله وقد قال الله {أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (35) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (36) أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ (37) إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ (38) أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ (39) سَلْهُم أَيُّهُم بِذَلِكَ زَعِيمٌ} [القلم 35-40]. فمن منا يجيب عن تلك الأسئلة بصدق، لأني أعلم أني لن أجد دليلًا في الكتاب أو السنّة على ما أتمناه من أن الشهادة دون العمل الصالح يُدخل الجنة يقينًا، ولا أن العاصي يُساوَى بالتقي يوم القيامة. هذا ولم آخذ من الله عهدًا بأن يُدخلني الجنة يوم القيامة كائن ما كان ما صدر مني. فالأدلة كلها تشير إلى أنني لست رائدًا في هذا المسلك الفكري، ولست بناجٍ منه إن سلكته.

وفوق ذلك كله ما دل عليه كتاب الله في عدة مواضع، فإن العمل الصالح جاء مقرونًا مع الإيمان – الذي أساسه شهادة التوحيد، وأن شتى أنواع خير الجزاء يكون لهؤلاء. فقد جاء في أن

---

[1] مسند أحمد 6699.

[2] مسند أحمد 20996.

أولئك هم أصحاب الجنة {وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ قِيلًا} [النساء 122]. وأولئك هم الذين يغفر الله لهم فعلًا بضمانٍ منه تعالى {وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ} [المائدة 9]؛ وأن أولئك هم الذين يرحمهم الله {فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ} [الجاثية 30].

ولعل أوضح آية على أن الرجاء الحقيقي (والثقة بالله) هو الذي يكون مع العمل الصالح هي {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [البقرة 218]. فكل تلك المؤشرات تُشدد على أهمية العمل الصالح مع الإيمان، ومن دون العمل الصالح يكون التمني والغرور حقيقةً.

آخرًا، كم منا لاحظ أن أرجى آية للناس في رحمة الله تُتبع مباشرة بوصية اتباع منهج الله والتوبة، مع التحذير من عذاب الله؟ قال تعالى {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (53) وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ (54) وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ} [الزمر 53–55]. فهل هناك إشارة أوضح من هذه على أن العمل الصالح ينبغي أن يُرافق العقيدة الصحيحة للنجاة؟

سلوك هذا النهج قد يُبطل أعمال العبد الصالحة. سيأتي إن شاء الله، في جزء "تبعات وآثار المعاصي"، عن كيفية أن المعاصي قد تمحو ثمرة الأعمال الصالحة. وسيأتي أيضًا أن العكس صحيح، وهو أن الأعمال الصالحة تمحو الذنوب، مما يُغني عن الاستفاضة ههنا. لكن يُضاف إلى هذا الكلام أن هناك آيات مُنذرة من المكر بمثل هذا المنهج الفكري، منها قوله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ} [محمد 33].

فبالنسبة إلى العبد، ينبغي أن يعلم أن أساس المبدأ معيوب، لأنه جاء في تفسير ابن كثير (رحمه الله) للآية: كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يرون أنه لا يضر مع "لا إله إلا الله" ذنب، كما لا ينفع مع الشرك عمل، فنزلت {أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ}، فخافوا أن يبطل الذنبُ العملَ. ثم روي عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كنا معشر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم نرى أنه ليس شيء من الحسنات إلا مقبول حتى نزلت {أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ}، فقلنا: ما هذا الذي يبطل أعمالنا؟ فقلنا: الكبائر الموجبات والفواحش، حتى نزل قوله

تعالى {إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء}. فلما نزلت كففنا عن القول في ذلك، فكنا نخاف على من أصاب الكبائر والفواحش ونرجو [النجاة] لمن لم يصبها.

مكر الله بالماكر الفاجر بأن يستدرجه حتى يُخرجه من الإسلام. قد ينتاب المرء فكرة أنه يرتكب المعاصي كما يحلو له، ويُأمِّل نفسه كذبًا على أن الأمر سيَحِل نفسه في الآخرة على خير بإذن الله، ما دام مُسلمًا. أو قد يتمادى في جُرأته فيرى أنه سيستطيع مجادلة طريقه بالحُجج فينسلت عن تحمل عواقب أفعاله، وسيدخل الجنة دون عقاب حتى.

لكن، قد يحدث مع العبد عكس ما كان يتخيله أو يتمناه، فإن كان يمكر بمنهج الله يجد أن مكره يرتد عليه بمكر الله. فبينما يتمنى العبد أنه يستمتع بالدنيا بلا ضوابط، يكون الواقع أنه عادة ما يتدهور حاله أكثر مع مرور الزمن، إذ يغوص في المعاصي أكثر وأكثر من حيث الكم والنوع؛ يريد الإكثار من المتعة. وذلك تمامًا مثل مدمن الخمر أو المخدرات الذي يحتاج إلى جرعة أكبر مع مرور الزمن كي يصل إلى نفس درجة النشوة التي شعر بها عندما بدأ، وذلك لأنه يتعود على هذا المخدر (أي المعصية).

وقد يظل العاصي يتفاقم وضعه حتى يخرج من الإسلام جُملة بكلمةٍ يقولها، مثل الدعوة إلى عدم تمكين شريعة الله في نظام الدولة؛ أو بفعلٍ يفعله، كأن يعين غير المسلمين في التغلب على مسلمين. أو قد يمكر به الله فيلتبس عليه العقائد، ويموت على عقيدة فاسدة، مثل أن يتَّبع بدعة هي في الحقيقة شرك بالله كالدعاء واللجوء إلى قبور الصالحين للمغفرة والشفاعة، فيدخل النار.

إن سلمت من أن أُستدرج خارج الإسلام، ربما يصيبني: دخول الجنة لا يُشترط أن يكون في العاجل بالنسبة إلى المسلم العاصي. قد تُسول لي نفسي التفريط في ارتكاب المعصية بناء على أني مسلم قد شهد شهادة التوحيد، وتواكلًا على حديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) الذي نقله إلينا سيدنا أبو ذر (رضي الله عنه) قائلًا: أَتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَلَيْهِ ثَوْبٌ أَبْيَضُ وَهُوَ نَائِمٌ، ثُمَّ أَتَيْتُهُ وَقَدْ اسْتَيْقَظَ فَقَالَ "مَا مِنْ عَبْدٍ قَالَ 'لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ' ثُمَّ مَاتَ عَلَى ذَلِكَ إِلا دَخَلَ الْجَنَّةَ"، قُلْتُ: وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ؟! قَالَ "وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ"، قُلْتُ: وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ؟! قَالَ "وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ"، قُلْتُ: وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ؟! قَالَ "وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ، عَلَى رَغْمِ أَنْفِ أَبِي ذَرٍّ"[1]. فالحمد لله على رحمتة وتبشيره لنا، وبئس من شرع في استغلال تلك الرحمة.

[1] صحيح البخاري 5379.

ففي الحديث دلالة على أن المقصد أن المسلم يدخل الجنة في نهاية المطاف، وليس شرطًا أن يدخل الجنة من بادي الجزاء، لأنه ليس منطقيًا ألا يُجازى على أنه زنى وسرق وغير ذلك، إلا إذا عفا عنه الله فيدخل الجنة مباشرةً. ولذلك كان يتعجب سيدنا أبو ذر (رضي الله عنه)، لأن انتهاك حرمات الله لا تمر دون عقاب عادة، وإلا لم يكن هناك داعٍ لوضعها في المقام الأول. إضافة إلى ذلك، تعجب لأن حقوق الناس لا تسقط من على الظالم فقط لإيمانه بالله، إلا إذا شاء الله أن يقضيها عنه (سواء في الدنيا بالكفارات، أو في الآخرة بتعويض المظلوم) فيصبح الظالم بمنزلة الذي رد المظالم، وليس من الورع أن أتَّكل في العمل وأعتمد على أن الله سيفعل ذلك معي.

أما الحديث الذي دار بين الرسول (صلى الله عليه وسلم) وسيدنا معاذ (رضي الله عنه)، ففيه كلمات قد لا يُنتبه إليهن، فيُحمل الحديث على وجه خاطئ. ذلك مثل كلمة "صِدْقًا" التي قد تكلمنا عنها، وجملة "إِلا حَرَّمَهُ اللَّهُ عَلَى النَّارِ" قد تعني حرمة الخلود في النار وليس دخولها من حيث المبدأ. وكلمة "إِذًا يَتَّكِلُوا" تدل على أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) يخاف على الناس ذلك، وخشيته تعني أن الاتكال له عواقب إذا فعلوا ذلك. تلك العواقب هي أنهم قد يُحبطون أعمالهم فيدخلون النار مبدئيًا، أو في أخف الأحول سيُعذَّبون في القبر عذابًا شديدًا ولكن عندما يُبعثون فلن يدخلوا النار، والله أعلم.

وبعد معرفتي لكل هذا، إني إذا أصَررت ولم أزل أعتمد على وهمي ذلك، فسأكون من الذين يمكرون برحمة الله وسعة عفوه. وبالرغم من صحة هذا المبدأ عامة من لطف الله، فإن من أراد استغلاله يصبح عرضة لمكر الله. بل وأن مجرد اتخاذ ذلك المسلك الفكري يستحق زيادة في العقوبة، لأنه استخفافٌ بنظام الله المُحكَم، وتهاونٌ بصفات الله، واستهتارٌ بعقاب الله (فيُزاد له من فترة مكوثه في النار مثلًا).

العبد الذي يقع في معصية الله زللًا، وهو في حسرة من ضعفه، قد يصيبه عفو الله وإن لم يتب. وفي المقابل، قد لا يعفو الله عن العبد الذي يعمد في استغلال رحمته، وإن عزم على التوبة بعد أن يفعل كل ما يحلو له، فإن الله يمنع من يشاء من التوبة ويُوَفِّق من يشاء للتوبة، ويُثَبِّت من يشاء بالقول الثابت–شهادة التوحيد. وتزداد طامته إذا كان يعصي الله وهو مختال مغرور، بالرغم من شدة تماديه في التواكل وجرأته على الله باعتماده على وفاء الله بذلك العهد.

أما وإن تجاوزت أكثر وأكثر فتهاونت بمحاسبة الله لي، وتأولت أنما سأمكث فقط للحظات في النار ثم أدخل الجنة، فذلك منهج الذين قالوا {وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاما مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ} [البقرة 80]، فماذا كان مصيرهم؟ هذا الحال من مُحصِّلات سلك فكر الاستمتاع بالدنيا، إذ ينتاب المرء لحظات يتفكر في عواقب ما يفعله، فيُبصر أنه قد يدخل جهنم، ولكن يُقنع نفسه أنه سيصبر على عذابها لأنها ستكون فقط لفترة،

مُتهاونًا بالعذاب. وهذا بعد رؤيته أن دخوله إياها مجرد احتمالية، قد أقنع نفسه أن هذا ليس أكيدًا حتى، وأن مصيره إلى الجنة في كل الأحوال.

فإن كان هذا ظنّي، أني سأصبر إن دخلت جهنم، فقد بادرني ربي بالرد على هذا التسويل تحذيرًا لي {اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [الطور 16]. لا يُجدي الصبر آنذاك، فأنصح نفسي ألا أجدني قد وضعت نفسي في ذاك الحال.

فحتى وإن سلَّمنا أن هذا هو مآلي في الآخرة بكرم الله: أني أمكث زمنًا في النار دون الخلود، فلماذا لا أُجرب وأضع يدي فوق نار لتحترق فقط لمدة ثوانٍ. فذلك أدعى في رد نفسي للواقع وجعلها تواجهه، وأؤدبها بدلًا من العيش في عالم الأوهام والمعاندة. فإن لم أتحمل أن أضع يدي –وليس جسدي كله، للحظة– وليس لأيام، من نار الدنيا التي أضعف من نار الآخرة، فلماذا المجادلة في وضعي والتهاون بمصيري؟

إن سلمت من ذلك، فسيصيبني: المحاسبة والعتاب على الذنوب. ينبغي معرفة أن الجنة حُفّت بالمكاره وأن النار حفّت بالشهوات، وسنّة الله في الكون أن الدنيا دار اختبار، وأنها تتزين لإبراز من لم يَصدُق مع الله. فطبيعة الحال أن المُستهدِف للآخرة لا يتمتع بالدنيا، وأما المُستهدِف لشهواته فلا يصبر ويُقبل على متاع الدنيا، ويُتوقع فيمن يتمتع بالدنيا أنه يقع في المعاصي. وبالطبع من يتمتع بالدنيا في المعاصي لا يتساوى مع الذي يجاهد نفسه عن المتاع الذي فيه معصية لله.

قال الله تعالى {أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُواْ السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ (21) وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ} [الجاثية 21–22]. هذ الآية تتكلم في الأساس عن أُناس لم يؤمنوا ففعلوا ما يحلو لهم من المعاصي، وزعموا فوق ذلك أن لهم في الآخرة أفضل مما هم فيه الآن. ولكن في العموم، تلك الآية تكشف بواقعية مآل المعصية، سواء للكافر أو المؤمن، أنه سيُحاسب عليها. ويجب أن نُبصر أن الله أتبع الآية الأولى بقوله {وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ}، وذلك للتوكيد أنه واقعٌ لا محالة مهما تَوَهَم الواهمون.

وربما ظن بعض الناس أن المعاصي، وإن كثرت، لا تؤثر سلبًا عليهم في الدنيا، وخطرها وقت الحساب فقط، وأن ذلك خاصةً فيما يتعلق بصغائر الذنوب. ولكن الحقيقة هي أن للمعصية، صغرت أو كبرت، أثرًا على النفس، ولكن المشكلة هي أن المرء قد لا يدرك ضررها نظرًا لأنه منغمس في المعاصي وتبلَّد لآثارها. السؤال الذي يطرح نفسه هو: لماذا حرم الله علينا ما حرمه؟ الإجابة ببساطة هي أن الله حرم علينا ما كان ضرره علينا أكبر من نفعه، مع احتمال عدم إدراكنا للضرر

الواقع. كل شيء أفعله فيه معصية تؤدي إلى ضرر جسديٍ أو نفسيٍ، لأن الله هو الذي خلقنا وخلق ما حولنا، فهو أعلم بما يضُرنا وينفعُنا.

وإضافة إلى هذا، فإن كل معصية تُبعدني عن ربي بطبيعتها إذ إني أرتكب ما يكرهه هو، وأضع الحواجز بيني وبينه تعالى بسوء أفعالي. ثم عندما أعصي ربي، فإن العبادات تكون عليَّ ثقيلة فأتكاسل... وخاصة أن السيئة عادة ما تجر وراءها سيئة أخرى. والتأثير السلبي للمعصية قد يأتي تدريجيًّا فلا ألاحظه، أو مؤجلًا فلا أدرك أن سببه كانت المعصية. ولكن اتضح لي شيء، أنه عندما أترك المعصية لأمد طويل، حينئذ أدرك آثارها وضررها عليَّ، وأشعر بثِقَل ونفور إذا فكرت في ارتكابها ثانية.

لأوَضِّح هذا بمثال، وهو الكافر الذي يُسلم، فبعد أن يقضي مدة في الإسلام، يدرك كم كان في ضلال، ويكره أن يرجع إلى الكفر كالذي يكره أن يُقذف في النار. فلذلك أنصح أنه عندما يصعب على المرء ترك معصية لتمسك نفسه بها، فليُحايل نفسه بأن يتفق معها أنه سيترك المعصية لفترة مُحددة من الزمن ليكتشف أبعادها، ثم ليرقب الفرق في حاله. كثيرًا عندما أفعل ذلك أُبصِر مدى سفه أو ضرر هذه المعصية، فيساعدني ذلك في ترك المعصية.

قَالَ رَسُولَ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) "تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا، فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ: عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا فَلا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتْ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ، وَالآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًّا كَالْكُوزِ مُجَخِّيًا لا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا وَلا يُنْكِرُ مُنْكَرًا إلا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ"[1] (أَسْوَدُ مُرْبَادًّا أي شِدَّةُ الْبَيَاضِ فِي سَوَادٍ؛ مُجَخِّيًا أي مَنْكُوسًا/مقلوبًا، فيقع كل ما في داخله من ماء ولا يدخل فيه الماء بعد ذلك، كناية على أن الماء هو الخير). وهذا يبين مدى خطورة المعاصي إذ تجر صاحبها تدريجيًّا إلى الهلاك، وأن الذي استمتع بالمعصية ليس كالذي جاهد نفسه وحَرَمَ نفسه من متعتها، فليس من العدل أن يذهب مجهود جهاده لنفسه هباءً عند الله.

فهناك فرق بين الصالح والعاصي في الدنيا من جهة الصفات والروح، ويوم القيامة أيضًا يُفرق الله بينهما في المعاملة، فكما قال الله عز وجل {أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ} [القلم 35]. فهذا أثر المعصية في الدنيا، أما أثرها في الآخرة فهو بائس أكثر من هذا، فقد حان وقت الحساب عليها!

---

[1] صحيح مسلم 207.

إذًا، فما الذي نتوصل إليه في الجمع بين هذه الآية وبين قول رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "التَّائِبُ مِنْ الذَّنْبِ كَمَنْ لا ذَنْبَ لَهُ"[1]؟ قبل الشرح، ينبغي أن نحمد الله الذي يتوب على عباده بعد خطأهم بعدما أدركوا وأقّروا بذلك، وخاصة أكثر إذا أصلحوا وأحسنوا بعد التوبة. وللجمع بين النقطتين، نُدرك أن العاصي لا يُساوى بالممتنع عن المعصية يوم القيامة لأن ذلك هو الحق والعدل، ولكن هل هذا يعنى أنه لا أمل للتائب؟ بلى، فإن التائب الصادق تُقبل توبته إن شاء الله، ولكن ما زال قد يُحاسب عليها ويُعاتَب، ثم يرفع الله عن العبد عقابها بالعفو.

وهذا واضحٌ في قول الرسول (صلى الله عليه وسلم) "إِنَّ اللَّهَ يُدْنِي الْمُؤْمِنَ فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ وَيَسْتُرُهُ، فَيَقُولُ: أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ أَيْ رَبِّ، حَتَّى إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ وَرَأَى فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ هَلَكَ قَالَ: سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ، فَيُعْطَى كِتَابَ حَسَنَاتِهِ. وَأَمَّا الْكَافِرُ وَالْمُنَافِقُونَ فَيَقُولُ الأَشْهَادُ {هَؤُلاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ}"[2]. ففي الحديث دلالة أن الله يعاتب العبد على تلك المعاصي إلى أن يظن أنه قد هلك، ثم يغفر الله له.

ومن هذا المنطلق نستنتج أن الذي يعصي لا يُتساوى مع الممتنع، لأن الممتنع لن يُثقل عليه الحساب مثل العاصي. وربما يُبَشَر التقي بالنجاة عاجلًا، وحينئذ مع أن الله قد غفر للعاصي، إلا أنه يكفي عذابًا على العاصي التائب تلك اللحظات العصيبة في الحساب إذ يرى أنه قد هلك ويُوبّخ نفسه على ما اقترف. ولا يجب الاستخفاف بمشقة تلك اللحظات العصيبة، التي يرى الله أنها تكفي للتكفير عما صدر من العاصي الذي تاب. فالخلاصة أنه يُغفر له، ولكن بعد أن يمر بمشقة عرض معاصيه عليه، وهكذا لا يُساوى مع المجاهد لنفسه الممتنع عن المعاصي.

ولكن، ينبغي ذكر أن الله يفعل ما يشاء، فله أن يغفر للعبد وإن لم يتب، بل ولله ألا يُعرض ذنوب عبده عليه أيضًا. ذلك دل عليه الحديث "إِنِّي لأَعْلَمُ آخِرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ دُخُولا الْجَنَّةَ وَآخِرَ أَهْلِ النَّارِ خُرُوجًا مِنْهَا، رَجُلٌ يُؤْتَى بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُقَالُ: اعْرِضُوا عَلَيْهِ صِغَارَ ذُنُوبِهِ وَارْفَعُوا عَنْهُ كِبَارَهَا، فَتُعْرَضُ عَلَيْهِ صِغَارُ ذُنُوبِهِ فَيُقَالُ: عَمِلْتَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا: كَذَا وَكَذَا، وَعَمِلْتَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا: كَذَا وَكَذَا، فَيَقُولُ: نَعَمْ؛ لا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُنْكِرَ، وَهُوَ مُشْفِقٌ مِنْ كِبَارِ ذُنُوبِهِ أَنْ تُعْرَضَ عَلَيْهِ، فَيُقَالُ لَهُ: فَإِنَّ لَكَ مَكَانَ كُلِّ سَيِّئَةٍ حَسَنَةً، فَيَقُولُ: رَبِّ قَدْ عَمِلْتُ أَشْيَاءَ لا أَرَاهَا هَا هُنَا!"[3]. فهذا الرجل لم يُعرض عليه كبائر ذنوبه رحمةً ورأفةً من الله به.

---

[1] سنن ابن ماجه 4240، الحديث مرفوع منقطع ولكن حسَّنه ابن حجر والألباني لشواهده.

[2] صحيح البخاري 2261.

[3] صحيح مسلم 277.

إن سلمت حتى من المحاسبة والعتاب على ذنوبي، فلا مفر من أن يصيبني: دخول الجنة، درجات ومقامات. فلنفترض أمثل الاحتمالات، أني كنت محظوظًا فاصطَفَّت كل العوامل في صالحي بالرغم من أن كلها كانت ضدي وكان وضعي بائسًا، وكنت أنا من نُدرة النُدرة. لنفترض أن ذنوبي لم توقعني في مكر الله بي وإخراجي من الإسلام، وسلمت من دخول النار ولو لفترة وجيزة، بل وعافاني الله حتى من المُعاتبة على ذنوبي فوق أنه غفرهم لي، فهل أنا أتساوى مع التقي في درجات الجنة؟ إني كي آمَل في هذا، ليس أمامي إلا أن أتلفظ بالباطل الذي لا يكون أبدًا وأفتري أشد الافتراءات، وهو أن الله قد يُثيبني على معصيته حتى أستطيع إدراك التقيّ في المنزلة...

لنفترض أن الله غفر لي لأي سببٍ من الأسباب (مثلًا أكون حججت بيت الله في آخر عمري وأكرمني الله بأنه قد قبلها)، لكن هل خطر ببالي أن ذهاب حمل الذنب أمرٌ مختلفٌ عن جمعي للحسنات؟ بمعنى آخر، إن محو ذنوبي لي إنما هو رفع عني العقاب، وربما يعني دخولي إحدى أدنى درجات الجنة. ولكن من كان يعمل صالحًا بينما أنا أعصي الله كان يرتقي في رصيده، فكيف لي أن أُحصِّل هذا الذي كان يقوم الليل، والثاني كان يُكثر الصيام، والثالث كان يجلس إلى الشروق يوميًّا بعد صلاة الفجر؛ فكيف أتعادل معهم في المرتبة بعدما كنت أستخدم تلك اللحظات في معصية الله؟!

فلن نتساوى في الجزاء في الآخرة! وهذا مما شمله قول الله تعالى {أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَاء مَا يَحْكُمُونَ} [العنكبوت 4]، أي أظن الذين يعملون السيئات أن يُعجزوا الله عن مُعاقبتهم أو الانتقام منهم (بطريقة أو بأخرى)؟ ففوات المنازل العالية من الجنة نوع من أنواع العقاب!

والفرق بين كل درجةٍ في الجنة والتي تعلوها مباشرةً فرقٌ مهول، كما سيأتي بيانه قريبًا إن شاء الله، ودرجات الجنة كثيرة إلى حد أنه قد قال بعض العلماء إنها تُقارب عدد آيات القرآن. ففي أحسن الأحوال لي أني أنجو من العذاب، ولكن يبقى السؤال: ما مدى الفرق في الدرجات بيني وبين من لم يعصِ الله؟ إذًا، فما مدى الفرق في الدرجات بيني وبين من زاد على ذلك فكان يعمل صالحًا؟

قد قال تعالى {وَلِكُلٍ دَرَجَاتٌ مّمّا عَمِلُواْ وَلِيُوَفّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ} [الأحقاف 19]. قد ينتاب أحدٌ فكرة، وهي: لماذا لا أستمتع بالدنيا وأعمل من الصالحات ما يدخلني الجنة، أي درجة من درجات الجنة ولا يهم ترتيبها، فكلٌّ له ما يُشتهي موجودٌ في كل درجة من درجات الجنة. هنا تأملت، أن بالطبع أن الله قد فضّل درجة عن درجة كي لا يكون هناك مساواة بين من قل عمله ومن كثر عمله، فإن الله العظيم لا يعجز عن تصميم الجزاء لتحقيق ذلك. وأنه إن أراد أن يُفرِّق في الجزاء بين اثنين الفرق بينهما في العمل مثقال ذرةٍ، لَفعل لأنه القادر.

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) "مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَصَامَ رَمَضَانَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، هَاجَرَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ جَلَسَ فِي أَرْضِهِ الَّتِي وُلِدَ فِيهَا"، فَقَالُوا (الصحابة): أَفَلا نُنَبِّئُ النَّاسَ بِذَلِكَ؟ قَالَ "إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِهِ، كُلُّ دَرَجَتَيْنِ مَا بَيْنَهُمَا كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَسَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ، وَأَعْلَى الْجَنَّةِ، وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ"[1]. ينبغي أن نلاحظ أن درجات المنازل فقط بين المجاهدين في سبيل الله مائة درجة، فما بالنا بعدد الدرجات مُجملًا (أي لجميع المسلمين)؟

ففي الحديث دلالة على أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) نبّه أن هناك فرقًا في الدرجات بحسب أعمال العبد، وأن الفارق ليس بصغير. بل ويبدو، بسبب تشديده على الفرق في درجات الجنة بدلًا من أن يقول لهم أن يُبشّروا الناس، أن الفرق بين درجةٍ والتي تعلوها أكبر من كل متاع الدنيا مجموع. ثم هل يستطيع أحدٌ أن يضع ثمنًا لرضا الله بالعبد لدرجة أنه يُكرمه بالفردوس؟ أو يُحدد قيمة المنظر من الفردوس على باقي الجنة؟ أو يُحدد ثمن السكن بالقرب من منشأ أنهار الجنة؟

وعن النَّبِي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) أيضًا قَالَ "إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ يَتَرَاءَوْنَ أَهْلَ الْغُرَفِ مِنْ فَوْقِهِمْ كَمَا يَتَرَاءَوْنَ الْكَوْكَبَ الدُّرِّيَّ الْغَابِرَ فِي الأُفُقِ مِنْ الْمَشْرِقِ أَوْ الْمَغْرِبِ لِتَفَاضُلِ مَا بَيْنَهُمْ"، قَالُوا (الصحابة): يَا رَسُولَ اللَّهِ، تِلْكَ مَنَازِلُ الأَنْبِيَاءِ لا يَبْلُغُهَا غَيْرُهُمْ؟ قَالَ "بَلَى وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، رِجَالٌ آمَنُوا بِاللَّهِ وَصَدَّقُوا الْمُرْسَلِينَ"[2] (الدُّرِّيَّ أي المتوهج شديد الإضاءة؛ الْغَابِرَ أي الذاهب أو الماضي).

انتهاج أن الهدف هو فقط بلوغ الجنة، دون السعي لدرجاتها العُلى، هو في الواقع تفكير ضعيف لعدة أسباب. أذكر منها أن من الممكن أن يخطئ المرء في حساباته وتقديره فلا يُحصّل أجر الجنة أصلًا! ومنها بالطبع أنه وإن دخل أدنى درجات الجنة، سيتحسر ويُؤنِّب نفسه على تفريطه في طاعة الله التي كانت لتُبلِّغه المراتب العُلى. إن كان المرء ممن يُسرف في المعاصي ويقول لنفسه إنه لا مانع لديه أن يدخل أدنى درجات الجنة ما دام سيدخلها فأقول له: أنت تكذب على نفسك؛ إذا كنت لا تستطيع أن تمتنع عن متاع الدنيا الأدنى فكيف سترضى بفوات ولو درجة من درجات متاع الآخرة الأجود؟

إضافةً، فإن هذا النهج يخالف بديهة ومنهج عامة الناس في سعيهم لما يريدونه في أمور الدنيا. فالطالب الذي يدرس عادةً يسعى للتفوق وليس النجاح فقط، والتاجر يسعى لتحقيق أقصى أرباح وليس تحصيل فقط قدر مصاريفه، والمرء يسعى لاقتناء أجمل مسكن وليس مسكنًا يؤدي فقط غرض المعيشة. فلماذا يسهل علينا طلب أقصى المكاسب فيما يتعلق بأمور الدنيا بينما نوطد أنفسنا

[1] صحيح البخاري 6873.

[2] صحيح البخاري 3016.

لترضى بأقل المكاسب فيما يتعلق بأمور الآخرة؟ كيف تحولت أهدافنا وهمومنا ومتى إلى مكاسب الدنيا بعدما كانت إلى مكاسب الآخرة؟

ولكن بعيدًا عن كل ذلك، كفى بأصحاب الفردوس علمًا أن الله رضي عنهم لدرجة أنه أدخلهم أفضل ما أعده رب الكون لعباده! فإن الله لا يرضى عن أحدٍ أكثر منهم، وهم الذين أقر الله أنهم أحبُّ وأفضلُ العباد له من عباده، حتى من الملائكة لأن ليس لهم القدرة على عصيان الله، وكفى بذلك فخرًا وتكريمًا.

ثم قد قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "مَنْ خَافَ أَدْلَجَ، وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ الْمَنْزِلَ، أَلا إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ غَالِيَةٌ، أَلا إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ الْجَنَّةُ"[1]. ومنطقيًّا، السلعة الغالية تتطلب ثمنًا باهظًا، فإن أنا استمتعت بالدنيا، فأين الثمن الذي قدَّمته؟ وختامًا لهذا الفصل، ينبغي أن نُصارح أنفسنا، أن كثيرًا منَّا يرغب في أعلى درجة في الجنة بأقل عمل، ولكن هل هذا منطقي؟ هل هذا عدل؟ فينبغي أن نتصدى لهذه الرغبة الخيالية فينا.

لا يزال الوقت مُبكرًا على أن أقلع عن المعاصي

قد يقول المرء في نفسه: لا داعي أن أُشدد على نفسي وألتزم بالدين لأني ما زلت شابًّا، والحياة أمامي طويلة لأُصلح فيها حالي، فلأتمتع بالدنيا وأقترف ما يحلو لي الآن، وسأنصلح وأتوب فيما بعد تدريجيًّا. والفرق الجوهري بين هذا القول والباب الذي سبق "سأتمتع بالدنيا بالإضافة إلى فوزي بالجنة في الآخرة" هو أن في هذا القول ينوي العبد أن يُصلح نفسه ويتوب متأخرًا. أما في العنوان السابق، فإن التوبة ليست نقطة مهمة عند العبد، بل وقد لا تكون في حساباته، فهو يرى أنه إن لم يتب فإنه ليس في مأزق، ولكن إن استطاع أن يتوب فهي ميزة.

وهذا الباب الذي نحن فيه الآن أخف سوءًا في الاعتقاد، إذ يُقر العبد أنه على خطأ وينوي التوبة ولكن فيما بعد. ومع ذلك، فالحقيقة هي أن في هذه النظرة عدة عِلَل:

ما الذي يضمن لي أني سأتخلى عن المعصية؟ الحقيقة هي أن كلما عاود وأطال العبد على المعصية، كلما تقلّصت فرصة تركها إذ يصعب عليه هذا مع تقدم عمره، وهذا لسببين رئيسيين. الأول هو أن المعصية تتأصل أكثر في القلب والنفس لأنهما يتشربون منها، فيتعوَّد المرء عليها ويدمنها حتى لا يستطيع تركها، بل وربما لا يرغب في تركها، ويقتنع بالمبررات التي وضعها على أنها أعذار

[1] سنن الترمذي 2374.

مشروعة. والنتيجة أنه يحدث كما سمعنا من وقائع عن مسلمين يموتون ولا يستطيعون نطق الشهادة بالرغم من وجود من يُلَقِّنَه الشهادة. وأُخر يموتون وهم يتكلمون في أمور الدنيا مثل البيع والشراء، وأُخر يموتون وهم يغنون أغاني، حفظنا الله وإياكم.

السبب الثاني هو أن الشاب قابلٌ للتغير والتأقلم أكثر من المُسِنّ، ومن تلك الظاهرة استنبط الناس مقولة: من شَب على شيءٍ، شَابَ عليه. أي من تعود على شيء وهو شاب غالبًا ما يداوم عليه حتى يشيب على ذلك الحال، وعندما يصعب عليه تركها ويدرك أنه لن يستطيع، يُحوّل نيَّته من أن يتوب إلى التمني على الله بالعفو والنجاة دون توبة. فمن المنطقي أن المرء إذا كان يريد التغير إلى الأصلح أن يسعى لذلك في شبابه وليس في هِرَمِه.

بل ومن الواقع الملاحظ، إن أغلب الناس يقل التزامهم مع تقدم العمر. ذلك لعدة أسباب، منها ما يحدث تلقائيًّا مثل وهن أجسادهم. ومنها ما يكون باختيارهم إذ إن كثيرًا من الناس تتلاشى مبادئهم ويزدادوا طغيانًا عما كانوا عليه، نظرا لوطأة ظروف الحياة، ولتبلدهم تجاه حدود الله والتحذيرات من عقابه، وربما السأم من مجاهدة المعاصي (التخلي عن الصبر).

فنسمع كثيرًا: إن حالي الإيماني فيما مضى كان أفضل مما أنا عليه الآن. وذلك لأن عوامل الاحتياجية للحياة تتدخل فتشغل المرء عن العبادة، أو لا يجد جهدًا يبذله للإقدام على العمل الصالح بسبب استنزاف عمله لطاقته ووقته. وربما تدخل عوامل مثل طمع المرء في جمع المال ولو بالحرام، أو توهمه أن زيادة أعباء الحياة عليه مع تقدم العمر تضطره إلى أن يتكسب من الحرام، فيزداد شرودًا عن الصراط المستقيم.

ثم إن هناك مأزقًا آخر مُحتَملًا، وهو أني قد أُقلع عن المعصية بالفعل مع تقدم العمر ولكن ليس بسبب تعمدي للتوبة. بمعنى آخر، أني أقلع عن المعصية ولكني لم أقصد تركها. هذا عادة يحدث لانشغال المرء بأمور الدنيا فلا يجد وقتًا للمعصية، ثم ينسى أن يتوب لله بعدما عجز عليها، فلا يُغفر له لأنه لم تكن نيته ترك المعصية لله من الأصل.

فالحذر عامةً من هذا الفكر لأنه جاء في الحديث "الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا ثُمَّ تَمَنَّى عَلَى اللَّهِ"[1]. فمن السهل أن يصبح من يقول 'سوف أتوب' أن ينتهي به الطمع والأمل المُفرط إلى التمني، وهو رجاء مغفرة الله دون عمل للتوبة، ويرجو أن 'يستُر' الله معه في مصيره، كذبًا على نفسه وخداعًا لها. وقد قال الرسول (صلى الله عليه وسلم) "إِنَّ حُسْنَ الظَّنِّ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ حُسْنِ عِبَادَةِ اللَّهِ"[2]، وهذا الكلام يحمل معنيين، أن حسن الظن بالله

[1] سنن ابن ماجه 4250.

[2] مسند أحمد 8353، حسّنه شاكر وضعّفه الألباني.

جزء من حُسن عبادته، ولكنه أيضًا يعني أن حسن الظن ينبغي لمن يسعى في حسن عبادة الله في الأصل، فهذه مقرونة بتلك.

بل ما الذي يضمن لي أن عمري يمتد؟ كلنا نعلم أن أجل العبد قد يأتي في أي وقت، فإذا جاء فلا راد له ولا كرةٌ ثانية للعبد. وإذا جاء الموت بغتة، لا تُقبل التوبة آنذاك إذا حاول الشاب لأن الرسول (صلى الله عليه وسلم) نبأنا "إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَيَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يُغَرْغِرْ"[1] (يُغَرْغِرْ أي عندما تبلغ الروح الحلقوم، والمراد هو تيقُّن الموت).

وهذا النهج الفكري قد حذَرنا الله منه في كتابه، كما فسّر سيدنا ابن عبّاس (رضي الله عنه) قوله تعالى {لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ} [القيامة 5] بأن الإنسان يقول في نفسه: سَوْفَ أَتُوبُ، سَوْفَ أَعْمَلُ[2] (انتهى). أي عنده الأمل بأن يقول: أعصي ثم أتوب، حتى يأتي يوم لا تَحَصُّنٌ فيه ويقول لنفسه: ذهبت التوبة مُهملةً.

ووعظنا سهل بن عبد الله (رحمه الله): الجاهل ميت، والناسي نائم، والعاصي سكران، والمُصِر هالك، والإصرار هو التسويف، والتسويف أن يقول: أتوب غدًا؛ وهذا دعوى النفس، كيف يتوب غدًا [وغدًا] لا يملكه[3]؟!

حتى إن طال عمري، فالعمر كله ينقضي في لحظات والحساب يأتي بغتة بالنسبة إلى العاصي. كلما تقدم العبد في العمر يشعر أن الوقت يمر سريعًا، ويقتنع أن الحياة قصيرة. إضافة، إن العبد في الآخرة يشعر أن مدة حياته في الدنيا كلها كانت قصيرة، فمنهم من يشعر أنها كانت بمنزلة عشرة أيام تقريبا {يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا} [طه 103]، ومنهم من يشعر كأنها كانت يومًا {نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا} [طه 104]. ومنهم من يشعر كأنها بمنزلة ساعة {وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ} [الروم 55]! وكل ذلك بسبب أن الحياة مهما طالت، فإنها لا تُقارن بالحياة الأبدية في الآخرة، فيوم القيامة وحده كمقدار خمسين ألف سنة من أيام الدنيا بالنسبة إلى الكافر.

---

[1] سنن ابن ماجه 4243.

[2] صحيح البخاري، كتاب: تفسير القرآن، باب: وقوله {لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ}.

[3] تفسير القرطبي 136/4.

وقد اغتر كثيرٌ ممن قبلي وتهاونوا بمدة عمرهم في الدنيا، إذ كانوا يرونها طويلة، إلى أن بعضهم أخلد في النار بسبب تلك الأيام البضع، وما كانوا يظنون أن الوقت سيغلبهم، بل ظنوا أنهم سيتحايلون على عامل الوقت. فكيف لي أن أُجازف بالوقت وقد خُدع به أكثر ممن سَلِمَ من الناس؟ كيف لي أن أُجازف بإقبالي على المعصية بينما حياتي مجرد يوم أو حتى عشرة أيامٍ؟ كيف أتوقع أن أُقبل على المعصية ثم أُصلح حالي في خلال ليلةٍ وضحاها؟! يجب أن أنتبه إلى ما هو مكتوب في الآية {ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ} [الحجر 3] (وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ أي يغتروا بطول العمر عن الأخذ بالإيمان والتوبة والعمل الصالح)، وأحترس من أن يصبح حالي مثل حال هؤلاء الذين توعَّدهم الله.

ومن لم يستوعب مدى سرعة انقضاء مدة الحياة، فليقرأ هذه الآية {وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} [الروم 56]. معنى الآية أن المؤمنين يقولون يوم القيامة للذين كفروا بالبعث أن هذا هو يوم البعث (الذي كنتم به تكذبون)، بعد أن لبثتم في الدنيا المدة التي كتبها الله لكم في اللوح المحفوظ. ولكن لننظر إلى صيغة الآية، فإنها تدل على أنهم يتكلمون في الحاضر وكأننا في يوم البعث الآن، في تشديد على مدى سرعة وقوع الأحداث حتى أننا نجد أنفسنا في يوم البعث وهذا يُقال.

والآيات المماثلة في هذا الأسلوب متعددة، منها {وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاء حَتَّى إِذَا جَاءهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ} [النور 39]، والآية {وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ} [الزخرف 39]. بل وفي بعض الآيات كان إنذار الله لمن خالف أمره أن العذاب المُهلك في الدنيا ليأتينهم بغتة (بصيغة المستقبل)، مع أن تلك الأمة قد هلكت بالفعل في الماضي بالنسبة إلينا، في إشارة إلى سرعة وفجأة انقضاء الأجل بين الإنذار والعذاب المُهلك، والذي به يدخلون مراحل الآخرة {وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ} [العنكبوت 53].

فكم من فردٍ ظن أنه يستطيع إصلاح حاله قبل مماته، بالرغم من أن عامة الناس يأتيهم الموت في لحظة لا يتوقعونها وليسوا مُستعدين لاستقباله، فيجدون أنفسهم في وضعية المحاسبة بغتة؟ ومع أن ما جاء في الآيات يتعلق بالكافرين، فإنه ليس هناك ما ينفي أن ذلك قد يُقال للمسلمين المسرفين في المعاصي أيضًا. فلنسارع يا إخواني في الإصلاح، فإن وضعنا حَرِج إذ يكاد ينفد وقتنا؛ ليس هناك وقت لتضييعه.

ثم ليُعلَم، أن المماطل للتوبة بهذا المنهج لن يكفيه عمره كله، وإن عاش ألف عام، فإنه عندما تأتيه لحظة وفاته سيقول: لم يكن لديَّ وقت كافٍ لتنفيذ توبتي بالطريقة التي أردتها. والدليل على صحة مبدأ هذا الكلام هو حديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ مَسَحَ ظَهْرَهُ

فَسَقَطَ مِنْ ظَهْرِهِ كُلُّ نَسَمَةٍ هُوَ خَالِقُهَا مِنْ ذُرِّيَّتِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَجَعَلَ بَيْنَ عَيْنَيْ كُلِّ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ وَبِيصًا مِنْ نُورٍ ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى آدَمَ، فَقَالَ: أَيْ رَبِّ مَنْ هَؤُلَاءِ؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ ذُرِّيَّتُكَ. فَرَأَى رَجُلًا مِنْهُمْ فَأَعْجَبَهُ وَبِيصُ مَا بَيْنَ عَيْنَيْهِ، فَقَالَ: أَيْ رَبِّ مَنْ هَذَا؟ فَقَالَ: هَذَا رَجُلٌ مِنْ آخِرِ الْأُمَمِ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ يُقَالُ لَهُ 'دَاوُدُ'؛ فَقَالَ: رَبِّ كَمْ جَعَلْتَ عُمْرَهُ؟ قَالَ: سِتِّينَ سَنَةً؛ قَالَ: أَيْ رَبِّ زِدْهُ مِنْ عُمْرِي أَرْبَعِينَ سَنَةً. فَلَمَّا قُضِيَ عُمْرُ آدَمَ جَاءَهُ مَلَكُ الْمَوْتِ فَقَالَ: أَوَلَمْ يَبْقَ مِنْ عُمْرِي أَرْبَعُونَ سَنَةً؟ قَالَ: أَوَلَمْ تُعْطِهَا ابْنَكَ دَاوُدَ؟ فَجَحَدَ آدَمُ فَجَحَدَتْ ذُرِّيَّتُهُ، وَنُسِّيَ آدَمُ فَنُسِّيَتْ ذُرِّيَّتُهُ، وَخَطِئَ آدَمُ فَخَطِئَتْ ذُرِّيَّتُهُ"[1].

فهذا سيدنا آدم (عليه السلام) استنكر عندما جاءه الموت لأنه لم يكتفِ بما يزيد على تسعمائة عام في حين هو على الصلاح، إذ كان عمره الأصلي ألف عام كما جاء في رواية أخرى وهو يقول لملك الموت "قَدْ عَجَّلْتَ، قَدْ كُتِبَ لِي أَلْفُ سَنَةٍ"[2]. أفليس العاصي أدعى أن يُنكر عمره عندما يأتيه الموت؟ فلم المماطلة في الامتناع عن المعاصي إذا كان العاصي لن يكتفي حتى بألف عام من العصيان؟

موازنة المكاسب أمام المخاطر. المُسبب الرئيسي لانتهاج فكرة الاستمتاع بمدة شباب المرء دون قيود هو عدم الرغبة في محاسبة النفس على ما ترتكبه. هذا لأن ذاك المرء إذا حاسب نفسه ستصيبه الغمة والهم، فلن يستمتع بمعاصيه أقصى الاستمتاع، إذ سيُدرك أنه تمادى في العصيان فضلًا على أنه لم يُقدِّم ما يكفي من الطاعات لأداء شكر نعم الله عليه.

لكن، ما دام المرء يُحاسب على معاصيه لا محالة وسيواجه عواقب مخالفاته، فالهَمّ والغم حاصل لا محالة، ولكن الفرق هو أن الهمّ والغم في الدنيا أخفّ بكثير من الهم والغم في الآخرة، بل ويعقبهما عذاب الله إن لم يُحاسب المرء نفسه في الدنيا. فلماذا إذًا لا يُبادر هو في محاسبة ومواجهة نفسه بما ترتكبها، كي تكون زمام الأمور في يده؟ يُضاف إلى هذا أن محاسبة الله له ومجازاته على مخالفاته تكون أخف آنذاك، لأن العبد الذي يُراقب ويُحاسب نفسه تنخفض معاصيه، وأن الله يرى اجتهاده ومُحاولاته لإصلاح نفسه فيرأف به يوم القيامة، ويُجازيه بالحسنى من جنس العمل–يُخَفف عنه الحساب في الآخرة مكافأةً.

فالغرض من مماطلتي في إصلاح النفس هو أن أتمتع بالدنيا قدر المستطاع، ولكن إذا أدركت أهوال الآخرة حق إدراكها ما تحمست في الإقبال على المعصية، وإذا ارتكبتها ما تلذذت بها. ويدل على هذا ما نبأنا به الرسول (صلى الله عليه وسلم) "إِنِّي أَرَى مَا لا تَرَوْنَ وَأَسْمَعُ مَا لا

[1] سنن الترمذي 3002.

[2] سنن الترمذي 3290.

تَسْمَعُونَ، أَطَّتْ السَّمَاءُ وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ، مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إِلا وَمَلَكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ سَاجِدًا لِلَّهِ. وَاللَّهِ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا، وَمَا تَلَذَّذْتُمْ بِالنِّسَاءِ عَلَى الْفُرُشِ، وَلَخَرَجْتُمْ إِلَى الصُّعُدَاتِ تَجْأَرُونَ إِلَى اللَّهِ"[1] (أَطَّتْ/تَئِطَّ أي صوَّتت وضجَّت، الصُّعُدَاتِ هي الطرقات، تَجْأَرُونَ أي تتضرعون).

من ثَمَّ، فإن تلذذي بالمعاصي دليل جهلي عن الآخرة. فهلّا مثلًا استوعبت أن جميع متاع الدنيا لا يُغني عن مجرد صبغة في نار جهنم؟ جاء في جزء من حديث لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) "يُؤْتَى بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُصْبَغُ فِي النَّارِ صَبْغَةً، ثُمَّ يُقَالُ: يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ، هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لا وَاللَّهِ يَا رَبِّ"[2].

ثم كيف أريد أن ألهو وكيف أستمتع بالمعصية وقد رأى الرسول (صلى الله عليه وسلم) أهل الجنة وأهل النار في أماكنهم في أثناء رحلة المعراج، قد حُدِّدَ مصيرهم مُجازاةً على أعمالهم؟! جاء عنه (صلى الله عليه وسلم) في جزء مما يرويه "قُلْتُ لِجِبْرِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَال: هَذَا آدَمُ، وَهَذِهِ الأَسْوِدَةُ عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ نَسَمُ بَنِيهِ، فَأَهْلُ الْيَمِينِ مِنْهُمْ أَهْلُ الْجَنَّةِ، وَالأَسْوِدَةُ الَّتِي عَنْ شِمَالِهِ أَهْلُ النَّارِ، فَإِذَا نَظَرَ عَنْ يَمِينِهِ ضَحِكَ، وَإِذَا نَظَرَ قِبَلَ شِمَالِهِ بَكَى"[3]. نَسَمُ بَنِيهِ أي أرواح أو أنفس أبناء سلالته؛ وَالأَسْوِدَةُ هي جماعة من الأشخاص من كل لون وجنس. فتأجيل إصلاح النفس إلى أواخر العمر مجازفة سفيهة، إذ إن المكسب من ورائها صغيرٌ ولكن الخسارة فيها فادحة.

قد يكون فيه مكر. قد يعمد العبد، إذا شرع في الإصلاح، أن يترك المعاصي ويُقبل على الطاعات تدريجيًّا، على أساس أنه لا يُجهَد أو تضيق نفسه في أثناء التغيير، أو ييأس، فيترك الإصلاح جملة. مثل هذا العبد يمشي على نصيحة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "إِنَّ هَذَا الدِّينَ مَتِينٌ فَأَوْغِلُوا فِيهِ بِرِفْقٍ"[4]، وهذا صواب في المبدأ. ولكن تنقلب الموازين ويكون مكرًا منه واستغلالًا للحديث إذا تحققت إحدى بعض النقاط التي تُبطل زعمه بالتوغل برفق. منها أنه إذا كان يزيد من معاصيه، أو توقف عن التقدم في الأعمال الصالحة، أو لم يضع لنفسه جدولًا (ولو تقريبيًّا) عن ترتيب وكيفية وزمن تركه للمعاصي، أو حدوث الأبين وهو ضياع هَمِّه وتفكيره عن التوغل في الدين أصلًا.

---

[1] سنن الترمذي 2234.

[2] صحيح مسلم 5021.

[3] صحيح البخاري 336.

[4] مسند أحمد 12579. ضعفه الألباني والنووي، وحسنه الأرناؤوط.

في هذه الأحوال تكون الأفعال مائلةً تجاه التفلّت، أو الأسوأ وهو المكر بحدود الله والتهاون بأوامره علينا أن نلتزم بصراطه الذي وضعه. هذا عادة يكون مُصاحَبًا بعلة في النية، مثل الذي ذكرناه أنه يستبيح العصيان معتمدًا على أن التوبة في آخر عمره ستمحو ما ارتكبه، وآنذاك يكون قد تغافل عن قول الله {وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ} [آل عمران 54]، وقوله تعالى {أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ اللّهِ فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللّهِ إِلاّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ} [الأعراف 99].

آنذاك لا يُؤمَن من العواقب إذ قد يجلب مكر الله، وعندما يقع مكر الله على العبد فلن يَسلَم في أي حالٍ من الأحوال. ومثال على مكر الله بالعبد الذي خبثت نياته جاء في جزء من حديث لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) "وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُ النَّار"[1]. ومكر الله هذا من جنس عمل الماكر المُسرف عمدا وهو شاب، لأن الله ردَّه إلى عمله الذي كان يعمله وهو شاب في لحظته الحرجة: لحظة الموت.

وقد يبلغ الماكر مرحلة أن الله يُبغضه لدرجة أن الله يأبى أن يتقرب هذا العبد منه من الأساس. فمثلًا، يُغلق على العبد باب التوبة فلا يستطيع الإقلاع عن المعصية، أو إن تاب العبد فإن الله لا يقبلُ توبته نظرًا لجرم ما قد ارتكبه سالفًا أمام توبته التي تهاون بقيمتها، أو أن توبته تكون معلولة مثل ألا تخرج من قلبه بصدق أو يعملها وهو يموت أو لا يرُدّ الحقوق إلى أصحابها.

ولنستيقن أن الله يعلم عندما يتعمد العبد المكر بمنهجه الذي وضعه، والدليل على ذلك هو أنه تعالى قد وضع قانونًا مُسبقًا لمن يسلك ذلك السلوك في حياته وتعامله مع الله. القانون الفاضح للماكرين هو أنه لا يقبل توبة من لا يردعه الإسراف في المعاصي إلا عندما يعي بانقضاء أجله، ليستغل كل لحظة من حياته في اللهو. ذلك في قوله تعالى {وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ وَلاَ الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَـئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا} [النساء 18].

وقد وضع الله قوانين لمقاومة مثل تلك الأفكار غير السوية ولا طيبة، والتي قد تدل على قلبٍ غير صادقٍ مع الله، وحتى لا تكون هناك ثغرة أو منفذ للماكرين الباحثين عن حجّة يستغلونها. فمثلًا، قد وعد الله الذي يُطيع الله منذ شبابه بأن تكون له كرامة زائدة، عن الذي تعمد عصيان الله في شبابه ثم أسرع وأصلح نفسه في هِرَمِه. هذه الكرامة هي أن الله يُظله من أشعة الشمس عندما تدنو من الأرض يوم القيامة، وذلك في حديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمْ اللَّهُ تَعَالَى فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لا ظِلَّ إِلا ظِلُّهُ: إِمَامٌ عَدْلٌ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ،

[1] صحيح البخاري 3085.

وَرَجُلانِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ"[1]. وقد يكون للشاب العابد كرامات أخرى لم يذكرها الله.

فهذه إحدى مخاطر هذا المنهج الفكري، أني قد أدخل نطاق مكر الله. ميزان الله دقيقٌ بالغ الدقة، وأن لكل مكر يصدر من العبد له مكر من الله يُقابله من حيث النوع، ولكل ذنب له جزاء من جنسه، ولكل صغيرة من الذنوب طريقة لله في استخراج حقه من العبد دون أن يَظلمه! هذا وعند الله لا حدود تُقيّده لما قد يفعله ليقتص المظالم من الظالمين ويرد الحق لأصحابه. ففي حديث بالغ في الترويع والتحذير من مكر الله جاء عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "حُرْمَةُ نِسَاءِ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ كَحُرْمَةِ أُمَّهَاتِهِمْ، وَإِذَا خَلَفَهُ فِي أَهْلِهِ فَخَانَهُ قِيلَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: هَذَا خَانَكَ فِي أَهْلِكَ فَخُذْ مِنْ حَسَنَاتِهِ مَا شِئْتَ. فَمَا ظَنُّكُمْ؟"[2] (أي أن الله يقول للمجاهد المظلوم أن يأخذ من حسنات الزاني بأهله ما شاء، ثم قال الرسول صلى الله عليه وسلم للصحابة: فما ظنكم؟ أي ما ظنكم أنه فاعلٌ به؟!).

حقًّا، ما ظنُّنا فيما المجاهد فاعلٌ بالقاعد الخائن، إذ أذن له الله أن يأخذ من عمل الظالم ما يشاء، أي حتى يرضى! فما القدر الذي سيُرضي المظلوم في يوم يختصم فيه أصحاب الأرحام والأحباب والقرناء، حتى إن الأم ترفض إعطاء ابنها حسنةً أو تحمل عنه سيئةً من شدة فزع ذلك اليوم ومن شدة الرغبة في النجاة من النار. ذاك يوم قال الله عنه {وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَن تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ} [فاطر 18].

فما ظننا فيما المظلوم فاعله بظالمه، لاسيما إذا قيل له أن يقتص منه حتى يرضى، فمتى يرضى؟! والبديهي أن ذلك المجاهد سيظل يأخذ من حسنات الخائن، وربما طرح عليه كل ذنوبه أيضًا عندما تفنى حسنات الخائن، حتى يطمئن المظلوم أنه ناجٍ من النار! فوالله، إن المجاهد يوشك أن يُنكِّل بذلك الخائن فيفعل به أكثر مما قد فعله الخائن به في الدنيا.

ومن هذه القضية ينشأ سؤالٌ منطقيٌ، يتعلق بهذا الموقف وبالقصاص يوم القيامة عامة، إذ إنه معلوم أن المظلوم يأخذ من حسنات الظالم أو يَقذف عليه من سيئاته يوم القيامة، لأن لا سلعة للتداول يومئذ إلا الحسنات والسيئات. السؤال هو: ماذا إذا فنيت حسنات الظالم وفنيت سيئات المظلوم، ولا يزال للمظلوم حق عند الظالم؟

---

[1] صحيح البخاري 1334.

[2] سنن النسائي 3139.

هنا أطرح نظرية "التَشْقِيقِ" لظاهرة أظنها قد تحدث يوم القيامة، ولا أستبعد حدوثها كصيغة من صيغ مكر الله بالظالم. هذه النظرية مبنية على أن المتضادين (الشِقَّينِ) يلغيان بعضهما أو يعادلان بعضهما، بمعنى أن حسنة أمام سيئة يتعادلان في الميزان، تمامًا مثل أن الشُحنة الموجبة والشُحنة السلبية إذا التقتا تفاعلا وتساويا حتى تنقضي الشحنة. ففي هذا الموقف، يخلق الله الشِقَّين: حسنة وسيئة من العدم، ويعطيهما إلى المظلوم، فيُمسك المظلوم بالحسنة ويقذف بالسيئة على الظالم، فيزداد المظلوم في حسناته والظالم في سيئاته، ولا يزال يتكرر ذلك حتى يُقضى من الظالم إلى المظلوم.

وما استفاضتي في هذا الموضوع إلا لبيان مدى خطورة وشدة موقف القصاص، وليحذر كل واحد منا وليتقِّ الله، ولا يأمن مكره تعالى ولا يستهين بعقابه، فلا يَظلم أبدًا. وإذا ظَلَم أحدًا، فليسارع في قضاء المظلمة لصاحبها ولو على حساب سُمعته ومظهره العام وماله وعزة نفسه، فهذا بدلًا من فضحٍ وإهانةٍ وذلٍ وعقابٍ أشد ومحتوم يوم القيامة في إجراءات القصاص منه.

فعجبًا أن يقول المرء لنفسه أنه سيرد إلى طاعة الله بعدما يستنفذ جميع المعاصي، لأنه لا يتفكر أن الهداية والانصلاح هما بيد الله، يؤتيهما من يشاء ويمنعهما عن من يشاء. فهل ضمن الماكر أن يأذن الله له بالهداية وقد قال تعالى في كتابه {وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ} [يونس 100]؟ وبالمنطق، إذا كان إيمان المرء بالانتقال من الكفر إلى الإسلام (وهو الانتقال الأكبر) لا يتحقق إلا إذا أذن الله للمرء أن يبلغه، فمن البديهي أن الصلاح للمسلم بالانتقال من الإفساد إلى الصلاح (وهو الانتقال الأدق)، لا يمكن أن يتحقق أيضًا إلا إذا أذن الله. فكيف يتجرأ فيتَّكئ المرء منا بمصيره على نقطة هي بيد الله وليست بيده، ولم يأخذ من الله عهدًا عليها – أن الله سيأذن له بالانصلاح في آخر عمره؟!

لا أُدرك قُدرة من أُماطل معه بهذا الفكر. كثير من الناس يُقللون من شأن نقمة الله، فيستخِفون بقوانين الثواب والعقاب مثلًا، أو يعمدون لاستغلال رحمة الله، وذلك مثل ما أرادوه إخوة يوسف (عليه السلام) {اقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ} [يوسف 9]. والسؤال هو: هل يؤمن أحدنا أن الله ليس بقادر على أن يعاقب إخوة يوسف إذا كانوا قتلوه عمدًا ثم تابوا مكرًا؟ إذا ما الفرق بين المؤجل للتوبة حتى يستمتع بدنياه وبين إخوة يوسف في مبدأ تداول قضية الثواب والعقاب؟

وهي فكرة تراود كثيرًا من الناس، وأنا منهم، ولكن يجب أن نحذر من تلك الفكرة وسَلكِها لأنه لا يخفى على الله شيءٌ، والمُسِّر عند الله في الاطلاع كالمُجاهر {سَوَاء مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن

جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ} [الرعد 10]. ذلك وأن الله لا يُعجزه مكر الماكرين، مثل أن يمكر بي فيجازيني على قدر أفعالي دون أن يظلمني، وسيكون ذلك بالأمر العسير عليَّ لأننا كلنا نرجو عفو الله فيما اقترفناه من معاصي ولا نتحمل المعاقبة عليها. ومن أهون درجات مكر الله هو أن يستخرج مني حقه في مراحل ما قبل الحساب إذا أراد، مثل فقط في القبر وفي أثناء البعث، بأن يُعذيبى بشدة، ومع ذلك لا يُدخلني النار لأنه لا حاجة له في ذلك إذ قد استخرج مني حقوقه، بل ويُدخلني الجنة بعد كل هذا! فما بالنا إن أراد أن يمكر بي أكثر من ذلك؟

وهذا واردٌ جدًّا في الجزاء إذ قد مكر العبد أن يتمتع في شبابه ويتوب في تقدم عمره، وحقق ذلك فعلًا. وبما أن الجزاء من جنس العمل، فإن الله قد يُعذب ذلك العبد في أوائل مراحل الآخرة دون المراحل المتقدمة، وكل ذلك دون أن يكون قد ظلمه. أليس الله بقادرٍ على ذلك؟ فهذا أمتن المكر، مكر الله الذي لا يُعجَز ولا يُغلب لا يُنفَذ منه، كما دُل عليه في قوله تعالى {وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ} [الأعراف 183].

هل الوقت مبكرًا فعلًا؟ الشاب كثير ما يغتر بطاقته الفائضة، ويشعر أن حيويته لن تتلاشى قريبًا، ولكن الوقت يُغيّر ذلك تدريجيًّا. وقد يسمع كلام المُسنين كثيرًا عن اغتنام الوقت ومرحلة الشباب، ولا يُعير انتباهًا لتلك النصائح، بل ومنهم من يرى أن التفكير في الموت في أثناء مرحلة الشباب هو تشاؤم. هذا إضافةً إلى أنه قد يجهل، أو لا يعي قيمة، حديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "اغْتَنِمْ خَمْسًا قبلَ خَمْسٍ: شَبابَكَ قبلَ هِرَمِكَ، وصِحَّتَكَ قبلَ سَقَمِكَ، وغِناكَ قبلَ فَقْرِكَ، وفَرَاغَكَ قبلَ شُغْلِكَ، وحَياتَكَ قبلَ مَوْتِكَ"[1].

لكن المعاينة تُوَّضح للشاب خبر أن الهِرَم يعيق العبد. وما يكفيه من هذا هو أن يُصدِّق الحكمة وراءها ويعمل على حسب ذلك، وهي أن العبد عندما يكبر فإن هناك أمورًا لا يستطيع إتمامها نظرًا لفتور قوة جسده، أو على الأقل تصعب عليه. هذا خاصة أن الأمراض المذمنة للجسد تزداد مع تقدم العمر، ولذلك قد يُطلق مجازًا على الرجل المُسِنّ لفظ عجوز، وهو من العَجزِ عن فعل شيء. فأيهما أسهل، أن يتعود على قيام الليل وجسده ممتلئ بالحيوية أم وهو عجوز يجد مشقة وآلامًا في الحركة أو الوقوف حتى، مع احتياجه للذهاب إلى الخلاء كثيرًا؟ فينبغي العمل من الآن تحسبًا لفترة يعجز فيها العبد عن فعل الذي كان يقدر عليه وهو شاب.

[1] صحيح الجامع للألباني 1077، الراوي: عبد الله بن عباس. أخرجه ابن أبي الدنيا في قصر الأمل 111، والحاكم 7846، والبيهقي في شعب الإيمان 10248.

ثم إن الفوز بالدرجات العُلى في الجنة يحتاج إلى مجهود كبير وصبر، لا يطيقه المرء على يومٍ أو يومين أو حتى بضعة أشهر وسنين. وهذا أيضًا ظاهرٌ في الحديث المذكور آنفًا، فقوله (صلى الله عليه وسلم) "شَبابَكَ قبلَ هِرَمِكَ" و"وفَرَاغَكَ قبلَ شُغْلِكَ" يدلان على الحث على سرعة المبادرة والشروع في العمل حتى يلحق العبد أن يُتِمَّه. فمثل الذي يرى أنه سيُعوِّض تقصيره عند آخر عمره ويبلغ الدرجات العُلى، أو ربما الجنة من الأساس، كالذي يريد بناء عمارة في يومٍ واحد؛ أو كالذي يزرع البذور في الأرض أول النهار وكان من المفترض أن يحصد الثمار آخر نهار ذات اليوم. أولئك لم يتركوا لأنفسهم مجالًا إلا أن يصطدموا بواقع أن الوقت قد داهمهم، وما عليهم الآن إلا تحمل عواقب قلة عملهم أيًّا ما كانت.

هناك آيات مثل {وَلَوْ تَرَىَ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى النَّارِ فَقَالُواْ يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} [الأنعام 27] تدل على داهية الوضع الذي نحن فيه الآن (ولا أقول موقفنا يوم القيامة). فلننظر إلى نبأ الله ولنتمَعَّن في لفظ "فَقَالُواْ"، ولم يأتِ لفظ: فيقولوا أو: فسيقولون، مما يعطي الانطباع أن هذا قد وقع بالفعل في الماضي. ولكن بالنسبة إلينا الآن فنحن نُدرك أن ذلك لم يحدث بعد، مما يشير إلى مرادٍ آخر في المعنى، أن الله يُقول لنا إن الأمور تجري سريعًا لدرجة أن خبرهم كأنه كان في الماضي (بالنسبة إلينا)، وهذا يحمل رسالة أن الوقت داهمهم فوجدوا أنفسهم يُعرضون على النار بغتةً.

وبالرغم من أن هؤلاء كفروا بآيات الله، فإن مرور وقت الدنيا سريعٌ فعلًا حتى مع المؤمن، ولكننا جميعًا لا ندرك ذلك حقيقةً إلا عندما نُعاين الآخرة. ويدل على ذلك دلالة قطعية قول الله تعالى {قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (112) قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ} [المؤمنون 112-113]. فكما أن الوقت داهمهم فهو يداهمني أنا أيضًا، ولكن لا أدرك هذا حق الإدراك. مثل هذا في لفظ "وَنُفِخَ" والزيادة عليه "ثُمَّ نُفِخَ" في قوله تعالى {وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاء اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ} [الزمر 68]، فهو بصيغة الماضي، ولم يُقال: وسيُنفخ في الصور/ثم سيُنفخ فيه أخرى. فكل ذلك تنبيه وحثٌّ لنا من الله، كي نُدرك خطورة الوضع فنَشُدَّ أزرنا.

وبينما أنا ألهو في المعصية، فإن الملك الموكَّل بالنفخ في الصور قد تهيأ للنفخ في الصور، وإنما ينتظر أمر الله أن يأمره أن ينفخ لقيام الساعة! فكيف أستمتع بالمعصية مع علمي أن صاحب القرن (أي الصور) قد ينفخ فيه أي لحظة الآن؟! ولكني قد أستمتع في المعصية فعلًا، مما يدل على أني إما لم أستوعب هذه النقطة تمامًا، أو أن بي غرورًا لأني مطمئن أنه لن ينفخ في القرن في فترة حياتي!

على الوجه الآخر، فقد أيقن الرسول (صلى الله عليه وسلم) اقتراب الساعة حق اليقين، واستوعب خطورة الموقف، فقد فقال (في حديث ضعيف الإسناد) "كَيْفَ أَنْعَمُ وَصَاحِبُ الصُّورِ قَدْ الْتَقَمَ الصُّورَ وَحَنَى جَبْهَتَهُ وَأَصْغَى سَمْعَهُ يَنْتَظِرُ مَتَى يُؤْمَرُ؟!"[1]. الْتَقَمَ الصُّورَ أي وضع فمه على موضع النفخ في الصور أو القرن؛ وَحَنَى جَبْهَتَهُ أي خفض جبهة رأسه، في إشارة إلى الوضعية الجسدية التي تسبق من سينفخ في التو واللحظة، استعدادًا لبذل جُهد النفخ في الصور، وكأنه سَحَبَ نَفَسَهُ وتقلص جسده كمن شرع في النفخ بالفعل. ولنلاحظ أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) قال "كيف أنعم"، أي كيف يستريح وكيف يستمتع بالمباح من متاع الدنيا، فهو لا يستمتع بالمباح بينما أنا أريد الاستمتاع بالمعاصي!

فما خطبي؟ أمازلت ألهو وأُماطل وقد قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) هذا؟! أمازلت ألهو وقد قال تعالى {اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ} [القمر 1]؟! أمازلت ألهو وقد قال عز وجل {اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ (1) مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ (2) لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّواْ النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ} [الأنبياء 1–3]؟! أمازلت ألهو وقد قال الرسول (صلى الله عليه وسلم) "لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ، وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدْ اقْتَرَبَ، فُتِحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذِهِ" (وَحَلَّقَ بِإِصْبَعِهِ الإِبْهَامِ وَالَّتِي تَلِيهَا)[2]؟! أمازلت ألهو وقال أيضًا (صلى الله عليه وسلم) "بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ" (وَضَمَّ السَّبَّابَةَ وَالْوُسْطَى)[3]!؟!

فما خطبي!؟! إنا لله وإنا إليه راجعون. فلا أملك إلا أن أقول ما وصَّى به الرسول (صلى الله عليه وسلم) أن نقوله بعدما تكلَّم على استعداد صاحب الصور للنفخ فيه فثقل على الصحابة الخبر: حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا[4]. فحتى في الدعاء الذي وصَّانا به، فيه تلميحٌ إلى أن الأحداث قد بدأت ومسيرتنا البرزخية انطلقت بالفعل.

على الرغم من أني مُقصِّرٌ مع الله، فإنني بقوة الإيمان الذي في قلبي قد أُدرك منزلة من هو أفضل مني في العمل

كي نُعاين تلك الفكرة موضوعيًّا، الأفضل أن نُقسِّم تقييمنا للموضوع إلى ما يؤيد القائل لهذه الفكرة وما عليه، لنزن الاحتماليات ونكون أكثر دقة في استيعاب فرصة حدوث ذلك. ولنبدأ بما للقائل من حق في قوله ذلك ولنكن صريحين مع أنفسنا، فإن تلك الفكرة قد تتحقق، وذلك ما دلت عليه

---

[1] مسند أحمد 11271.

[2] صحيح البخاري 3097.

[3] صحيح مسلم 5247.

[4] سنن الترمذي 2355.

بعض الأحاديث مثل "إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيُدْرِكُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ دَرَجَاتِ قَائِمِ اللَّيْلِ صَائِمِ النَّهَارِ"[1]. وهناك حديث آخر للرسول (صلى الله عليه وسلم) "وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ إِلّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَدْخُلُهَا"[2].

المُقصِّر مع الله قد يُضَاعف الله له أعماله الصالحة القليلة، نظرًا لإخلاصه فيهن، إلى أكثر من سبع مائة ضعف، كما أشار جزء من حديثٍ لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) "إِنَّ رَبَّكُمْ رَحِيمٌ، مَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةً، فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ عَشْرًا إِلَى سَبْعِ مِائَةٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ"[3]. وهكذا قد يُدرك مَن عمل أكثر منه، فهذا ما للقائل في قولته تلك.

ولكن لننظر إلى ما يؤخذ على القائل، فأولًا، إن في كثير من الأحوال يستغل العبد هذه الحقيقة كذريعة لارتكاب المعاصي. ينبغي إدراك أن هناك فرقًا بين أن يكون العبد مُقصِّرًا في عمله الصالح وبين أن يكون عاصيًا لله، فالعاصي تتقلص معه أكثر فرصة حدوث مُضاعفة الأعمال.

ثانيًا، إن في تلك المقولة تزكية للنفس التي نهى الله عنها {هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى} [النجم 32، جزء من الآية]، فكثيرًا ما يُعطي المرء قدرًا لنفسه أكثر بكثير مما هو عليه حقيقة. في هذه الموضع، قد يكون حالي في الحقيقة مطابقًا لمن قال فيهم الله {قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [الحجرات 14].

الذي يُقيّم مُحصِّلة مدى الإيمان الذي في قلب العبد هو الله، فيُجازيه يوم القيامة على هذا الأساس مع أخذ الأعمال في الاعتبار. فهذا التقييم شيءٌ خاص بالله، ولا يحق لأحدٍ (ولا المُقَيَّمُ حتى) أن يُوزع ثواب الله كما يراه، فإن الثواب ثواب الله، والعبد عبد الله، والجنة جنة الله، فلا يحق لنا أن نُخضع أيًّا من تلك الأمور بحسب معاييرنا، لأن تلك الأشياء ليست ملكنا.

بل إن تزكية النفس لها تأثيرٌ عكسي، وذلك لأنها تُعتبر عند الله من تعظيم النفس، كالذي يرى أن قلبه أصون من أن يُفسَد بقوله إنه سينجو بالرغم من أن له معاصي. إن الله لا يُحب كل مختال فخور الذي لا يتواضع لله ولا لعباد الله، مما يُدني من منزلة ذلك المتعاظم عند الله لمجرد أنه زكَّى نفسه! يُضاف إلى هذا أن كلامه فيه تمنٍّ وتأويل على الله. ثم إن نادرًا من يظن ذلك في نفسه

---

[1] مسند أحمد 23454.

[2] صحيح البخاري 6900، جزء من الحديث.

[3] سنن الدارمي 2667.

أن يسلم من الغرور أو حتى المكر بقوانين الله، مما ينحدران بالعبد انحدارًا في الدرجات عند الله، وإن كان قلبه في الأصل طيبًا.

ثالثًا، إن الإيمان الراسخ في القلب يظهر في العمل في حقيقة الأمر، ويجب أن نُدرك ونقبل ذلك الواقع، فهو كما قال الإمام الحسن البصري (رحمه الله): إِنَّ الإِيمَانَ لَيْسَ بِالتَّحَلِّي وَلا بِالتَّمَنِّي، إِنَّمَا الإِيمَانُ مَا وَقَرَ فِي الْقَلْبِ وَصَدَّقَهُ الْعَمَلُ[1]. فليس منطقيًّا في العادة أن من قوي إيمان قلبه يبخل بعمل الصالحات، ومَن ضَعُفَ إيمان قلبه يُكثر من الأعمال الصالحة. فإن ظن المرء أن إيمانه قويٌ بالرغم من أن عمله الصالح قليل، فليعلم أن الذي يُكثر من العمل الصالح إيمانه أقوى، وهذا ردٌّ على من يجعل معايير المنزلة بقوة إيمان القلب على حساب حسن العمل. إن العمل هو دلالة درجة ونقاء الإيمان، فإن كان الإيمان حسنًا فلماذا قد يتحفظ المرء عن الاجتهاد في العمل، وهذا سؤالُ منطقي يجعل ما يكمنه المرء يطفو ويُصارح نفسه، لعله يصدُق بسببه ثم ينصلح.

أما إن كان يُكثر من المعاصي، فالمعصية في حد ذاتها دليلٌ على ضعف الإيمان، والإسراف فيهن يُناقض ما يقوله بأن إيمانه الذي في قلبه قوي. والداهية هي أن المعصية تُضعف الإيمان أكثر، إذ تؤثر على قلبه سلبًا وتنكت فيه نكتةً سوداء. ثم وإن قَصَد العبد المكر، فإن ذلك الوضع لن ينطبق عليه في الأصل لأن قلبه أصبح خبيثًا، والله ينظر إلى القلوب في المجازاة على العمل كما دل قول رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "إِنَّ اللَّهَ لا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ"[2].

وإذا كان قلب المرء يتأثر بمجرد التقصير في العمل الصالح، لأن القلب والعمل مترابطان، أي يؤثران بعضهما على بعض، فما بالنا بما يحدث لقلب العاصي. وليصارح القائل نفسه وليراجع نظرته لنفسه دون حمية، فهذا الفكر يحمل أن القائل يتمنى على الله، وقد أخذته الآمال إلى عالم اللا واقعية.

رابعًا، هناك مشكلة أكبر تحدث عندما يتمادى العبد بهذه الفكرة، وهي أنه يرى أنه أفضل من كثير من العلماء والمتقين، لما يرى من زلّات كبيرة لبعضهم (أو الأدهى وهو أنه يراها كبيرة في نظره)، فيُعَمِّم هذا وكأنهم جميعهم لهم زلّات وعلل كبيرة. هذا في حين يرى أن زلّاته أهون منهم إذ ليست بفادحة، فيقتنع أنه أفضل وليس من الضروري أن يكون عالمًا ولا تقيًّا. فيرى أن تقصيره، بل ومعاصيه، لا شيء بالمقارنة بالعالِم والتقي عندما يُخفقان، فينتقد وينتقص من العلماء والأتقياء عامة، ويكأنه يتربص بهم. والداهية هي عندما يتلفظ بأمرٍ فيه انتقاد لأحكام الله أو الإسلام بعينه، فينتقد الالتزام بالشرائع مثلاً تحت مبرر أنه لا يستطيع أحد أن يتمسك بها جميعًا. أو قد ينتقد شرائع

[1] المُصَنَّف لابن أبي شيبة 217/7.

[2] صحيح مسلم 4651.

بعينها يدَّعي أن فيها غلوًا، مثل تحريم مُصافحة الرجل للمرأة، نظرًا لوقوع أحد الملتزمين في الزنا مثلًا، فقد انتقد ما حرَّمه الله وقال كلمة هي ثقيلة جدًّا تهوي به في جهنم.

فوق هذا هناك نقطة محورية، ألا وهي تذكر أن العلماء من البشر، أي أن لهم زلَّات ومعاصي. فحتى إن تحجج أحدٌ أن للعلماء أخطاء، هذا لن يُغير حقيقة أنه سيُحاسب وحده أمام الله بعيدًا عن جزاء العلماء على أعمالهم. فلينشغل العبد بعمله ولا يأخذ زلَّات بعض العلماء كذريعة لتحقيق رغباته الشخصية، فهي من أحد مداخل الهلاك على العبد كما أشار ذو النون المصري: إنما دخل الفساد على الخلق من ستة أشياء، الأول: ضعف النية بعمل الآخرة. والثاني: صارت أبدانهم مُهَيَّئة لشهواتهم. والثالث: غلبهم طول الأمل مع قصر الأجل. والرابع: آثروا رضاء المخلوقين على رضاء الله. والخامس: اتبعوا أهواءهم ونبذوا سُنَّة نبيهم صلى الله عليه وسلم، والسادس: جعلوا زلَّات السَلَف حُجَّة لأنفسهم، ودفنوا أكثر مناقبهم[1] (أي تجاهلوا المواقف العظيمة للسلف كي يروا أنفسهم على خير).

وليسأل المرء منا نفسه فيما يتعلق بالحديث عن الرجل الذي يعمل بعمل أهل النار ثم يسبق عليه الكتاب، فيعمل عملًا صالحًا يُختَم له به فيدخل الجنة؛ أهذا هو الوضع الطبيعي أم تلك هي الحالات الاستثنائية؟ فمن قال إن هذه هي القاعدة الأساسية فقد خالف القواعد الشرعية والمنطق، وخالف المغزى من الحديث إذ إن لو كانت تلك هي القاعدة فما كان هناك داعٍ لذكر هذا الحديث في الأساس. بل ولَاجتَهد الناس في فعل المعاصي ليُختم لهم بحسن الخاتمة.

أما من يُقِرّ أن تلك الحالات استثنائية، أفليس من قلة الحكمة أن يؤسس مصيره على احتمالية إدراجه في الحالات الاستثنائية؟ ففي هذا الفكر سفهٌ مرتبط به، الذي يكمن في المجازفة عمدًا بإيمان المرء ومن ثمَّ مصيره في الآخرة. البلوغ بهذا الفكر إلى حد الاقتناع بجواز الخوض في معصية هو بمنزلة اللعب بالنار، يوشك أن تلفحه مع ثقته أنه أمهر من أن يُصاب منها. فكل من لفحته النار وهو يلعب بها كان واثقًا أنه أمهر من الإصابة بها، ويستطيع السيطرة عليها فيتفادى لسعتها، فما الذي يُميّزني؟

هل من الحكمة المجازفة بشيء خطير مثل هذا، بمصيري في الآخرة بناء على أمل في نسبة الأقلّية، ولا أدري إذا قلبي يبلغها ولا أدري إن كان عملي يؤهلني لها؟ إذا كان من القواعد الأساسية أن المسلم المُبادر والمسلم المتباطئ لا يستويان كما دلت الآية {وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} [الحديد 10]، فما بال من يُقصِّر

[1] الاعتصام للشاطبي 90/1.

أيضًا يظن أن ذلك لن يُقلِّص من تلك النسبة الاستثنائية أكثر؟ بل فما بال من ينحدر أكثر ويعصي الله؟

ونلاحظ في الآية قوله تعالى "وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى"، أي أن كلتا الفرقتين يدخلون الجنة بالرغم من عدم تساويهم، ما يبين أن للمُسابق إلى طاعة الله منزلة أعلى من المتأخر، وهو يدل على دقة الجزاء، فما بالنا بمن عمل ومن لم يعمل؟! هذا بالإضافة إلى أن ذاك المرء المقصّر في عمله، حتى إن أدرك منزلة من عَمِلَ أكثر منه في الجنة، ولكن ليس هناك دليل على أنه يساوى بينهم في جميع مراحل الحياة البرزخية ما قبل الحساب. أي ليس هناك ضمان أنه يتساوى معهم في القبر وفي البعث وفي النور يوم القيامة وفي عبور جسر جهنم وغير ذلك.

فهذه الفكرة بتحصيل المُتقين في الجزاء إنما هي فكرة فيها مجازفة بمصير المرء الدائم والنهائي، أي لن تُتاح فرصة العودة وإعادة المحاولة لفعل الصواب، ومكيدة تُسوّلها النفس والشيطان لفتح باب التراخي في العمل. وذلك كله طمعًا في تحصيل أعلى درجات المتاع في الدنيا والآخرة بأقل قدر من العمل. وبعد النقاش، الآن لا تخفى العلل في ذلك المسلك من التفكير بعد مراجعة الأدلة، ويتجلى لنا أنها فكرة أساسها متأرجح، يعمد المرء للبناء عليها مع أن قاعدتها رقيقة.

الفائدة من هذا الكلام هي أن من يعتمد على الفرصة الاستثنائية لقلب حظه في الموازين غالبًا يفعل ذلك تواكلًا، يُبرر بهذا أخذه التقاعس عن العمل منهجًا. ففي الحقيقة هو لا يريد أن يجتهد بالمحاولة، ليس لأنه يعجز عن العمل الصالح. فلنحذر من أن نقع في ذلك. والصواب أن يعمل المرء صالحًا، ولكن إذا تفلت منه شيئ أو وصل إلى حدود طاقة جسده، فهو أهلٌ أن يُوفِّقه الله لعملٍ مُميز يرفعه الله به رفعًا.

ثم إذا تغاضى المرء عن ذلك كله، فليحسبها من الناحية الإحصائية المَحضَة، أنه كم من الوقت يمضيه في معصية الله، وكم من الوقت يمضيه وهو يطيع الله، وكم من الوقت يُضيّعه (أي يغفل فيه فليس في معصية ولا طاعة). فإذا كان أغلب وقته في المعصية، كان احتمال وفاته في أثناء معصية أعلاهم، وإذا كان أغلب وقته في غفلة، فإن أكبر احتمالية تكون أن يموت وهو في غفلة، وليُواجه كلٌّ منا نفسه بتلك الحقيقة. وأما الحديث عن الرجل الحَسَن الخُلُق، فقلما نجد عاصيًا يكون خُلُقُه حسنًا، فالعادة أنه يكون فجًّا غليظًا، بل حتى بذيئًا جبارًا.

وفكرٌ شبيهٌ بالذي نتداوله في هذا الفصل هو قول المرء لنفسه: أُعوِّض تقصيري في العبادات وارتكابي المعاصي بنفع الناس وحسن معاملتهم. هذه الوساوس تنشأ من نقص الإلمام بالقضية المتعلقة بأحاديث للرسول (صلى الله عليه وسلم)، مثل إجابته عندما سُئل: إِنَّ فُلَانَةَ يُذْكَرُ مِنْ كَثْرَةِ صَلَاتِهَا وَصِيَامِهَا وَصَدَقَتِهَا، غَيْرَ أَنَّهَا تُؤْذِي جِيرَانَهَا بِلِسَانِهَا؛ قَالَ "هِيَ فِي النَّارِ"، ثم قيل له:

يَا رَسُولَ اللَّهِ فَإِنَّ فُلَانَةَ يُذْكَرُ مِنْ قِلَّةِ صِيَامِهَا وَصَدَقَتِهَا وَصَلَاتِهَا وَإِنَّهَا تَصَدَّقُ بِالْأَثْوَارِ مِنْ الْأَقِطِ، وَلَا تُؤْذِي جِيرَانَهَا بِلِسَانِهَا؛ قَالَ "هِيَ فِي الْجَنَّةِ"[1] (بِالْأَثْوَارِ هي القِطَع؛ مِنْ الْأَقِطِ أي اللبن المُجفف).

والحقيقة هي أن هذا جانبٌ واحدٌ من القضية، إذ إن البعض قد يسيء فهم الحديث بأن المرأة التي تُحسن لجيرانها مُقصّرة في الفرائض، وليس هذا هو الحال، فإنما تقصيرها في النوافل. والدليل هو أن الرجل قال إنها تتصدق بأشياء يراها هيّنة، ولم يقل إن المشكلة في الزكاة عندها، بل في تصَدّقها.

ويؤكد هذه النقطة أكثر رواية أخرى قيل فيها: إِنَّ فُلَانَةَ تَصُومُ النَّهَارَ وَتَقُومُ اللَّيْلَ وَتُؤْذِي جِيرَانَهَا بِلِسَانِهَا، فَقَالَ "لَا خَيْرَ فِيهَا، هِيَ فِي النَّارِ"، قِيلَ: فَإِنَّ فُلَانَةَ تُصَلِّي الْمَكْتُوبَةَ وَتَصُومُ رَمَضَانَ وَتَتَصَدَّقُ بِأَثْوَارٍ مِنْ أَقِطٍ وَلَا تُؤْذِي أَحَدًا بِلِسَانِهَا، قَالَ "هِيَ فِي الْجَنَّةِ"[2] (أقط هو من مشتقات الألبان). ولنلاحظ هنا جملة 'تُصَلِّي الْمَكْتُوبَةَ وَتَصُومُ رَمَضَانَ وَتَتَصَدَّقُ بِأَثْوَارٍ مِنْ أَقِطٍ'؛ أي تؤدي الفرائض في الأساس. قد عقَّب سيدنا أبو هريرة (رضي الله عنه) على هذا الحديث قائلًا: وذلك ببَركةِ إحسانِها إلى جِيرانِها، ولم يَقَعْ منها ما فيه مَعصيةٌ؛ لأنَّ مَدارَ أمْرِ الدِّينِ على اكتِسابِ الفرائضِ واجتِنابِ المعاصي (انتهى). ويؤيد هذا أكثر وأكثر حديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عندما سأله رجل: أَرَأَيْتَ إِذَا صَلَّيْتُ الصَّلَوَاتِ الْمَكْتُوبَاتِ، وَصُمْتُ رَمَضَانَ، وَأَحْلَلْتُ الْحَلَالَ، وَحَرَّمْتُ الْحَرَامَ، وَلَمْ أَزِدْ عَلَى ذَلِكَ شَيْئًا، أَأَدْخُلُ الْجَنَّةَ؟ قَالَ "نَعَمْ"، قَالَ: وَاللَّهِ لَا أَزِيدُ عَلَى ذَلِكَ شَيْئًا[3].

فلا يغيب عن أحدنا أن الفرائض واجبة وأساسية لدخول الجنة دون عذاب، وأن ترك تلك الواجبات (مثل الصلاة المفروضة) يوجب النار وإن أحسن المرء إلى كل الناس. وقد تمادى فكر بعض الأفراد في سوء استيعاب القضية إلى مرحلة أنه لا يُصدِّق أن من قدَّم منفعة عظيمة للبشرية قد يدخل النار بالرغم من أنه يكفر بالله، مثل الذي اكتشف دواء لمرض منتشر بين الناس. لا ينسى أحدنا أن القضية في الأساس هي الإيمان بالله وعلاقة العبد بربه، وليست علاقة العبد بالناس، فإنما هذه تأتي في مرتبة تالية.

وهناك حديث آخر قد يُستخدم كذريعة لسلك هذا الفكر هو قول رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ""مَا مِنْ شَيْءٍ أَثْقَلُ فِي الْمِيزَانِ مِنْ حُسْنِ الْخُلُقِ"[4]، فيعمد العبد على حُسن الخُلق على حساب العبادات المفروضة، بل مع الاسترسال في المعاصي. ينبغي الانتباه أن هذا يختص بالميزان، قضية الحق والباطل صرفًا، بمعنى أن المرء عندما تُوزن له أعماله تثقل بسبب حُسن خُلُقه وهذا حقه، ولكن

[1] مسند أحمد 9298.

[2] المستدرك على الصحيحين لأبي عبد الله الحاكم النيسابوري 231/5.

[3] صحيح مسلم 18.

[4] سنن أبي داود 4166.

هناك قضية كرم الله عند الحساب، فقد يُضاعِف الله للمُتعبِّد السيئ الخُلُق أعماله فتفوق قدر هذا الشخص. ومما يؤيد هذا الكلام ما قاله رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عندما سُئل عن أي الناس أفضل عند الله "الذَّاكِرُونَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتُ"[1]، فهذا عمل يرفع العبد في المنزلة أكثر من حُسن الخُلق. وبالطبع الأفضل منهما هو من حافظ وداوم على العبادات، واتَّقى الله، وحَسُنَت أخلاقه أيضًا.

والكارثة قد تقع إذا تبنى المرء هذا الفكر الخاطئ ثم بنى عليه بالخطأ أيضًا، بمعنى أنه يعجز عن الإحسان للناس بعدما نوى أن يتكل على الإحسان معهم للنجاة. أو ربما يتوهم أنه يُحسن مع الناس وهم يشهدون أنه يُسيء إليهم، وهذا يحدث خاصة إذا اتخذ المرء هذه النية كذريعة لارتكاب المعاصي في الأساس، فالمعاصي في الواقع تُفسد في الأرض على الناس وتؤذيهم. فما يدري المرء أنه يُحسن للناس، فهناك من يسرق ويسجن ويُسيء إلى والديه ويقتل أناسًا، ثم يتصدق بمبلغ طائل لبعض الفقراء، ويرى بهذا أنه يُحسن على الناس إذ إنه يتصدق كما لا يتصدق غيره. أو قد يُقرِّب لله فريضة مثل الزكاة ويرى أنه أتى بعملٍ صالحٍ عظيم، مع أنه لو ترك هذا العمل لعُذِّب عليه، يستعظم عمله. فنيَّته بها عوار والتنفيذ معلول فوق ذلك، فما ظننا بوضعه؟

وليحذر كل مسلم، أن مثل هذه الدعوات (معاملة الناس بالحسنى مع عدم التشديد على حق الله في العبادات) قد كثرت وتُرَوَّج لها، ولكن يُراد بها الباطل. يُراد بها حسن معاملة غير المسلمين إلى حد تقديم لهم التنازلات وكأننا صاغرون لانتمائنا إلى الإسلام، أو كأننا في موضع اتَّهام فنحتاج إلى إثبات حُسن النية والمعاملة، في حين يتم التقليل من شأن عبادات مثل الصلوات في المسجد وتجنب معصية الله. وأخفى غاية وذروة الأهداف من وراء هذه الدعوات، هو بالأخص إحباط المسلمين عن جهاد أعداء الإسلام، سواء بمدافعتهم عن أراضينا أو التصدي لتطاولهم على الشريعة الإسلامية.

وقول المرء لنفسه (أو زعم الناس) أن من حَسُنَت نيته وأخلاقه، مع تقصيره في العبادات المفروضة، فلا يزال سالمًا، أو ربما أفضل ممن التزم بالعبادات ولكن عنده عيوب في أخلاقه، ما هو إلا تبرير من هوى النفس على التقصير في الدين وعدم الالتزام به. وذلك لأنه يُوهم نفسه أنه على الصواب أكثر وأفضل من غيره، وهذا فيه تفريط وتضييع لحقيقة أصول الشريعة، وعكس للقواعد إذ نبأنا سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) "قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: مَنْ أَذَلَّ لِي وَلِيًّا فَقَدْ اسْتَحَلَّ مُحَارَبَتِي، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِمِثْلِ أَدَاءِ الْفَرَائِضِ، وَمَا يَزَالُ الْعَبْدُ يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، إِنْ سَأَلَنِي أَعْطَيْتُهُ، وَإِنْ دَعَانِي أَجَبْتُهُ. مَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ وَفَاتِهِ لِأَنَّهُ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَكْرَهُ

[1] سنن الترمذي 3298.

مَسَاءَتَهُ"[1]. ما فرضه الله علينا من عقائد وأفعال هي أكفأ وسيلة للتقرب إليه، وهذه قاعدة وضعها الله فليس فيها مجال للنقاش أو التأويل أو غير ذلك.

ودليل آخر على بطلان ذلك الفكر هو أن الكافر المُحسن للناس لا يزال يدخل النار، ولكن المسلم سيئ الخلق يدخل الجنة بعد فترة عقوبة يقضيها في النار على ما كان منه. هذا لأن المعيار الأساسي في التقييم الذي حدده الله هو أن يكون بمدى إيمان العبد وعلاقته مع الله، وليس المعيار الأساسي معاملة المرء للناس، بالرغم من أهمية تلك النقطة وتأثيرها في مصير المرء أيضًا.

ومع أن سوء الأخلاق شيء ذميم وليس بالهين، فإنه لا يُبطل إيمان المرء عادةً، وإنما يُضعف إيمانه وأجره يوم القيامة حتى يقضي ما عليه للناس. فهذا كله لا يعني، أنه كما قد يقال، إن المرء الذي يُحسن للناس ولا يُحافظ على الصلوات المفروضة في المسجد أفضل ممن يُحافظ على الصلوات في جماعة المسجد ولكنه فظ في التعامل. وقد رد الله على ذلك التوجه الفكري في موقف مشابه {أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللهِ لاَ يَسْتَوُونَ عِندَ اللهِ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} [التوبة 19].

ولا يزال هناك من يدّعي ذلك، بالرغم من أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) قد استبشر بالخير لمن هو أسوأ ممن كان سيئ الخلق مع الناس عندما كان مجتهدًا في صلاته. ذلك في الحديث الذي رواه سيدنا أَبِي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) قَائِلًا: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: إِنَّ فُلانا يُصَلِّي بِاللَّيْلِ فَإِذَا أَصْبَحَ سَرَقَ، قَالَ "إِنَّهُ سَيَنْهَاهُ مَا يَقُولُ"[2]. فذلك الزعم من الناس فيه استبدال لقوانين الله وتحريف في تسلسل مقاصد الإسلام، ويفتح باب الذرائع والفتن عن طريق الهوى. وهذا بدوره يؤدي إلى الهلاك وضياع الإسلام عندما يُقدَّم الأصغر على الأكبر في الفرائض، ويُحفَّذ إهمال الواجب لتحصيل وإتمام الفضائل.

وهذا مآل مَن ترك هواه يتحكم فيه حتى لا يرى الحق، أو أنه يراه ولكن لا يعترف به، وبدلًا من ذلك يُقر بالباطل تشبهًا بفعل من قال عنهم الله {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَؤُلاء أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ سَبِيلًا} [النساء 51]. ويفعل المرء ذلك لغاية في نفسه مثل تَرَخُّص لارتكاب المعاصي، أو حسد ممن هو أفضل منه، أو مكر بالتقي لفتنته حتى يصبح مثل المُقصر، فيكونان في نظرته الشخصية متساويين في المنزلة أو حتى يرى أن التقيَّ أدنى منه. وهذا شبيه بالذين قال عنهم الله {وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَاء فَلاَ تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَاء حَتَّىَ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتَّمُوهُمْ وَلاَ تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا} [النساء 89].

---

[1] مسند أحمد 24997.

[2] مسند أحمد 9402.

ثم في مقابل ذلك كله، هل تفكّر المرء بالعكس؟ أي أنه لو رأى من دونه بكثير في العمل يلحق به في الجزاء فكيف سيكون شعوره؟ وهذه السلسلة من الأفكار تطرحها آيات مثل {أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاء اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ} [الزمر 9]، {أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ} [ص 28]. والجمع بين وجهتين نظر للمعنيين بالقضية، بين منطلق الأمل في الارتقاء مع تقصيره وبين منطلق المجتهد، يؤدي إلى خلاصة واحدة. هذه الخلاصة هي أن الأساس هو أنه لا يتساوى من اجتهد قليلًا ومن اجتهد كثيرًا في الجزاء في شتى مراحل الحياة البرزخية، لأن غير ذلك لن يكون عدلًا، بل يكون ظلمًا لمن اجتهد كثيرًا.

لكن لله أن يفعل ما يشاء، بأن يستثني من تلك القاعدة من يرى فيه تميُزًا ليس في غيره. والراجح أن ذلك التميز يكون في القلب في أغلب الأحوال، وقد يكون في عملٍ. فبعض الحالات تأخذ أكثر مما قدمت بأضعاف هائلة، فتُحصِّل مراتب من هم أعلى منهم عملًا. إذا تأملنا في حديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عن مُضاعّفة الله للحسنات، نجد أنفسنا نتساءل: لماذا هناك تفاوت شاسع في المكافأة من عشرة أضعاف إلى سبع مائة ضعف؟!

والتفكر يؤدي إلى استنتاج واحد، هو أن الله يُجازي الأعمال بالأضعاف لمن يُحبه، كأن يرى في قلب عبدٍ صفاءً أو رُقيًّا في الإيمان، أو طيبة النيات في العمل بأن يكون بصدق وإخلاص مع الله. وهناك أيضًا من يصفو قلبه من الحقد لإخوانه، أو الذي يُحب لإخوانه الخير ولو لم ينل منه هو نفسه، أو الذي يرحم مخلوقات الله، أو يعفو عمَّن ظلمه ولا يُكمِن في صدره الشحناء تجاه أحد، أو يُيسر على المَدِين المُتعسر. وكذلك الذي يرتقي بإيمانه، مثل الذي يتجنب المال الحرام وهو في حاجة ماسة إليه مستيقنًا أن الله سيرزقه من الحلال عاجلًا أم آجلًا. ومنهم من تسمَى نياته ويرتقي في اجتهاده، مثل الذي يُقبل على عملٍ صالحٍ يستثقله جدًّا أو يتجنب معصية يعشقها، ولم يكن ليفعل هذا إلا لأن الله أوصى به أو أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) قد حثّ عليه.

ومن الأمثلة البارزة في هذا الشأن قصةٌ يرويها لنا سيدنا أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ (رضي الله عنه) قَائلًا: كُنَّا جُلُوسًا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ "يَطْلُعُ عَلَيْكُمْ الآنَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ"، فَطَلَعَ رَجُلٌ مِنْ الأَنْصَارِ تَنْطِفُ لِحْيَتُهُ مِنْ وُضُوئِهِ قَدْ تَعَلَّقَ نَعْلَيْهِ فِي يَدِهِ الشِّمَالِ، فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِثْلَ ذَلِكَ فَطَلَعَ ذَلِكَ الرَّجُلُ مِثْلَ الْمَرَّةِ الأُولَى. فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمُ الثَّالِثُ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِثْلَ مَقَالَتِهِ أَيْضًا فَطَلَعَ ذَلِكَ الرَّجُلُ عَلَى مِثْلِ حَالِهِ الأُولَى، فَلَمَّا قَامَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَبِعَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ فَقَالَ: إِنِّي لاحَيْتُ أَبِي فَأَقْسَمْتُ أَنْ لا أَدْخُلَ عَلَيْهِ ثَلاثًا، فَإِنْ رَأَيْتَ أَنْ تُؤْوِيَنِي إِلَيْكَ حَتَّى تَمْضِيَ فَعَلْتَ، قَالَ: نَعَمْ. قَالَ أَنَسٌ: وَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ يُحَدِّثُ أَنَّهُ بَاتَ مَعَهُ تِلْكَ اللَّيَالِي الثَّلاثَ فَلَمْ يَرَهُ يَقُومُ مِنْ اللَّيْلِ شَيْئًا، غَيْرَ أَنَّهُ إِذَا تَعَارَّ وَتَقَلَّبَ عَلَى فِرَاشِهِ ذَكَرَ

اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ وَكَبَّرَ حَتَّى يَقُومَ لِصَلاةِ الْفَجْرِ. قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: غَيْرَ أَنِّي لَمْ أَسْمَعْهُ يَقُولُ إِلا خَيْرًا، فَلَمَّا مَضَتْ الثَّلاثُ لَيَالٍ وَكِدْتُ أَنْ أَحْتَقِرَ عَمَلَهُ قُلْتُ: يَا عَبْدَ اللَّهِ، إِنِّي لَمْ يَكُنْ بَيْنِي وَبَيْنَ أَبِي غَضَبٌ وَلا هَجْرٌ ثَمَّ، وَلَكِنْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ لَكَ ثَلاثَ مِرَارٍ "يَطْلُعُ عَلَيْكُمْ الآنَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ"، فَطَلَعْتَ أَنْتَ الثَّلاثَ مِرَارٍ، فَأَرَدْتُ أَنْ آوِيَ إِلَيْكَ لأَنْظُرَ مَا عَمَلُكَ فَأَقْتَدِيَ بِهِ، فَلَمْ أَرَكَ تَعْمَلُ كَثِيرَ عَمَلٍ، فَمَا الَّذِي بَلَغَ بِكَ مَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فَقَالَ: مَا هُوَ إِلا مَا رَأَيْتَ. قَالَ: فَلَمَّا وَلَّيْتُ دَعَانِي فَقَالَ: مَا هُوَ إِلا مَا رَأَيْتَ، غَيْرَ أَنِّي لا أَجِدُ فِي نَفْسِي لأَحَدٍ مِنْ الْمُسْلِمِينَ غِشًّا وَلا أَحْسُدُ أَحَدًا عَلَى خَيْرٍ أَعْطَاهُ اللَّهُ إِيَّاهُ. فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: هَذِهِ الَّتِي بَلَغَتْ بِكَ وَهِيَ الَّتِي لا نُطِيقُ[1] (تَنْطِفُ أي تقطر؛ لاحَيْتُ أي خاصمه؛ تَعَارَّ أي استيقظ من نومه).

وهذه الواقعة، بالرغم من أنها قد تكون ذريعة للفكر الذي نتداوله في هذا الباب، فإنها تدل على عكس هذا: أن العبد بنقاء قلبه قد يبلغ الآفاق في التشريف والتكريم؛ أما من تعمد التقصير في العمل، بل ويبحث عن مُبرر لارتكاب المعاصي، فهذا لا يملك قلبًا نقيًّا.

ومثالٌ آخر على حالة كان العمل الصادر من العبد طيبًا وثقيلًا عند الله، لدرجة أن تلك اللفتة تُغير منزلة العبد عند الله جذريًّا، هو ما جاء في المرأة الزانية التي غُفر لها بسبب رحمتها ورأفتها على كلبٍ عطشانٍ. وذلك ما رواه لنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "بَيْنَمَا كَلْبٌ يُطِيفُ بِرَكِيَّةٍ قَدْ كَادَ يَقْتُلُهُ الْعَطَشُ إِذْ رَأَتْهُ بَغِيٌّ مِنْ بَغَايَا بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَنَزَعَتْ مُوقَهَا فَاسْتَقَتْ لَهُ بِهِ فَسَقَتْهُ إِيَّاهُ فَغُفِرَ لَهَا بِهِ" (يُطِيفُ أي يحوم؛ بِرَكِيَّةٍ أي بئرٍ؛ بَغِيٌّ هي الزانية؛ مُوقَهَا هو الخُفّ)[2].

وخلاصةً، لنفرض أن كل ما سبق قوله مما على القائل غير مُقنع له، فلنتساءل، كيف نتحايل على ما هو قطعي في أفضلية أعمال بعينها (دون الإشارة إلى درجة إيمان القلب)، مثل ما في قول رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "مَنْ قَالَ حِينَ يُصْبِحُ وَحِينَ يُمْسِي 'سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ' مِائَةَ مَرَّةٍ، لَمْ يَأْتِ أَحَدٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِأَفْضَلَ مِمَّا جَاءَ بِهِ إِلا أَحَدٌ قَالَ مِثْلَ مَا قَالَ أَوْ زَادَ عَلَيْهِ"[3]؟ فإننا لا ندري، لعل الله يرى في ذاك المرء إيمانًا بالغًا لدرجة أن الله يُوفِّقه في الثبات على ذلك العمل. ذلك لأن الله يسوق المرء إلى الارتقاء مكافأةً له، إذا أُعجب بما في قلب عبده. فالثبات على ذلك العمل يكون مؤشرًا على قوة إيمان المرء، فهل أنا وأنت مواظبان عليه؟!

وهناك حديث، ضعيف الإسناد، يشير إلى هذه الصلة، وهي أن الله يُعين العبد في الارتقاء في المنازل بحسب تعظيم العبد لربه في قلبه. هذا في قوله (صلى الله عليه وسلم) "مَن كان يحبُّ أن

---

[1] مسند أحمد 12236.

[2] صحيح مسلم 4164.

[3] صحيح مسلم 4854.

يعلَمَ منزلتَهُ عندَ اللَّهِ، فلينظُرْ كيفَ منزلةُ اللَّهِ عندَهُ، فإنَّ اللَّهَ تعالى يُنزِلُ العبدَ منهُ حيثُ أنزلَهُ مِن نَفسِهِ"[1].

للتنبيه، مع أن ذلك قد يحدث فعلًا، أن رجلًا أقل عملًا قد يأخذ أجرًا أفضل من آخر عمل عملًا صالحًا كثيرًا، ولكنّ هناك شروطًا لحدوث ذلك. فمنها أنه يكون منكسرًا لتقصيره وكثير اللوم لنفسه (فإن الله يُحب النفس اللوامة). إضافة إلى ذلك أنه يجب أن يكون متجنبًا لظلم الناس لأن الله يُبغض مَن يَظلم عباده، بل ينبغي أن يكون قلبه طيبًا وصافيًا تجاه إخوانه المسلمين، فلا يكمن لأحدٍ الضغينة أو الغل أو الحسد. قد أثنى الرسول (صلى الله عليه وسلم) على مثل هذا عندما سُئل: أَيُّ النَّاسِ أَفْضَلُ؟ قال "كُلُّ مَخْمُومِ الْقَلْبِ صَدُوقِ اللِّسَانِ"، قَالُوا: صَدُوقُ اللِّسَانِ نَعْرِفُهُ، فَمَا مَخْمُومُ الْقَلْبِ؟ قال "هُوَ التَّقِيُّ، النَّقِيُّ لَا إِثْمَ فِيهِ، وَلَا بَغْيَ، وَلَا غِلَّ، وَلَا حَسَدَ"[2]. وبالتأكيد هناك شروط أخرى قد عجزت عن إدراكها وذكرها ههنا، فالأسلم هو الحيطة بعدم سلك هذا المنهج الفكري.

للتوضيح أخيرًا، إنما مثل السالك لهذا الفكر مع ربه كمثل أحدنا عنده خادمان، أحدهما يطيع دون مجادلة ولا تأخير، بل ويبحث عن ما الذي يَسُرّ رئيسه فيفعله من قبل أن يُطلب منه، والآخر يسمع الأوامر ولكن يفعل ما يراه مناسبًا لنفسه بدلًا من الطاعة، أو حتى يتجاهل رئيسه، ويسرح فلا يجده رئيسه في كثير من الأوقات. الأول يُريح رئيسه والثاني يُتعبه، فأيهما أقرب إلى قلب رئيسه وأرجح في أن ينال المكافآت؟

وهذا المثل شبيه بالمثل الذي ضربه الله لنا في القرآن {وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [النحل 76]. فإنما مثل الشخص المُتكاسل أو العاصي لربه كمثل الخادم المتمرد على رئيسه ويقول إنه يُحب رئيسه، فأيُّنا يرى أن مثل ذلك الخادم يكون أحبّ إليه؟ كيف يتوقع المُقصِّر مع الله أن يكون قريبًا إلى الله مثل المطيع لربه المتلهف على إفراحه؟

أستطيع أن أوازن الأمور، بالمواظبة على الأعمال الصالحة مع ارتكابي المعصية

في هذا التسويل خبث شديد من الشيطان، ولنذكر ما هو بديهي: أن العبد يحتاج لعون الله ليعمل العمل الصالح. وهذا يتعارض مع كون العبد على المعاصي، إذ معلومٌ أن عون الله يكون لمن يُحبه الله، فكيف يعين اللهُ من يعصيه؟ والحقيقة أنه قد يتخيل المرء أنه يستطيع أن يداوم على

[1] السلسلة الضعيفة للألباني 6205.

[2] سنن ابن ماجه 4206.

الأعمال الصالحة وفي نفس الوقت يكون له معاصٍ يرتكبها باعتياد، ولكن واقع الأمر أن هذا يتعارض مع سُنة الله في الأرض.

هناك أدلة من القرآن على أن العون يكون لمن يتقي الله، مثل الآية {وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَن يَشَاء اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ} [المدثر 56]. فليس من المنطقي أن الله يعين العاصي على ذكره لينال الثواب، بل إن الله قد يَحرم العاصي ثواب ذكر الله (ولو جُزئيًّا) إذا نوى العاصي على الذكر، عقابًا له، فإن ذِكر الله منزلة رفيعة قد يمنعها الله ممن عصاه. وقد قال ابن الجوزي (رحمه الله): قال الحكماء: المعصية بعد المعصية عقاب المعصية، والحسنة بعد الحسنة ثواب الحسنة (انتهى)؛ فلا شك أن ما استنتجوه هذا ناتج عما فقهوه من النصوص ومما شاهدوه من واقع.

ويجب أن يستيقن المرء أن كلام الله سيتحقق لا محالة، عاجلًا أم آجلًا، ومن ذلك أن الله يقول إن المعصية والعمل الصالح يتعارضان. فلا يُمكن أن يتوافقا في نفسٍ واحدة بكثرة، ولكن يغلب إحداهما على الأُخرى في النهاية، ولو بعد أن يهرم المرء. وهذا ما يشمله قول الله تعالى على لسان الرسول (صلى الله عليه وسلم) في الحديث "تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا، فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ، حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ: عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا فَلا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتْ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ، وَالآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًّا كَالْكُوزِ مُجَخِّيًا لا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا وَلا يُنْكِرُ مُنْكَرًا إِلا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ"[1]، وهذا فيه دلالة على أن أحد الأمرين يغلب على الآخر.

فالمرء المقتنع بهذا الفِكر، والمُطبّق له، يميل إلى جهة من الجهتين في نهاية المطاف، بحسب ما يصير إليه قلبه. قد صنَّف ابن القيم (رحمه الله) أحوال القلب من الإيمان إلى ثلاثة أقسام: قلب صحيح، وقلب ميت، وقلب سقيم. قال عن القلب الصحيح (أي السليم): هو الذي سلِم من أن يكون لغير الله فيه شرك بوجه ما، بل قد خلصت عبوديته لله تعالى: إرادةً، ومحبةً، وتوكلًا، وإنابةً، وإخباتا، وخشيةً، ورجاءً، وخلُص عمله لله، فإن أحب أحب في الله، وإن أبغض أبغض في الله، وان أعطى أعطى لله، وإن منع منع لله.

وقال عن القلب الميت: الذي لا حياة به، فهو لا يعرف ربه، ولا يعبده بأمره وما يحبه ويرضاه، بل هو واقف مع شهواته ولذّاته، ولو كان فيها سخط ربه وغضبه، فهو لا يبالي –إذا فاز بشهوته وحظه– رضي ربه أم سخط، فهو متعبد لغير الله: حبًّا، وخوفًا، ورجاءً، ورضا، وسخطًا، وتعظيمًا، وذلًّا، إن أحب أحب لهواه، وإن أبغض أبغض لهواه، وإن أعطى أعطى لهواه، وإن منع منع لهواه، فهواه آثر عنده وأحب إليه من رضا مولاه؛ فالهوى إمامه، والشهوة قائده، والجهل سائقه،

[1] صحيح مسلم 207.

والغفلة مركبه، فهو بالفكر في تحصيل أغراضه الدنيوية مغمور، وبسكرة الهوى وحب العاجلة مخمور، ينادَى إلى الله وإلى الدار الآخرة من مكان بعيد، فلا يستجيب للناصح ويتبع كل شيطان مريد؛ الدنيا تسخطه وترضيه، والهوى يصمّه عما سوى الباطل ويعميه.

ثم قال عن القلب السقيم: قلب له حياة وبه علة؛ فله مادتان، تَمُدَّه هذه مرة، وهذه أخرى، وهو لما غلب عليه منهما. ففيه من محبة الله تعالى والإيمان به والإخلاص له والتوكل عليه: ما هو مادة حياته؛ وفيه من محبة الشهوات، وإيثارها، والحرص على تحصيلها، والحسد، والكبر، والعجب، وحب العلو في الأرض بالرياسة: ما هو مادة هلاكه وعطبه. وهو ممتحنٌ بين داعيين: داع يدعوه إلى الله ورسوله والدار الآخرة، وداع يدعوه إلى العاجلة، وهو إنما يجيب أقربهما منه بابًا، وأدناهما إليه جوارًا.

وأَجمَل قائلًا: فالقلب الصحيح السليم: ليس بينه وبين قبول الحق ومحبته وإيثاره سوى إدراكه، فهو صحيح الإدراك للحق، تام الانقياد والقبول له. والقلب الميت القاسي: لا يقبله [أي الحق] ولا ينقاد له. والقلب المريض: إن غلب عليه مرضه التحق بالميت القاسي، وإن غلبت عليه صحته التحق بالسليم.

ثم أتبع قائلًا: والفِتن التي تُعرض على القلوب هي أسباب مرضها، وهي فتن الشهوات وفتن الشبهات، وفتن الغي والضلال، وفتن المعاصي والبدع، وفتن الظلم والجهل؛ فالأُولى [أي من كل مجموعة: الشهوات والغي والمعاصي والظُلم] توجب فساد القصد والإرادة، والثانية توجب فساد العلم والاعتقاد. وقد قسَّم الصحابة رضي الله تعالى عنهم القلوب إلى أربعة، كما صح عن حذيفة بن اليمان قوله: القلوب أربعة: قلب أجرد [اي متجرد مما سوى الله ورسوله]، فيه سراج يزهر، فذلك قلب المؤمن. وقلب أغلف، فذلك قلب الكافر. وقلب منكوس، فذلك قلب المنافق، عَرِف ثم أنكر، وأبصر ثم عمي. وقلب تمده مادتان: مادة إيمان، ومادة نفاق؛ وهو لما غلب عليه منهما[1] (انتهى).

والمشكلة تكمن في أن المرء قد يمر بفترات يستطيع أن يداوم على الطاعات والمعاصي، خصوصًا في فترة المراهقة مثلًا، حين تكون طاقته مُشِعّة والجسد يافعًا، فيغتر ويرى أن موازنتهما معًا أمر مُمكن. لكن، المداومة على المعاصي يد بيد مع الأعمال الصالحة حربٌ يخوضها المرء، ولا يلبث زمنًا حتى يُجهَد المرء ويستنزفه التوفيق بينهما، في حين يضعف جسده الذي يبلى مع الزمن، مع نفاد صبره على ذلك الوضع الذي يُسبب التوتر والذي وضع نفسه فيه، فتتأثر نفسيته أيضًا.

آنذاك يُفرَض على المرء اختيار أحد الطريقين ويتحقق أمر الله، فإما أن تغلب المعاصي على الأعمال الصالحة، أو العكس إذا قرر وعزم العبد بصدقٍ على تقديم أمر الله على آرائه وشهواته. وهذا

---

[1] إغاثة اللهفان لابن القيم 10-17.

يكون بأخذ خطوات وبذل جهد لإصلاح نفسه، مع تقديم التضحيات بالتخلي عما لا يُرضي الله مما يعشقه القلب. وهذا أمرٌ صعب فعله، فكم من امرئ اختار الطريق الأسهل عن الطريق الشاق، اختار المعصية بدلًا من الطاعة، لأنه تعَوَّد على المعصية وتشابكت بقلبه، وهو طريق اللا مبالاة والأقل جُهدًا وأكثر متعةً. ولينظر المرء إلى حال أغلب الناس ليعرف الكَفَّة الراجحة والتي يذهب إليها الناس. فالحل الأفضل هو ترك المعصية مبكرًا.

وما يُدرينا، لعل الله يرفق على المراهق بألا يمنعه عن العمل الصالح بالرغم من وقوعه في المعصية بما لا يرأف بمثله عليه عند الكبَر، وذلك رحمة ورأفة من الله بالعبد نظرًا لقلة خبرته (وربما قلة علمه أيضًا) في أثناء نشأته، فيصبر الله عليه حتى يرشد ويُقلع عن الذنوب. وعلى الوجه الآخر، قد يكون مكر استدراج من الله، أو كيدٌ من الشيطان، إلى أن ينخدع المرء في أنه تمكن من التوفيق بين الطاعة والمعصية، ثم يُقلع عن الطاعة تدريجيًّا وهو لا يشعر، فلا تبقى إلا معاصيه هي التي يُداوم عليها.

قد روى لنا سيدنا عثمان بن عفان واقعة تتطرق شيئًا ما إلى ما نتكلم عنه، ثم أتبعها بنصيحة هي في صميم هذا الفصل. قال رضي الله عنه: اجْتَنِبُوا الْخَمْرَ، فَإِنَّهَا أُمُّ الْخَبَائِثِ. إِنَّهُ كَانَ رَجُلٌ مِمَّنْ خَلَا قَبْلَكُمْ تَعَبَّدَ، فَعَلِقَتْهُ امْرَأَةٌ غَوِيَّةٌ فَأَرْسَلَتْ إِلَيْهِ جَارِيَتَهَا فَقَالَتْ لَهُ: إِنَّا نَدْعُوكَ لِلشَّهَادَةِ. فَانْطَلَقَ مَعَ جَارِيَتِهَا، فَطَفِقَتْ كُلَّمَا دَخَلَ بَابًا أَغْلَقَتْهُ دُونَهُ، حَتَّى أَفْضَى إِلَى امْرَأَةٍ وَضِيئَةٍ عِنْدَهَا غُلَامٌ وَبَاطِيَةُ خَمْرٍ، فَقَالَتْ: إِنِّي وَاللَّهِ مَا دَعَوْتُكَ لِلشَّهَادَةِ وَلَكِنْ دَعَوْتُكَ لِتَقَعَ عَلَيَّ أَوْ تَشْرَبَ مِنْ هَذِهِ الْخَمْرَةِ كَأْسًا أَوْ تَقْتُلَ هَذَا الْغُلَامَ. قَالَ: فَاسْقِينِي مِنْ هَذَا الْخَمْرِ كَأْسًا؛ فَسَقَتْهُ كَأْسًا. قَالَ: زِيدُونِي؛ فَلَمْ يَرِمْ حَتَّى وَقَعَ عَلَيْهَا وَقَتَلَ النَّفْسَ. فَاجْتَنِبُوا الْخَمْرَ، فَإِنَّهَا وَاللَّهِ لَا يَجْتَمِعُ الْإِيمَانُ وَإِدْمَانُ الْخَمْرِ إِلَّا لَيُوشِكُ أَنْ يُخْرِجَ أَحَدُهُمَا صَاحِبَهُ[1] (فَعَلِقَتْهُ أي عشقته؛ وَضِيئَةٍ أي جميلة؛ وَبَاطِيَةُ أي إناء؛ لِتَقَعَ عَلَيَّ أي ليزني بها؛ فَلَمْ يَرِمْ أي لم يبرح). فهذه النصيحة 'لَا يَجْتَمِعُ الْإِيمَانُ وَإِدْمَانُ الْخَمْرِ إِلَّا لَيُوشِكُ أَنْ يُخْرِجَ أَحَدُهُمَا صَاحِبَهُ' فيها مبدأ عام نستطيع أن نستخرج به أمثلة أخرى، مثل أن الكذب والأمانة لا يجتمعان في امرئٍ، وأن المعاصي والأعمال الصالحة يوشك أن يُخرج أحدهما الآخر من المرء.

جدير بالذكر هنا حول قضية شرب الخمر هو أن الخمر هو مدخل لمعاصٍ كثيرة، وهذا كما وعظ رسول الله (صلى الله عليه وسلم) سيدنا أبو الدرداء (رضي الله عنه) بقوله "لَا تَشْرَبْ الْخَمْرَ، فَإِنَّهَا مِفْتَاحُ كُلِّ شَرٍّ"[2]. ذاك أن شاربها يذهب عقله فقد يفعل أمورًا لا يتخيل أنه يفعلها أبدًا، كما في الواقعة المذكورة. ومنها أنه قد يُهين نفسه، أو يزني، أو يتعدى على أقاربه أو أصحابه، وعلى هذا أمثلة كثيرة. ولكن من أخطرها هو أنه يُضيع الصلاة، بل وقد يُشرك بالله إما قولًا وإما عملًا، فإن هناك

[1] سنن النسائي 5572.

[2] سنن ابن ماجه 3362.

من الفقهاء من يرى أن شرب الخمر عدل للشرك بالله (منهم سيدنا ابن عباس رضي الله عنه) لأنها كثيرًا ما تفيض بالعبد إلى الشرك، إذ إن شارب الخمر يأتي عليه أوقات لا يعرف الله، ويغرق في اتباع هواه.

نقطة أخرى ينبغي ذكرها هي أنه حتى إن استطاع المرء أن يواظب على العمل الصالح بجانب معاصيه، فإنه لا ينتفع بالعمل الصالح تمام الانتفاع. للتوضيح، إن العمل الصالح ليس فائدته الوحيدة هي الأجر من الله، فتلك نظرة قاصرة للأعمال الصالحة، ولكن الأعمال الصالحة قد حث عليها الله في الأساس لأنها تعود على العباد بالنفع، إما على أبدانهم وإما على قلوبهم وإما على كليهما. وذلك النفع لا يستفيد منه المرء كاملًا إن كان عاصيًا لله، وقدر الفوائد التي تبلغه من العمل الصالح تتقلص كلما كانت معاصيه أكثر أو أقبح.

فمثلًا، إن كان هناك عبدان يقرءان نفس الورد اليومي من القرآن، ولكن العبد الثاني يُكثر من المعاصي، فإن الأول يستوعب ويخشع ويشعر بقوة كلام الله تعالى أكثر من الثاني. إنه يكون أكثر تأثرا وبكاءً مع قراءة القرآن، ويستفيد من المواعظ التي فيه أكثر، ويتمتع بالقراءة أكثر من العاصي الذي يكون همَّه هو الانتهاء من القراءة. هذا يحدث لسببين، أولهما هو أن الله يفتح بالبركة على عبده التقي في قراءة القرآن، وثانيهما هو أن قلب العبد الأول يكون صافيًا ومفتوحًا أكثر لكتاب الله، فيبلغ كتاب الله معه ما لا يبلغه مع العاصي. قد قال تعالى {اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاء وَمَن يُضْلِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ} [الزمر 22–23]، ومن البديهي أن الذين يخشون ربهم وعقابه لا يُصِرّون على عصيان الله.

ثم ينبغي وضع في الاعتبار أن العمل الصالح يمحو المعصية {وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ} [هود 114]، وأن المعاصي قد تُبطل العمل الصالح {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُبْطِلُواْ صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأذَى} [البقرة 264، جزء من الآية]. فما المنطق من المداومة على الطاعة والمعصية جنبًا إلى جنب وهما يلغيان بعضهما.

ولعل من أخفى الأمثلة على هذا هو ما يقوله العلماء في المعازف، إنها تُبعد المرء عن القرآن (سواءً قراءة أم تدبرًا أم حفظًا)، ولكنّ كثيرًا من الناس لا يقتنعون بهذا. ولكن إذا راقبوا حالهم وحكموا على وضعهم بإنصاف سيجدون أن ذلك ما يحدث معهم. فأؤكد مرة أخرى، إن أمر الله نافذ لا محالة، وكلامه يتحقق دون شك ولو بعد إمهالٍ. وليس هناك جدوى في تجربة أو تحدي كلامه للتيقن، لأنه في آخر المطاف ستجده قد تحقق، والحقيقة هنا هي {اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا} [فاطر 43].

وختامًا لهذا الباب، أذكر حديثًا لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) تداول هذه القضية تحديدًا، قضية مزج المرء بين العمل الصالح والعمل السيئ. وفي الحديث يتبين أن الأمر آل إلى أفضل ما كان يتمناه المرء، وهو أن عمله المُفسد لم يُبطل عمله الصالح، وأن الله قد عفا عنه! ولكن قد يتساءل المرء: أين العِلَّة إذًا؟

يروي لنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أنه أتاه ملكان في رؤيا حدث فيها هذا "فَانْطَلَقْنَا فَانْتَهَيْنَا إِلَى رَوْضَةٍ عَظِيمَةٍ لَمْ أَرَ رَوْضَةً قَطُّ أَعْظَمَ مِنْهَا وَلَا أَحْسَنَ، قَالَا لِي: ارْقَ فِيهَا؛ فَارْتَقَيْنَا فِيهَا فَانْتَهَيْنَا إِلَى مَدِينَةٍ مَبْنِيَّةٍ بِلَبِنِ ذَهَبٍ وَلَبِنِ فِضَّةٍ، فَأَتَيْنَا بَابَ الْمَدِينَةِ فَاسْتَفْتَحْنَا فَفُتِحَ لَنَا، فَدَخَلْنَاهَا فَتَلَقَّانَا فِيهَا رِجَالٌ شَطْرٌ مِنْ خَلْقِهِمْ كَأَحْسَنِ مَا أَنْتَ رَاءٍ وَشَطْرٌ كَأَقْبَحِ مَا أَنْتَ رَاءٍ، قَالَا لَهُمْ: اذْهَبُوا فَقَعُوا فِي ذَلِكَ النَّهَرِ؛ وَإِذَا نَهَرٌ مُعْتَرِضٌ يَجْرِي كَأَنَّ مَاءَهُ الْمَحْضُ فِي الْبَيَاضِ، فَذَهَبُوا فَوَقَعُوا فِيهِ، ثُمَّ رَجَعُوا إِلَيْنَا قَدْ ذَهَبَ ذَلِكَ السُّوءُ عَنْهُمْ فَصَارُوا فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ"، وفي آواخر الواقعة نبأه الملَكَين عن هؤلاء قائلين له "وَأَمَّا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَانُوا شَطْرٌ مِنْهُمْ حَسَنًا وَشَطْرٌ قَبِيحًا فَإِنَّهُمْ قَوْمٌ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا، تَجَاوَزَ اللَّهُ عَنْهُمْ"[1] (ارْقَ أي اصعد؛ شَطْرٌ أي جانب؛ الْمَحْضُ أي الخالص أو الصافي). قد أعابهم الله بالرغم من أنه عفا عنهم بأن انتقص من هيئتهم، فلا أحد يستطيع أن يتفلت بشيء من الله، ولا أحد ينجو بفعلةٍ لا يريد الله أن يتركها تعبر.

ما دام المُستغفر يُغفر له، لي أن أفعل ما أشتهيه عمدًا ثم أستغفر الله، وأُكرر ذلك

جاء أثر ضعيف عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "مَا أَصَرَّ مَنْ اسْتَغْفَرَ، وَلَوْ فَعَلَهُ فِي الْيَوْمِ سَبْعِينَ مَرَّةً"[2]. وهناك الحديث القدسي عن الرجل الذي يقع في الذنب تكرارًا ويستغفر الله بعد كل مرة، ويغفر الله له "أَذْنَبَ عَبْدٌ ذَنْبًا فَقَالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ. ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ فَقَالَ: أَيْ رَبِّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: عَبْدِي أَذْنَبَ ذَنْبًا فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ. ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ فَقَالَ: أَيْ رَبِّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، اعْمَلْ مَا شِئْتَ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكَ"[3]. فالسؤال البديهي هو: لماذا إذًا لا يُداوم المرء على المعصية بتَعَمُدٍ ولا مبالاة مع مداومة الاستغفار، استنادًا إلى هذه الأحاديث؟

---

[1] صحيح البخاري 6525.

[2] سنن الترمذي 3482، قال الترمذي: قَالَ أَبُو عِيسَى هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ إِنَّمَا نَعْرِفُهُ مِنْ حَدِيثِ أَبِي نُصَيْرَةَ وَلَيْسَ إِسْنَادُهُ بِالْقَوِيِّ.

[3] صحيح مسلم 4953.

هذا في الواقع استغلالٌ وليس استنادًا للأحاديث. المتأمل في المسألة سيرى أن هذا مكرٌ بسعة عفو وكرم الله على العباد، إذ إن نتيجة هذا المنهج الفكري هو الإكثار من العاصي، لأن العبد لا يسعى في مجاهدة المعصية. هنا ينطبق بدقة قول الله تعالى {أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَاء مَا يَحْكُمُونَ} [العنكبوت 4]، فهل يظن الذي يستبيح السيئات أن يتفوق على الله بالدهاء والمكر والاحتيال على عقابه؟ فمن مكر الله أن يُوقِعه في معاصٍ أخرى مع الحيلولة بينه وبين الاستغفار، فعندما يؤاخذه الله على ذنوبه بعد الاستدراج يأخذه أخذ عزيزٍ مقتدر. هؤلاء أوقعهم اللهُ في فخٍ بسبب سوء نياتهم، ويكون حالهم شبيهًا بحال من قال الله فيهم {أَوَلاَ يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لاَ يَتُوبُونَ وَلاَ هُمْ يَذَّكَّرُونَ} [التوبة 126].

هناك فرق بين ارتكاب المعصية عمدًا مع سبق النية (مُصِرّ على ارتكابها ويترقب الفرصة، أو حتى يُخطط لها) وبين ارتكابها عفويًّا أو تلقائيًّا عندما تتعرض للعبد، فالوضع الأول فيه تهاون بعصيان الله وسوء خُلُق في التعامل مع الله. ثم إن التخطيط للإفساد في الأرض (متمثلة في المعصية) هو في الواقع مكرٌ، وهذا أدعى لجلب مكر الله على العبد. وقد يمكر الله بي بعد أن مكرت بهذه الفكرة فيَختم على قلبي، فلا أتوب حتى ألقاه وهو ساخطٌ عليَّ {أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ اللهِ فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ} [الأعراف 99].

من كان عمله يدل على أن العبد بلغ مرحلة الاستخفاف بعفو الله وكرمه وسعة رحمته ورأفته وصبره علينا، دخل في نطاق الماكر. ولا أستطيع أن أُفيدكم بما هو مُتوقَع من مكر الله بالمستهزِء بحدوده، إذ إن مكر الله لا حدود تُقَيِّدَه ولا قعر له ليكون له منتهى، ولا يُعلم ما في نفس الله لنتوقع ما هو بفاعلٍ، في حين يعلم ما في أنفسنا، ولا يوجد قوة تُوقِف بطش الله.

أو بالفعل قد أبلغ ما خططت له، وهو أن أستغفر، ولكن الله لا يقبل استغفاري أو حتى توبتي، لأن قبول الأعمال يرجع إلى الله. قد يُرفَض مثلًا لقلة المبالاة بأن يُغفر لي أم لا، أو لتقصير أو خبثٍ في نية القلب. وخبث النية قد تكون شبيهة بما جاء في قول الله تعالى عن ابنيّ آدم (عليه السلام) {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِن أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ} [المائدة 27]. قد قيل إن الذي رُفضت قُربانه كان بسبب أنه قدَّم لله من أردأ ما كان عنده من أملاك. بل وإن رفَضَ الله قبول التوبة دون سبب فلن يكون ظالمًا، إذ إن العبد يُقدِّم العمل لله فله أن يرفضه، فهو الخالق القادر الملك الذي لا يُسأل عما يفعل في حين يُسائل عباده.

فسيأتي ذاك المستهتر يوم القيامة وعليه أوزاره كما هي ويحاسب عليها لأنها لم تُغفر له، ولا يجد أعماله الصالحة لأن الله قد يكون أبطلها أيضًا! فمَن مَكَرَ الله به فلن ينفعه أحدٌ، ولن يجرؤ

أحدٌ أن يتدخل بالشفاعة حتى ينتهي الله منه حيثما وحينما يشاء. فمن الذي يُسَلِّم أن الله سيُوقف انتقامه عند حدٍّ ما عندما يمكر به؟

فهي موازنة دقيقة بين إدراك رحمة الله وبين استحقاق مكر الله، والفرق فيما يناله العبد يكون بحسب صدق نياته. وليس مقصد الحديث أن هناك رخصة لي بمعصية الله ما دمت أستغفره، إنما مقصده أن يمنع العبد من اليأس من مدى عفو الله، ولم يتطرق الحديث إلى قضية محاولة مجاهدة المعصية، لأن الحديث يتكلم عما بعد المعصية.

إن قبول الله لاستغفار وتوبة العبد لا يستلزم رفع عقوبة الدنيا. هناك لفتة عجيبة وخفية قد لا يدركها الكثير، وهي أنه حتى إن قبل الله توبة العبد، فهذا لا يضمن رفع العقوبة تمامًا على المعصية! لنضرب مثلًا للتوضيح، لنفترض أن رجلًا يقود سيارته وسهى فاصطدم بجدار منزل وأفسده، فاعتذر السائق لصاحب المنزل وندم على خطئه، فصدَّقه صاحب المنزل وقال إنه يعذره ولكن على السائق أن يُصلح الجدار. في هذه الحالة، قد يكون صاحب المنزل عفا وقبل اعتذار السائق، ولكن بالرغم من ذلك أخذ من السائق ثمن إصلاح الحائط؛ عفا ولكن الجزاء لم يزل يُفرض على السائق المُخطئ لمعالجة الأضرار.

لكن خير دليل على هذا الكلام هو ما جاء من القرآن ثم السُنَّة المُطهَّرة. جاء في كتاب الله أن سيدنا آدم (عليه السلام) عندما أكل من الشجرة المُحرَّمة تاب إلى الله بعدها، وتقبل الله توبته، ولكن مع هذا لم يرفع الله العقوبة المحكوم عليهم بها: الهبوط إلى أرض الدنيا. جاء في سورة الأعراف {قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (23) قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ} [الأعراف 23-24]. والدليل على أن الله تقبَّل توبتهم قبل إنزالهم جاء في سورة طه {ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى (122) قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى} [طه 122-123].

وقد جاء في سورة البقرة تفصيل أكثر حول هذه المسألة، أن الله قد حكم عليهم بالنزول من الجنة، ثم تاب سيدنا آدم فتاب الله عليه، ولكن أعاد الله ذكر أنه يجب عليهم النزول من الجنة! قال تعالى {فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (36) فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (37) قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} [البقرة 36-38].

أما ما جاء في السُنَّة من دليل، فهناك واقعة الثلاثة الذين تأخروا عن غزوة تبوك، حتى إذا عاد الرسول (صلى الله عليه وسلم) من الغزوة وجاء الناس الذين قعدوا عن الغزوة يتعذرون للرسول، إلا أن هؤلاء الثلاثة صدقوا مع الله ومع رسوله واعترفوا أن ما لهم من عُذر. فقُبلت توبتهم، إلا أن قبول توبتهم أُعلنت لهم بعد خمسين يومًا. وسواء قَبِلَ الله التوبة من أول يوم أو قَبِلَها بعد مرور خمسين يومًا لا يفرق في صلب قضيتنا: أنهم عانوا قبل مجيء خبر أن الله تاب عليهم.

يروي لنا سيدنا كعب بن مالك (رضي الله عنه): لَمْ أَتَخَلَّفْ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي غَزْوَةٍ غَزَاهَا إِلَّا فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ، غَيْرَ أَنِّي كُنْتُ تَخَلَّفْتُ فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ وَلَمْ يُعَاتِبْ أَحَدًا تَخَلَّفَ عَنْهَا، إِنَّمَا خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُرِيدُ عِيرَ قُرَيْشٍ حَتَّى جَمَعَ اللَّهُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ عَدُوِّهِمْ عَلَى غَيْرِ مِيعَادٍ. وَلَقَدْ شَهِدْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْلَةَ الْعَقَبَةِ حِينَ تَوَاثَقْنَا عَلَى الْإِسْلَامِ، وَمَا أُحِبُّ أَنَّ لِي بِهَا مَشْهَدَ بَدْرٍ وَإِنْ كَانَتْ بَدْرٌ أَذْكَرَ فِي النَّاسِ مِنْهَا، كَانَ مِنْ خَبَرِي أَنِّي لَمْ أَكُنْ قَطُّ أَقْوَى وَلَا أَيْسَرَ حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْهُ فِي تِلْكَ الْغَزَاةِ، وَاللَّهِ مَا اجْتَمَعَتْ عِنْدِي قَبْلَهُ رَاحِلَتَانِ قَطُّ حَتَّى جَمَعْتُهُمَا فِي تِلْكَ الْغَزْوَةِ، وَلَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُرِيدُ غَزْوَةً إِلَّا وَرَّى بِغَيْرِهَا حَتَّى كَانَتْ تِلْكَ الْغَزْوَةُ، غَزَاهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي حَرٍّ شَدِيدٍ وَاسْتَقْبَلَ سَفَرًا بَعِيدًا وَمَفَازًا وَعَدُوًّا كَثِيرًا، فَجَلَّى لِلْمُسْلِمِينَ أَمْرَهُمْ لِيَتَأَهَّبُوا أُهْبَةَ غَزْوِهِمْ فَأَخْبَرَهُمْ بِوَجْهِهِ الَّذِي يُرِيدُ، وَالْمُسْلِمُونَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَثِيرٌ وَلَا يَجْمَعُهُمْ كِتَابٌ حَافِظٌ -يُرِيدُ الدِّيوَانَ-، فَمَا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَتَغَيَّبَ إِلَّا ظَنَّ أَنْ سَيَخْفَى لَهُ مَا لَمْ يَنْزِلْ فِيهِ وَحْيُ اللَّهِ، وَغَزَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تِلْكَ الْغَزْوَةَ حِينَ طَابَتْ الثِّمَارُ وَالظِّلَالُ، وَتَجَهَّزَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْمُسْلِمُونَ مَعَهُ، فَطَفِقْتُ أَغْدُو لِكَيْ أَتَجَهَّزَ مَعَهُمْ فَأَرْجِعُ وَلَمْ أَقْضِ شَيْئًا فَأَقُولُ فِي نَفْسِي: أَنَا قَادِرٌ عَلَيْهِ. فَلَمْ يَزَلْ يَتَمَادَى بِي حَتَّى اشْتَدَّ بِالنَّاسِ الْجِدُّ، فَأَصْبَحَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْمُسْلِمُونَ مَعَهُ وَلَمْ أَقْضِ مِنْ جَهَازِي شَيْئًا، فَقُلْتُ: أَتَجَهَّزُ بَعْدَهُ بِيَوْمٍ أَوْ يَوْمَيْنِ ثُمَّ أَلْحَقُهُمْ. فَغَدَوْتُ بَعْدَ أَنْ فَصَلُوا لِأَتَجَهَّزَ فَرَجَعْتُ وَلَمْ أَقْضِ شَيْئًا، ثُمَّ غَدَوْتُ ثُمَّ رَجَعْتُ وَلَمْ أَقْضِ شَيْئًا، فَلَمْ يَزَلْ بِي حَتَّى أَسْرَعُوا وَتَفَارَطَ الْغَزْوُ، وَهَمَمْتُ أَنْ أَرْتَحِلَ فَأُدْرِكَهُمْ، وَلَيْتَنِي فَعَلْتُ، فَلَمْ يُقَدَّرْ لِي ذَلِكَ. فَكُنْتُ إِذَا خَرَجْتُ فِي النَّاسِ بَعْدَ خُرُوجِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَطُفْتُ فِيهِمْ أَحْزَنَنِي أَنِّي لَا أَرَى إِلَّا رَجُلًا مَغْمُوصًا عَلَيْهِ النِّفَاقُ أَوْ رَجُلًا مِمَّنْ عَذَرَ اللَّهُ مِنْ الضُّعَفَاءِ. وَلَمْ يَذْكُرْنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى بَلَغَ تَبُوكَ، فَقَالَ وَهُوَ جَالِسٌ فِي الْقَوْمِ بِتَبُوكَ "مَا فَعَلَ كَعْبٌ؟" فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي سَلِمَةَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ حَبَسَهُ بُرْدَاهُ وَنَظَرُهُ فِي عِطْفِهِ، فَقَالَ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ: بِئْسَ مَا قُلْتَ، وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا. فَسَكَتَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلَمَّا بَلَغَنِي أَنَّهُ تَوَجَّهَ قَافِلًا حَضَرَنِي هَمِّي وَطَفِقْتُ أَتَذَكَّرُ الْكَذِبَ وَأَقُولُ: بِمَاذَا أَخْرُجُ مِنْ سَخَطِهِ غَدًا؟ وَاسْتَعَنْتُ عَلَى ذَلِكَ بِكُلِّ ذِي رَأْيٍ مِنْ أَهْلِي، فَلَمَّا قِيلَ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ أَظَلَّ قَادِمًا زَاحَ عَنِّي الْبَاطِلُ وَعَرَفْتُ أَنِّي لَنْ أَخْرُجَ مِنْهُ أَبَدًا بِشَيْءٍ فِيهِ كَذِبٌ، فَأَجْمَعْتُ صِدْقَهُ. وَأَصْبَحَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَادِمًا، وَكَانَ إِذَا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ بَدَأَ بِالْمَسْجِدِ فَيَرْكَعُ فِيهِ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ جَلَسَ

لِلنَّاسِ، فَلَمَّا فَعَلَ ذَلِكَ جَاءَهُ الْمُخَلَّفُونَ فَطَفِقُوا يَعْتَذِرُونَ إِلَيْهِ وَيَحْلِفُونَ لَهُ، وَكَانُوا بِضْعَةً وَثَمَانِينَ رَجُلًا، فَقَبِلَ مِنْهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَانِيَتَهُمْ وَبَايَعَهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ، وَوَكَلَ سَرَائِرَهُمْ إِلَى اللَّهِ. فَجِئْتُهُ فَلَمَّا سَلَّمْتُ عَلَيْهِ تَبَسَّمَ تَبَسُّمَ الْمُغْضَبِ ثُمَّ قَالَ "تَعَالَ"، فَجِئْتُ أَمْشِي حَتَّى جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَقَالَ لِي "مَا خَلَّفَكَ، أَلَمْ تَكُنْ قَدْ ابْتَعْتَ ظَهْرَكَ؟" فَقُلْتُ: بَلَى إِنِّي وَاللَّهِ لَوْ جَلَسْتُ عِنْدَ غَيْرِكَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا لَرَأَيْتُ أَنْ سَأَخْرُجُ مِنْ سَخَطِهِ بِعُذْرٍ، وَلَقَدْ أُعْطِيتُ جَدَلًا وَلَكِنِّي وَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُ لَئِنْ حَدَّثْتُكَ الْيَوْمَ حَدِيثَ كَذِبٍ تَرْضَى بِهِ عَنِّي لَيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ يُسْخِطَكَ عَلَيَّ، وَلَئِنْ حَدَّثْتُكَ حَدِيثَ صِدْقٍ تَجِدُ عَلَيَّ فِيهِ إِنِّي لَأَرْجُو فِيهِ عَفْوَ اللَّهِ، لَا وَاللَّهِ مَا كَانَ لِي مِنْ عُذْرٍ، وَاللَّهِ مَا كُنْتُ قَطُّ أَقْوَى وَلَا أَيْسَرَ مِنِّي حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْكَ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "أَمَّا هَذَا فَقَدْ صَدَقَ، فَقُمْ حَتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ فِيكَ"، فَقُمْتُ. وَثَارَ رِجَالٌ مِنْ بَنِي سَلِمَةَ فَاتَّبَعُونِي فَقَالُوا لِي: وَاللَّهِ مَا عَلِمْنَاكَ كُنْتَ أَذْنَبْتَ ذَنْبًا قَبْلَ هَذَا، وَلَقَدْ عَجَزْتَ أَنْ لَا تَكُونَ اعْتَذَرْتَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَا اعْتَذَرَ إِلَيْهِ الْمُتَخَلِّفُونَ، قَدْ كَانَ كَافِيَكَ ذَنْبَكَ اسْتِغْفَارُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَكَ. فَوَاللَّهِ مَا زَالُوا يُؤَنِّبُونِي حَتَّى أَرَدْتُ أَنْ أَرْجِعَ فَأُكَذِّبَ نَفْسِي، ثُمَّ قُلْتُ لَهُمْ: هَلْ لَقِيَ هَذَا مَعِي أَحَدٌ؟ قَالُوا: نَعَمْ، رَجُلَانِ قَالَا مِثْلَ مَا قُلْتَ فَقِيلَ لَهُمَا مِثْلُ مَا قِيلَ لَكَ. فَقُلْتُ: مَنْ هُمَا؟ قَالُوا: مُرَارَةُ بْنُ الرَّبِيعِ الْعَمْرِيُّ وَهِلَالُ بْنُ أُمَيَّةَ الْوَاقِفِيُّ؛ فَذَكَرُوا لِي رَجُلَيْنِ صَالِحَيْنِ قَدْ شَهِدَا بَدْرًا فِيهِمَا أُسْوَةٌ، فَمَضَيْتُ حِينَ ذَكَرُوهُمَا لِي. وَنَهَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمُسْلِمِينَ عَنْ كَلَامِنَا أَيُّهَا الثَّلَاثَةُ مِنْ بَيْنِ مَنْ تَخَلَّفَ عَنْهُ، فَاجْتَنَبَنَا النَّاسُ وَتَغَيَّرُوا لَنَا حَتَّى تَنَكَّرَتْ فِي نَفْسِي الْأَرْضُ، فَمَا هِيَ الَّتِي أَعْرِفُ. فَلَبِثْنَا عَلَى ذَلِكَ خَمْسِينَ لَيْلَةً، فَأَمَّا صَاحِبَايَ فَاسْتَكَانَا وَقَعَدَا فِي بُيُوتِهِمَا يَبْكِيَانِ، وَأَمَّا أَنَا فَكُنْتُ أَشَبَّ الْقَوْمِ وَأَجْلَدَهُمْ [أي أقوى وأشجع الثلاثة] فَكُنْتُ أَخْرُجُ فَأَشْهَدُ الصَّلَاةَ مَعَ الْمُسْلِمِينَ وَأَطُوفُ فِي الْأَسْوَاقِ وَلَا يُكَلِّمُنِي أَحَدٌ، وَآتِي رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأُسَلِّمُ عَلَيْهِ وَهُوَ فِي مَجْلِسِهِ بَعْدَ الصَّلَاةِ فَأَقُولُ فِي نَفْسِي: هَلْ حَرَّكَ شَفَتَيْهِ بِرَدِّ السَّلَامِ عَلَيَّ أَمْ لَا؟ ثُمَّ أُصَلِّي قَرِيبًا مِنْهُ فَأُسَارِقُهُ النَّظَرَ، فَإِذَا أَقْبَلْتُ عَلَى صَلَاتِي أَقْبَلَ إِلَيَّ، وَإِذَا الْتَفَتُّ نَحْوَهُ أَعْرَضَ عَنِّي، حَتَّى إِذَا طَالَ عَلَيَّ ذَلِكَ مِنْ جَفْوَةِ النَّاسِ مَشَيْتُ حَتَّى تَسَوَّرْتُ جِدَارَ حَائِطِ أَبِي قَتَادَةَ –وَهُوَ ابْنُ عَمِّي وَأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ– فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَوَاللَّهِ مَا رَدَّ عَلَيَّ السَّلَامَ، فَقُلْتُ: يَا أَبَا قَتَادَةَ أَنْشُدُكَ بِاللَّهِ هَلْ تَعْلَمُنِي أُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ؟ فَسَكَتَ. فَعُدْتُ لَهُ فَنَشَدْتُهُ، فَسَكَتَ. فَعُدْتُ لَهُ فَنَشَدْتُهُ، فَقَالَ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. فَفَاضَتْ عَيْنَايَ وَتَوَلَّيْتُ حَتَّى تَسَوَّرْتُ الْجِدَارَ، فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي بِسُوقِ الْمَدِينَةِ إِذَا نَبَطِيٌّ مِنْ أَنْبَاطِ أَهْلِ الشَّأْمِ مِمَّنْ قَدِمَ بِالطَّعَامِ يَبِيعُهُ بِالْمَدِينَةِ يَقُولُ: مَنْ يَدُلُّ عَلَى كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ؟ فَطَفِقَ النَّاسُ يُشِيرُونَ لَهُ، حَتَّى إِذَا جَاءَنِي دَفَعَ إِلَيَّ كِتَابًا مِنْ مَلِكِ غَسَّانَ، فَإِذَا فِيهِ: أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِي أَنَّ صَاحِبَكَ [يقصد رسول الله صلى الله عليه وسلم] قَدْ جَفَاكَ، وَلَمْ يَجْعَلْكَ اللَّهُ بِدَارِ هَوَانٍ وَلَا مَضْيَعَةٍ، فَالْحَقْ بِنَا نُوَاسِكَ. فَقُلْتُ لَمَّا قَرَأْتُهَا: وَهَذَا أَيْضًا مِنْ الْبَلَاءِ! فَتَيَمَّمْتُ بِهَا التَّنُّورَ [أي الفُرن] فَسَجَرْتُهُ بِهَا، حَتَّى إِذَا مَضَتْ أَرْبَعُونَ لَيْلَةً مِنْ الْخَمْسِينَ إِذَا رَسُولُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَأْتِينِي فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَعْتَزِلَ امْرَأَتَكَ، فَقُلْتُ: أُطَلِّقُهَا أَمْ مَاذَا أَفْعَلُ؟ قَالَ: لَا، بَلْ اعْتَزِلْهَا وَلَا تَقْرَبْهَا. وَأَرْسَلَ إِلَى صَاحِبَيَّ مِثْلَ ذَلِكَ، فَقُلْتُ لِامْرَأَتِي: الْحَقِي بِأَهْلِكِ فَتَكُونِي عِنْدَهُمْ حَتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ فِي هَذَا الْأَمْرِ. فَجَاءَتْ

امْرَأَةُ هِلَالِ بْنِ أُمَيَّةَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ هِلَالَ بْنَ أُمَيَّةَ شَيْخٌ ضَائِعٌ لَيْسَ لَهُ خَادِمٌ فَهَلْ تَكْرَهُ أَنْ أَخْدُمَهُ؟ قَالَ "لَا، وَلَكِنْ لَا يَقْرَبْكِ"، قَالَتْ: إِنَّهُ وَاللَّهِ مَا بِهِ حَرَكَةٌ إِلَى شَيْءٍ، وَاللَّهِ مَا زَالَ يَبْكِي مُنْذُ كَانَ مِنْ أَمْرِهِ مَا كَانَ إِلَى يَوْمِهِ هَذَا. فَقَالَ لِي بَعْضُ أَهْلِي: لَوْ اسْتَأْذَنْتَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي امْرَأَتِكَ كَمَا أَذِنَ لِامْرَأَةِ هِلَالِ بْنِ أُمَيَّةَ أَنْ تَخْدُمَهُ، فَقُلْتُ: وَاللَّهِ لَا أَسْتَأْذِنُ فِيهَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَمَا يُدْرِينِي مَا يَقُولُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا اسْتَأْذَنْتُهُ فِيهَا وَأَنَا رَجُلٌ شَابٌّ. فَلَبِثْتُ بَعْدَ ذَلِكَ عَشْرَ لَيَالٍ حَتَّى كَمَلَتْ لَنَا خَمْسُونَ لَيْلَةً مِنْ حِينَ نَهَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ كَلَامِنَا، فَلَمَّا صَلَّيْتُ صَلَاةَ الْفَجْرِ صُبْحَ خَمْسِينَ لَيْلَةً، وَأَنَا عَلَى ظَهْرِ بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِنَا، فَبَيْنَا أَنَا جَالِسٌ عَلَى الْحَالِ الَّتِي ذَكَرَ اللَّهُ، قَدْ ضَاقَتْ عَلَيَّ نَفْسِي وَضَاقَتْ عَلَيَّ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ، سَمِعْتُ صَوْتَ صَارِخٍ أَوْفَى عَلَى جَبَلِ سَلْعٍ بِأَعْلَى صَوْتِهِ: يَا كَعْبُ بْنَ مَالِكٍ، أَبْشِرْ! فَخَرَرْتُ سَاجِدًا وَعَرَفْتُ أَنْ قَدْ جَاءَ فَرَجٌ، وَآذَنَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِتَوْبَةِ اللَّهِ عَلَيْنَا حِينَ صَلَّى صَلَاةَ الْفَجْرِ، فَذَهَبَ النَّاسُ يُبَشِّرُونَنَا، وَذَهَبَ قِبَلَ صَاحِبَيَّ مُبَشِّرُونَ، وَرَكَضَ إِلَيَّ رَجُلٌ فَرَسًا وَسَعَى سَاعٍ مِنْ أَسْلَمَ فَأَوْفَى عَلَى الْجَبَلِ، وَكَانَ الصَّوْتُ أَسْرَعَ مِنَ الْفَرَسِ، فَلَمَّا جَاءَنِي الَّذِي سَمِعْتُ صَوْتَهُ يُبَشِّرُنِي نَزَعْتُ لَهُ ثَوْبَيَّ فَكَسَوْتُهُ إِيَّاهُمَا بِبُشْرَاهُ، وَاللَّهِ مَا أَمْلِكُ غَيْرَهُمَا يَوْمَئِذٍ، وَاسْتَعَرْتُ ثَوْبَيْنِ فَلَبِسْتُهُمَا وَانْطَلَقْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَيَتَلَقَّانِي النَّاسُ فَوْجًا فَوْجًا يُهَنِّونِي بِالتَّوْبَةِ يَقُولُونَ: لِتَهْنِكَ تَوْبَةُ اللَّهِ عَلَيْكَ. حَتَّى دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَالِسٌ حَوْلَهُ النَّاسُ، فَقَامَ إِلَيَّ طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ يُهَرْوِلُ حَتَّى صَافَحَنِي وَهَنَّانِي، وَاللَّهِ مَا قَامَ إِلَيَّ رَجُلٌ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ غَيْرُهُ وَلَا أَنْسَاهَا لِطَلْحَةَ. فَلَمَّا سَلَّمْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يَبْرُقُ وَجْهُهُ مِنْ السُّرُورِ "أَبْشِرْ بِخَيْرِ يَوْمٍ مَرَّ عَلَيْكَ مُنْذُ وَلَدَتْكَ أُمُّكَ"، قُلْتُ: أَمِنْ عِنْدِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَمْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ؟ قَالَ "لَا، بَلْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ"، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا سُرَّ اسْتَنَارَ وَجْهُهُ حَتَّى كَأَنَّهُ قِطْعَةُ قَمَرٍ وَكُنَّا نَعْرِفُ ذَلِكَ مِنْهُ، فَلَمَّا جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ أَنْخَلِعَ مِنْ مَالِي صَدَقَةً إِلَى اللَّهِ وَإِلَى رَسُولِ اللَّهِ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "أَمْسِكْ عَلَيْكَ بَعْضَ مَالِكَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ"، قُلْتُ: فَإِنِّي أُمْسِكُ سَهْمِي الَّذِي بِخَيْبَرَ، يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ إِنَّمَا نَجَّانِي بِالصِّدْقِ، وَإِنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ لَا أُحَدِّثَ إِلَّا صِدْقًا مَا بَقِيتُ... وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ {لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (117) وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (118) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ}. فَوَاللَّهِ مَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ مِنْ نِعْمَةٍ قَطُّ بَعْدَ أَنْ هَدَانِي لِلْإِسْلَامِ أَعْظَمَ فِي نَفْسِي مِنْ صِدْقِي لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ لَا أَكُونَ كَذَبْتُهُ فَأَهْلِكَ كَمَا هَلَكَ الَّذِينَ كَذَبُوا، فَإِنَّ اللَّهَ قَالَ لِلَّذِينَ كَذَبُوا حِينَ أَنْزَلَ الْوَحْيَ شَرَّ مَا قَالَ لِأَحَدٍ، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى {سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ} إِلَى قَوْلِهِ {فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ}. وَكُنَّا تَخَلَّفْنَا أَيُّهَا الثَّلَاثَةُ عَنْ أَمْرِ أُولَئِكَ الَّذِينَ قَبِلَ مِنْهُمْ

رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ حَلَفُوا لَهُ فَبَايَعَهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ، وَأَرْجَأَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمْرَنَا حَتَّى قَضَى اللَّهُ فِيهِ، فَبِذَلِكَ قَالَ اللَّهُ {وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا}، وَلَيْسَ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ مِمَّا خُلِّفْنَا عَنْ الْغَزْوِ، إِنَّمَا هُوَ تَخْلِيفُهُ إِيَّانَا وَإِرْجَاؤُهُ أَمْرَنَا عَمَّنْ حَلَفَ لَهُ وَاعْتَذَرَ إِلَيْهِ فَقَبِلَ مِنْهُ[1].

وهذا المبدأ سارٍ في عقوبات الدنيا، كما ثبت من الآيات والأحاديث المذكورة. أما فيما يختص بعذاب الآخرة، مثل عذاب القبر والنار، فقد يقول قائل إن هذا المبدأ لا يسري، أي أن التوبة إذا قُبِلت فإن الله يرفع عقاب الآخرة. ومن الراجح أن هذا الكلام صواب بناءً على النصوص الشرعية، كما أُشير مثلًا في جزء من الحديث "وَمَنْ أَذْنَبَ ذَنْبًا فِي الدُّنْيَا فَسَتَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ، فَاللَّهُ أَكْرَمُ مِنْ أَنْ يَعُودَ فِي شَيْءٍ قَدْ عَفَا عَنْهُ"[2]. لكن بالرغم من هذا، فيكفي عذابًا وعناءً بأن يُواجَه العبد على ذنوبه ويسأله الله فيها، إلى أن يقتنع أنه سيدخل النار.

فالخلاصة هي: حتى إن قبل الله الاستغفار والتوبة، فقد تكون العقوبة –أو بعض منها– واجبة التطبيق في الدنيا لتحقيق المصلحة الأشمل. فمثلًا قد يكون لتمحيص العبد حتى يكون أتقى لله، أو كفارة له عن بعض ذنبه خاصة لو كان فيه مظالم للناس، أو لردعه من تكرار أذيته التي تقع على الناس حوله، أو لإذهاب الغيظ في قلوب المظلومين لمنعهم من سلك أساليب باطلة أو ارتكاب مفاسد، أو ليختبر الله مدى إصرار وصبر (ومن ثمَّ صدق) توبة العبد إذ إن الابتلاء قد يجعل البعض يرجعون في توبتهم.

سلوك هذا الفكر يضر بالقلب أكثر عند ارتكاب المعصية. من يكون هذا هو منهجه في التفكير لدرجة أنه يتهاون بمعصية الله، يكون أدعى لنقصان إيمانه أكثر عندما يعصي الله. بمعنى، أنه قد يرتكب شخصان نفس المعصية وبنفس الطريقة، ولكن يؤثر ذلك في إيمانهما بدرجات متفاوتة. هذا لأن الأول قد يتذكر الله قبل أو في أثناء المعصية ولكن يتجاهل هذا ولا يتَّعظ ويمضي في المعصية، والآخر رأى المعصية ولم يأته مانع أو واعظ ولم يتذكر وارتكبها، فالأول ينقص إيمانه ويمرض قلبه أكثر. ذلك لأنه بعد الذكرى تجاهل العظة ومضى، وبكأنه استخفها، ويوشك هذا أن يزيد من قلبه قسوةً. أما الثاني فلربما إن تذكر كان ليمتنع، فيُرجى منه الاستقامة الأكثر وفيه بريق من الأمل أكبر.

ونفس الأمر إذا ما قارنا بين شخص يعصي الله وهو مبتهج ونفسه مطمئنة وبين آخر ارتكب المعصية وهو متوتر ويشعر بذلَّة. وكذلك ما ذكرناه بين الذي يُخطط للمعصية وبين من يرتكبها عفويًّا.

---

[1] صحيح البخاري 4066.

[2] سنن ابن ماجه 2594، ورُوي مثله في مسند أحمد 736 وفي سنن الترمذي 2550.

والسؤال التالي المنطقي هو: ما المشكلة وراء ضعف الإيمان ما دام قد يُصلحه المرء بعد المعصية بالأعمال الصالحة؟ الإجابة هي أنه ليس مضمونًا أن يفعل المرء العمل الصالح الذي تستثقله نفسه. والمصيبة إن أدمن المعصية ولم يُصلح حتى يلقى الله، فقد أخرج نفسه من الذين أحبهم الله إلى الذين أعرض عنهم الله، وقد نَقل نفسه من مكانة الكرامة عند الله إلى مكانة المَهَانة. قد وضع نفسه موضع التمني على الله في أن يُستثنى من العذاب بالرغم من استحقاقه، إما نعم وإما لا. ثم وإن عمل العمل الصالح، فقد لا يرجع إيمانه كما كان، خاصةً لو كان يتهاون بنقصان إيمانه.

يضاف إلى ذلك أن كثرة العصيان تجعل القلب يمرض ويبلى، ويكون الأثر على القلب بدرجات متفاوتة بحسب كم ونوع المعاصي. هناك ما يشير إلى أن المعصية تُضعف القلب، وتُذهب بركة الله على العبد، وتحول بين العبد وربه. فمنها ما قاله إبراهيم بن أدهم (رحمه الله) عندما سأله رجل: إني لا أقدر على قيام الليل فصف لي دواء؛ فقال: لا تعصه بالنهار وهو يقيمك بين يديه في الليل، فإن وقوفك بين يديه في الليل من أعظم الشرف، والعاصي لا يستحق ذلك الشرف[1]. ويحكي لنا الإمام الشافعي (رحمه الله):

شَكَوْتُ إِلَى وَكِيعٍ سُوءَ حِفْظِي

فَأَرْشَدَنِي إِلَى تَرْكِ المعَاصي

وقال: اعلم بأَنَّ العِلْمَ نُورٌ

ونورُ الله لا يؤتى لعاصي[2].

فذلك من المقاييس لمعرفة حال النفس ومكانة العبد عند الله: الاستطاعة على كثرة ذكر وعبادة الله. فالحمد لله على سعة رحمته.

وهنا أريد الإشارة إلى نقطة قد تخفى على البعض. إن من لوازم الإيمان أن يؤمن المرء أن الله قادر ومسيطر على كل شيء، أي هو المهيمن التام. فمن قوة الإيمان أن يُدرك المرء أنه لا يحدث شيء، مهما بلغ صِغره، إلا وقد أمره الله بذلك أو أذن له (في حال الإنسان إذا أراد أن يعصي الله مثلا). تحديدًا وفي صُلب الموضوع، هذا الحديث (مَا أَصَرَّ مَنْ اسْتَغْفَرَ...) بالكاد وصل إلى الأمة الإسلامية، حتى إن المحدِّثين بهذا الحديث قالوا إنه مُرسَل (وهو الحديث الذي يرويه التابعي عن النبي صلى الله عليه وسلم دون معرفة الصحابي في سنده)، فمن الإيمان أن نؤمن أن الله قدَّر أن

---

[1] فصل الخطاب في الزهد والرقائق والآداب لمحمد نصر الدين عويضة 400/9.

[2] ديوان الشافعي للدكتور مجاهد مصطفى بهجت 72.

يصل إلينا الحديث بهذا الحال. فلربما أوصله الله إلينا في حاله هذا تشديدًا على ألا نتكل عليه إذ كاد ألا يُنقل إلى الأمة الإسلامية، ليجعلنا نجتهد بدلًا من أن نتراخى.

وهذا مثل موقف سيدنا معاذ بن جبل (رضي الله عنه) في حديث سمعه من رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "مَا مِنْ أَحَدٍ يَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ صِدْقًا مِنْ قَلْبِهِ إِلا حَرَّمَهُ اللَّهُ عَلَى النَّارِ"، قَالَ (سيدنا معاذ): يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَلا أُخْبِرُ بِهِ النَّاسَ فَيَسْتَبْشِرُوا؟ قَالَ "إِذًا يَتَّكِلُوا"[1]. فأَخْبَرَ سيدنا معاذ الناس عن هذا الحديث فقط عند موته كي لا يأثم بكتمان العلم، فحال بين الحديث وبين الناس قدر المستطاع أخذًا بنصيحة رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، وتجنبًا للضرر من تواكل الناس عليه.

هذه إشارة إلى أن الحديث كان مقصودًا له أن يصل إلى الناس بصورة مُحددة، أي يصلهم على الحافة، ربما حاملًا رسالة أن هذا الحديث ليس لعامة الناس في هذه الحالة، إذ إنهم لا يكون عندهم قاعدة أساسية من العلم والفقه من الأحاديث الأساسية. ومثال على الأحاديث التي يجب أن تكون أساسًا عند الشخص قبل أن يبني على الحديث المذكور آنفًا هو قوله (صلى الله عليه وسلم) "وَأَنَا آمُرُكُمْ بِخَمْسٍ اللَّهُ أَمَرَنِي بِهِنَّ: بِالْجَمَاعَةِ، وَالسَّمْعِ، وَالطَّاعَةِ، وَالْهِجْرَةِ، وَالْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؛ فَإِنَّهُ مَنْ خَرَجَ مِنْ الْجَمَاعَةِ قِيدَ شِبْرٍ فَقَدْ خَلَعَ رِبْقَةَ الْإِسْلَامِ مِنْ عُنُقِهِ إِلَّا أَنْ يَرْجِعَ، وَمَنْ دَعَا بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ فَهُوَ مِنْ جُثَاءِ جَهَنَّمَ"، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَإِنْ صَامَ وَإِنْ صَلَّى؟ قَالَ "وَإِنْ صَامَ وَإِنْ صَلَّى وَزَعَمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ، فَادْعُوا الْمُسْلِمِينَ بِأَسْمَائِهِمْ بِمَا سَمَّاهُمْ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: الْمُسْلِمِينَ الْمُؤْمِنِينَ عِبَادَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ"[2].

حول معاني الحديث: وَالْهِجْرَةِ أي من مكة إلى المدينة وذلك قبل فتح مكة؛ وقيل هجر المعصية إلى التوبة. رِبْقَةَ هي عروة تُوضع حول رقبة البهيمة، والمعنى أنه قد نزع ما يشد به المسلم نفسه من عُرَى الإسلام، ما بين الحدود والأحكام والأوامر والنواهي، وقد نبذ عهد الله وخذل حق الله الذي يلزم العبد في عنقه. جُثَاءِ أي جموع. وينبغي ملاحظة لفظ "وَإِنْ صَامَ وَإِنْ صَلَّى وَزَعَمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ"، أي أنه يخرج من الإسلام بعمله إذا دعى إلى عيشة الجاهلية، فلا ينفعه قوله "لا إله إلا الله" لأن عمله ينقض ويُكذِّب ما يقوله. فالعبد عندما يسمع الحديث عن التواكل بعدما فقه الحديث الذي يحث على الاجتهاد ولزوم الجماعة وعدم الدعوة إلى الجاهلية، يبدأ باستيعاب الصورة الشاملة.

ففي هذه الوقائع رسالةٌ لنا من الله، وموضع تفكرٍ للمتفكرين. قد تكون إرادة الله من تلك الواقعة هو التشديد على عدم التواكل، مع طمأنتنا وتبشيرنا. فوجب ألا نترك العمل بعدما بُشِّرنا بالجنة، مثلما أن الصحابة الذين بشَّرهم الرسول (صلى الله عليه وسلم) بالجنة لم يتركوا العمل

[1] صحيح البخاري 125.

[2] مسند أحمد 16542.

الصالح، وإلا لزللنا إلى جهنم. فالحث على عدم التواكل ليس في لفظ الحديث فقط، بل وفي طريقة تبليغ ووصول الحديث لنا أيضًا، فإن الله قادرٌ على أن يُقدِّر كل شيءٍ، وفي ذلك مقصدٌ ولكن كثيرًا ما لا نستوعبه.

ثم يجب إدراك أمر، أن تعمد تكرار المعصية مقرونة بالاتكال على المغفرة بعد الاستغفار يُمرِض قلب المرء من جهة أنه يتبلد أيضًا، ويبلى الحياء الذي فيه. ولعل وعسى يتحول المرء بصنيعه هذا إلى منافقٍ والعياذ بالله، فالحذر كل الحذر. قد بلغ أناس درجة عجيبة من الجُرأة على الله والتحريف للمفاهيم، فقد جاء في كتاب "الجواب الكافي" أن منهم من قال: وكثِّر ما استطعت من الخطايا إذا كان القدوم على كريم؛ وقال آخر: التنزه من الذنوب جهل بسعة عفو الله؛ وقال آخر: ترك الذنوب جراءة على مغفرة الله واستصغار[1]! فسبحان الله مما وصل إليه هؤلاء من استباحة للمعاصي.

وحالهم هذا ينتج في الأصل من فكرٍ مثل ما نتداوله في هذا الفصل. كيف؟ يبدأ المرء بالإكثار من المعاصي تدريجيًّا، رغبةً منه في عدم خوض مشقة مقاومتها وفي الاستزادة من تحصيل اللذة العاجلة، حتى ينسى الاستغفار بعد الذنب تدريجيًّا، ثم يترك الاستغفار كليًّا، وإن تذكر، ثم تتسول له مثل تلك الاستنتاجات المنحرفة التي ذكرناها للتو. ومنهم من يبلغ من الضلال الفكري إلى أنه يقتنع أنه لا يحتاج للاستغفار على معاصيه، بل وربما حتى إنه عندما يرجع إلى ربه فإن له الحسنى عنده. هذا يحدث خاصة إن استدرجه الله بأن يزيده من متاع الدنيا بعد المعصية، ولا يُدرك الرجل أن هذا من مكر الله به ليزداد وزرًا، وقد شملت عظة أبو علي الرُّوذبانِيُّ هذا النموذج عندما قال: من الاغترار أن تُسيء فيُحسَنَ إليك، فتترك التوبة تَوَهُّمًا أنك تُسامَح في الهفوات[2].

المكث عليه زمنًا حتمًا سيؤدي إلى التمادي والغرور. إنه من شبه المحتوم أني إذا سلكت هذا الوادي الفكري سأتعدى مرحلة العصيان مع الاستغفار إلى مرحلة التكبر والغرور، فلا أكترث للاستغفار. آنذاك يُنقع قلبي في المعاصي فتتأصل فيه حتى يصعب عليَّ تركها والتوبة، فأيأس من التوقف عن المعاصي وأستسلم، بل وربما تتزين لى فكرة أن أُقابل ربي وأنا على تلك المعاصي وغير تائب. آنذاك سيكون حالي شبيهًا بحال المنافقين الذين ينادون المؤمنين يوم القيامة {يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِيُّ حَتَّى جَاء أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ} [الحديد 14].

---

[1] الجواب الكافي لابن القيم 22.

[2] صيد الخاطر لابن الجوزي 20.

وآنذاك أيضًا أكون قد أوقعت نفسي فيما حذرني منه النبي (صلى الله عليه وسلم) في الحديث "الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ"[1]. معنى "مَنْ دَانَ نَفْسَهُ" أي حاسب نفسه في الدنيا قبل أن يُحاسَب يوم القيامة، ومعنى "وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ" هو التواكل دون التوكل، أي بالرغم من تفريطه في طاعة الله واتباع شهواته ودون توبة يتمنى أن يعفو الله عنه. وقد يعفو الله عنه إن شاء، ولكن يُقلِّص العبد احتمالية حدوث هذا بعدم أخذه بالأسباب. التوكل الحقيقي هو أن الجوارح تسلك أسباب ووسائل النجاة، بعد تعلق قلب العبد بالله ورجاء رحمته، وهذا هو التوكل الحقيقي. أما إذا تُرك عمل الجوارح فهذا هو التواكل، كمن يترك وظيفته وينتظر الرزق أن يصله في بيته، أو المُزارع الذي لم يزرع أرضه وينتظر النبت. قال بعض السلف: لا تكن ممن يجعل توكله عجزًا، وعجزه توكلًا[2]. وهنا يكون الأخذ بالأسباب هو: مجاهدة هوى النفس.

مهما كان، فالشيء المنكسر وأُصلح ليس كالذي لم يُكسر في المقام الأول. هل يُعقل أن يتساوى من تعب في قهر نفسه، فمنعها عن المعاصي عامةً، مع من لم يقيِّد نفسه إطلاقًا أو حتى مع من امتنع قليلًا؟ ولو أن أحدنا يظن أنهم قد يستوون (كقاعدة عامة وليس الاستثناءات) فليضع نفسه مكان المجاهد لنفسه الممتنع عن المعصية. هل ترى أنه عدل أنك تعاني في الامتناع عن المعاصي ثم يُحَصِّلك في المنزلة كل من خاضوا في كبائر الذنوب ثم تابوا في آخر عمرهم؟ فإذا كان هذا هو الأساس، فلِمَ قد يمتنع العبد عن المعصية وهو يرى أن من هو أسوأ منه سيلحق به في المنزلة بعد التوبة؟

فهذا المبدأ إنما هو ذريعة لارتكاب المعاصي، ويتجاهل أن الذي يتمادى في المعاصي ثم يتوب لا يمكن أن يتساوى في المنزلة مع من آثر طاعة الله على رغبات نفسه، فعانى في مجاهدة نفسه منذ صغره. وحتى إن حدث ذلك في الجنة كحالة استثنائية، فإن العاصي التائب لن يكون من الذين نشأوا في طاعة الله منذ شبابهم، فلن يستحق مثلًا ظل الله يوم القيامة من هذا المنطلق، أي لن يزال هناك فروق قبل الجزاء. قال الحكماء: هب أن المسيء قد عُفي عنه، أليس قد فاته ثواب المحسنين[3]؟

أما إن كان المرء يرى أنه لا يُمكن أن يتساووا، ولكن أصابه الكبر أو الإعجاب بعمله، فليعلم أنه قد دخل الجنة رجالٌ لم يسجدوا لله سجدة، وذلك برحمة الله ورأفته بحالهم، لعلمه بحسن قلوبهم

---

[1] سنن الترمذي 2383.

[2] مدارج السالكين لابن القيم 480/3.

[3] موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين للشيخ محمد جمال الدين القاسمي 306.

الاستثنائي. هذا ما حدث مع عمرو بن ثابت (رضي الله عنه) مثلًا، أسلم ثم لم تتسنَّ له فرصة لصلاةٍ واحدةٍ لأنه أسلم في وقت جهادٍ، فجاهد في الله واستُشهد. وقد حُكي إليَّ من إمام مسجدٍ عن رجل مشركٍ هداه الله فأسلم، وكان ذلك يوم أربعاء، ثم صام الخميس، وقبضه الله يوم الجمعة، فكان بين خلوده في النار وخلوده في الجنة يومًا أو يومين، قد صام فيه. فهذا فضل الله يمُن به على من يشاء، فما بالنا بما في قلبه حتى يكون هذا هو نصيب حظه من الله.

ومِثل هؤلاء العباد ينبغي ألا يغبطه أحد من المسلمين على أساس أنه تمتع بحياته وارتكب ما يحلو له من معاصٍ ثم دخل الجنة، لأن ذلك من ضعف الإيمان في القلوب. هذا لأن فترة الضلال التي كان فيها ليست نعمةً حتى يُغبط عليها، بل هي نقمة وعناء، والدليل على ذلك أنه تركها وأسلم.

لكن يجوز أن نغبط مثل هذا المُكرَّم على أنه لم يلحق أن يكون عليه تكليف تبليغ وتفعيل هذا الدين إذ إنه حديث عهد بالإسلام. فلن يُسأل (أو قد يُسأل ولكنه معذور) على ما وفَّاه من تكاليف وحقوق عليه تجاه الله كما سنُسأل نحن الذين مكثنا أمدًا في الإسلام، فحِمل تقصيراته سيكون شبه مُنعدم. ويا للعار لمن خذل هذا الدين بالرغم من طول مكوثه فيه. الذي يهديه الله إلى الإسلام قبل الوفاة لن يكون عليه وزر ذنوبه؛ إذ إن تحوّل العبد إلى الإسلام يرفع الذنوب التي ارتكبها قبل إسلامه، كما نبأنا الرسول (صلى الله عليه وسلم) "إِنَّ الْإِسْلَامَ يَجُبُّ مَا كَانَ قَبْلَهُ، وَإِنَّ الْهِجْرَةَ تَجُبُّ مَا كَانَ قَبْلَهَا"[1]. فإننا قد نغبطه من جهة أن حمله خفيف، وأن الله فضَّله لهذه الدرجة على كثير ممن خلق تفضيلًا.

نِعَم الله يُنزلها وفضله يؤتيه من يشاء، ولا شيء يعلو على مشيئة الله وحكمته، يفعل ما يشاء ولا يُسأل عما يفعل. كل ما نحتاج أن نعرفه هو أن الله لا يَظلم أبدًا، وهذه هي المعلومة الوحيدة التي تلزمنا فيما يتعلق بحُكم الله وقدره ليهدأ بالنا، والحمد لله.

ولكن حتى قبل مرحلة الآخرة، فإن العاصي التائب لا يتساوى مع من يتوقّى انتهاك حدود الله، مُعظِّمًا لله. إن العاصي ليُصاب بالذل والمشقات والأمراض وغير ذلك من الابتلاءات كعقابٍ على معصيته، ولا مانع أن يفعل الله به هذا ثم يقبل توبة العاصي، فمثل هذا الشخص مخدوش ومُصاب مع قبول توبته. وليس منطقيًّا أن العاصي التائب يتساوى في المُكافأة والمنزلة مع المُجاهد لنفسه. وقد ضرب جمال الدين بن الجوزي في كتابه "صيد الخاطر" نموذجًا في التفرقة بين العاصي التائب والتقي في الفرق بين إخوة سيدنا يوسف وبين سيدنا يوسف نفسه (عليه السلام).

هُم قد عزموا على القضاء عليه ثم التوبة، في حين هو يُعرض عن الزنا بامرأة الملك بعدما أغوته، فكان حالهم المذلة إذ قالوا له في النهاية {وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا} [يوسف 88]. وقد أدركوا واعترفوا

[1] مسند أحمد 17145.

{قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ} [يوسف 91]، في حين أصبح حاله هو {وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا} [يوسف 100]، واصطفاه الله نبيًّا، لأنه (عليه السلام) أدرك حقيقةً، واتخذها منهجًا، ألا وهي {إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ} [يوسف 90]. ثم قال بن الجوزي: ومن تدبر أحوالهم قاس ما بينهم وبين أخيهم من الفروق، وإن كانت توبتهم قُبلت، لأن ليس من رَقَّعَ وخاطَ، كمن ثَوبه صحيح (انتهى بتصرف).

حتى إن افترضت للحظة أن الأوضاع آلت إلى أفضل ما أتمناه، بأنه قد غُفر لي ذنبي، وأيضًا لم أُعاقَب عليه في الدنيا ولا الآخرة، بل وحصَّلت منزلة المُحسنين في الجنة، فلا تزال هناك نقطة أغفل عنها. هذه النقطة هي أني سيظل بداخلي الندم والخجل على أن تلك الأعمال صدرت مني من المقام الأول، خاصة بعدما أرى إحسان ربي علي بالجنة بالرغم من عصياني له. كان أحد التابعين، واسمه الأسود بن يزيد، يُكثر الصيام والحج والعُمرة، وعندما جاء أجله بكى، فقيل له: ما هذا الجزع؟ فقال: مالي لا أجزع؟ ومن أحق بذلك مني؟ والله لو أُنبِئت بالمغفرة من الله لأهابن الحياء منه مما قد صنعت، إن الرجل ليكون بينه وبين الرجل الذنب الصغير فيعفو فلا يزال مُستحييًا منه[1].

ويزداد هذا الخجل والندم إذا ذكَّرني ربي بمعصيتي وعاتبني عليها ومنَّ عليَّ بأنه غفرها لي، وهذا يحدث حتى في الجنة وليس عند الحساب فحسب! نبأنا سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) "أَهْلَ الْجَنَّةِ إِذَا دَخَلُوهَا نَزَلُوا فِيهَا بِفَضْلِ أَعْمَالِهِمْ، ثُمَّ يُؤْذَنُ فِي مِقْدَارِ يَوْمِ الْجُمُعَةِ مِنْ أَيَّامِ الدُّنْيَا فَيَزُورُونَ رَبَّهُمْ وَيُبْرِزُ لَهُمْ عَرْشَهُ وَيَتَبَدَّى لَهُمْ فِي رَوْضَةٍ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ، فَتُوضَعُ لَهُمْ مَنَابِرُ مِنْ نُورٍ، وَمَنَابِرُ مِنْ لُؤْلُؤٍ، وَمَنَابِرُ مِنْ يَاقُوتٍ، وَمَنَابِرُ مِنْ زَبَرْجَدٍ، وَمَنَابِرُ مِنْ ذَهَبٍ، وَمَنَابِرُ مِنْ فِضَّةٍ، وَيَجْلِسُ أَدْنَاهُمْ، وَمَا فِيهِمْ مِنْ دَنِيٍّ، عَلَى كُثْبَانِ الْمِسْكِ وَالْكَافُورِ، وَمَا يَرَوْنَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَرَاسِيِّ بِأَفْضَلَ مِنْهُمْ مَجْلِسًا." قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَهَلْ نَرَى رَبَّنَا؟ قَالَ "نَعَمْ، هَلْ تَتَمَارَوْنَ فِي رُؤْيَةِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ؟" قُلْنَا: لا؛ قَالَ "كَذَلِكَ لا تُمَارَوْنَ فِي رُؤْيَةِ رَبِّكُمْ، ولا يَبْقَى فِي ذَلِكَ الْمَجْلِسِ رَجُلٌ إِلا حَاضَرَهُ اللَّهُ مُحَاضَرَةً، حَتَّى يَقُولَ لِلرَّجُلِ مِنْهُمْ: يَا فُلانُ بْنَ فُلانٍ، أَتَذْكُرُ يَوْمَ قُلْتَ كَذَا وَكَذَا؟ فَيُذَكِّرُ بِبَعْضِ غَدْرَاتِهِ فِي الدُّنْيَا، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، أَفَلَمْ تَغْفِرْ لِي؟ فَيَقُولُ: بَلَى، فَسَعَةُ مَغْفِرَتِي بَلَغَتْ بِكَ مَنْزِلَتَكَ هَذِهِ"[2]. فكفى بأن الله يُنادي المرء باسمه ويُذَكِّره بمعصيته أمام الملأ كعقاب.

خلاصة الفصل: الظاهر هو أن الله يغفر للمستغفر الذي يندم بصدق (والمستهتر يُستبعد أن يكون نادمًا بصدق)، ولمن كان قلبه طيبًا لا يمكر بسعة عفو الله وكرمه، ولا يُخطط بالخبث، فحينئذ يغفر الله له ولو كرر المعصية مائة مرة واستغفر، ولكن مع هذا لا يبلغ التكريم والسلامة اللذين يبلغهما الوقّاف عند حدود الله. هذا العبد يغفر له (بإذن الله) لأنه إنما يضعف أمام شهواته أحيانًا

[1] البداية والنهاية لابن كثير 17/9.

[2] سنن الترمذي 2472، جزء من الحديث.

دون أن يتهاون بحدود الله. ويجب أن يُقال، إن المتهاون قد يفيق مما هو عليه فيُصلح منهجه ويندم فيكون مثل العبد المنكسر، فيغفر الله له بسعته، فإني أُحُب أن أظن في ربي أقصى درجات العفو والرحمة التي أتخيلها، مع حسن العمل من العبد بالطبع.

لا ضير فيما أفعله من معاصٍ ما دامت صغيرة/قليلة جدًّا

إن قلت لنفسي "إنها صغيرة" استحقارًا لقدرها، فإنها فكرة يزجرها الحديث "إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ، فَإِنَّهُنَّ يَجْتَمِعْنَ عَلَى الرَّجُلِ حَتَّى يُهْلِكْنَهُ"، وَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ضَرَبَ لَهُنَّ مَثَلا كَمَثَلِ قَوْمٍ نَزَلُوا أَرْضَ فَلاةٍ فَحَضَرَ صَنِيعُ الْقَوْمِ، فَجَعَلَ الرَّجُلُ يَنْطَلِقُ فَيَجِيءُ بِالْعُودِ وَالرَّجُلُ يَجِيءُ بِالْعُودِ حَتَّى جَمَعُوا سَوَادًا، فَأَجَّجُوا نَارًا وَأَنْضَجُوا مَا قَذَفُوا فِيهَا[1] (فَلاةٍ هي الأرض الخالية من العمران؛ صَنِيعُ الْقَوْمِ هو الذي يطهو لهم الطعام؛ سَوَادًا أي كوم مرتفع). ونظرة العبد إليها أنه صغيرة تُغرره أن يُكثر منها ومن أمثالها.

بل وهناك ما هو أخوف من فقط اجتماع تلك الصغائر فيصبحن حملًا ثقيلًا، وهو أنهن قد يُبطِلن العمل الصالح. جاء في تفسير ابن كثير (رحمه الله) للآية {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ} [محمد 33]: كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يرون أنه لا يضر مع "لا إله إلا الله" ذنب كما لا ينفع مع الشرك [أي] عمل، فنزلت {أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ}، فخافوا أن يبطل الذنب العمل (انتهى).

ثم إن هناك جانبًا يغفل عنه كثير من الناس، أنه عادة ما تكون هناك متعلقات (أي يحتاج المرء إلى فعلها لبلوغ معصيته المُستهدفة) ومُلحقات (ما يتلوها، مثل معصية أخرى يتورط فيها المرء ليُخفي معصيته السابقة) مع المعصية. فحتى إن كانت المعصية صغيرة، من الوارد جدًّا أن يُصاحبها عدة ذنوبٍ أُخر، تزيد على المرء من الحمل الذي في المعصية بمعدل كبير.

بالنسبة إلى المتعلقات، فهي تلتصق بالمعصية الأساسية، وقد تكون صغيرة أو كبيرة في القدر. فمثلًا، قد يريد رجل أن يتملق لسلطان ظالم ليصل إلى منصب عنده، فيُداهنه على حساب دينه ويقول كلمة كفر، أو يبوح بأسرار جنود المسلمين لأعداء المسلمين كي ينال من مالِهم المُحَرَّم. فهو في الحقيقة يريد بلوغ سلطة أو مال لا يحق له، فكفر كي يصل إلى غايته. ارتكب كبيرة ليستطيع أن يصل إلى معصيته، فأي مصيبة تلك؟

وكثيرًا ما تكون متعلقات المعصية خفية في مصاحبتها للمعصية، وقد حذرنا سيدنا ابن عباس (رضي الله عنه) من بعضها قائلًا: يا صاحب الذنب لا تأمننَّ من سوء عاقبته، ولما يتبع

[1] مسند أحمد 3627.

الذنب أعظم من الذنب إذا علمته، فإن قلة حيائك ممن على اليمين وعلى الشمال وأنت على الذنب أعظم من الذنب الذي عملته، وضحكك وأنت لا تدري ما الله صانع بك أعظم من الذنب، وفرحك بالذنب إذا ظفرت به أعظم من الذنب، وحزنك على الذنب إذا فاتك أعظم من الذنب إذا ظفرت به، وخوفك من الريح إذا حركت ستر بابك وأنت على الذنب ولا يضطرب فؤادك من نظر الله إليك أعظم من الذنب إذا عملته. ويحك، هل تدري ما كان ذنب أيوب عليه السلام فابتلاه الله تعالى بالبلاء في جسده وذهاب ماله؟ إنما كان ذنب أيوب عليه السلام أنه استعان به مسكين على ظلم يدرؤه عنه فلم يُعِنه، ولم يأمر بمعروف وينه الظالم عن ظلم هذا المسكين، فابتلاه الله عز وجل[1].

أما المُلحقات فتكون في صورة معاصٍ أخرى تتبع المعصية، سواء تعمدها المرء أو تُفرض عليه. فمثلًا، الذي يُخرِّب شيئًا عمدًا من ممتلكات شخصٍ آخر ولم يره أحد، فعندما يُواجَه ويُسأل عن ذلك يكذب حتى لا تلتصق التهمة به. والكارثة أن لو كان في تلك المُلحقات كبيرة من الكبائر، فقد تكون المعصية نفسها صغيرة ولكن تُلاحقها كبيرة من كبائر الذنوب.

فحتى إذا افترضت أني فعليًّا أرتكب فقط الصغائر، يجب أن أواجه نفسي بالحقيقة: إن الله قد يُعاقب العبد الذي يرتكب معصية بأن يفتنه بمعصية أخرى، فكيف ضمنت وأيقنت أن هذه المعاصي الصغيرة لن تقودني في نهاية المطاف إلى الكبائر؟ والطبيعي أن المرء الذي يعتاد المعاصي الصغيرة ليتمتع يحصل له درجة من التبلد من متعتها، فيحتاج إلى معصية أكبر حتى تتحقق عنده نفس درجة النشوة، مما يتركه عُرضةً للإقبال على معصية أكبر. يوشك الذي يُطلق بصره ويتعامل مع النساء دون ضرورة أن يقع في زنا الفرج.

المبدأ يؤكده حديث للرسول الله (صلى الله عليه وسلم) "الْحَلَالُ بَيِّنٌ وَالْحَرَامُ بَيِّنٌ، وَبَيْنَهُمَا أُمُورٌ مُشْتَبِهَةٌ، فَمَنْ تَرَكَ مَا شُبِّهَ عَلَيْهِ مِنْ الْإِثْمِ كَانَ لِمَا اسْتَبَانَ أَتْرَكَ، وَمَنْ اجْتَرَأَ عَلَى مَا يَشُكُّ فِيهِ مِنْ الْإِثْمِ أَوْشَكَ أَنْ يُوَاقِعَ مَا اسْتَبَانَ. وَالْمَعَاصِي حِمَى اللَّهِ، مَنْ يَرْتَعْ حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يُوَاقِعَهُ"[2] (اسْتَبَانَ أي ما بان بوضوح أنه مُحرَّم؛ حِمَى هي المنطقة التي يُمنع دخولها). فإذا كان الذي يقع في الشُبُهات يوشك أن يقع في المعاصي، فالأدعى هو أن من يقع في الصغائر يوشك أن يقع في الكبائر، إذ إنه قد كسر حواجز أكثر لحرمات الله واجترأ أكثر من الذي يقع في الشُبُهات.

ومثالًا على ذلك، إن الذي يعتاد سب الناس قد يتصعد خلافه مع أحدهم، حتى تأخذه عزة النفس بالإثم فيسُبَّ أبوَي خصمه. ومعلوم أن سب آباء الناس من الكبائر لأن المرء يجلب به السب لوالديه، كما نبأنا الرسول (صلى الله عليه وسلم) "إِنَّ مِنْ أَكْبَرِ الْكَبَائِرِ أَنْ يَلْعَنَ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ"، قِيلَ: يَا

[1] حلية الأولياء وطبقات الأصفياء للإمام الحافظ أبي نعيم الأصبهاني 324-325.

[2] صحيح البخاري 1910.

رَسُولَ اللَّهِ وَكَيْفَ يَلْعَنُ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ؟! قَالَ "يَسُبُّ الرَّجُلُ أَبَا الرَّجُلِ، فَيَسُبُّ أَبَاهُ وَيَسُبُّ أُمَّهُ"[1]. وهو من الكبائر إذ إنه وجه من أوجه عقوق الوالدين.

بل وفي بعض المواقف، قد يجد المرء نفسه انغمر في معاصٍ صغيرة كثيرة حتى تتعرض له كبيرة من الكبائر قد تعلقت بإحدى تلك الصغائر، فلا يستطيع ردها. يرتكبها غير راغبٍ فيها نظرًا لتوريطه في الصغائر القريبة منها، قد فرضت نفسها (أو فرضها أحدٌ) عليه لرغبته في تحصيلهن. كمثال، المرء الذي يُصاحب صديق سوء قد نهاه أبواه عن مصاحبته، فيذهبان ليشربا السجائر، فيكتشف أبواه ويُهاجمان صاحبه، فيأمره صاحبه بالإساءة إلى والديه وقطع علاقته بهما مؤقتًا ليبتزهما على قبول رغباته وعدم التدخل في حياته، فيستجيب المرء. قد عقَّ المرء والديه ليُرضي وينال إعجاب صاحبه المُفسد، وكل هذا من أجل التدخين والاستمتاع بالأوقات، فأي ذِلّة تلك للمرء؟

وعلى هذا النحو، فهذا الفكر في حد ذاته قد يضع على المرء وزرًا أكبر من المعصية المرتكبة نفسها، فهناك من آفات القلب ما يُعدُّ من الكبائر، مثل الاستهانة بمحاسبة الله لنا أو بشدة عقابه، أو التهاون بحقوقه علينا، أو المكر بمنهج الله كما تكلمنا. مثالٌ آخر هو استصغار لعصيان الله نظرًا لأن أناسًا كثيرين يفعلون ما هو أسوأ، ففيه استهانة بمخالفة أوامر الله واستحقار للناس بأنه أفضل من أغلب الناس.

فقد يكون الذنب فعلًا صغيرًا، ولكن يُصاحبه مصيبة قَنَاعية خبيثة أو آفة قلبية هي التي تجعل الأمر يبلغ الآفاق في القبح. قال عَوَّامِ بن حَوْشَب: أربعٌ بعد الذنب شرٌّ من الذنب: الِاسْتِصْغَارُ، وَالِاغْتِرَارُ، وَالِاسْتِبْشَارُ، وَالْإِصْرَارُ[2]. لعل مقصده من الاغترار هو افتراض حسن الجزاء بالرغم من سوء العمل، فيعطي الله أسوأ ما عنده ويتوقع من الله أن يعطيه أفضل ما عنده، أو الاغترار بأنه سيقدر على ارتكابها أو بستر الله أو بالسلامة منها. والاستبشار ربما يكون بالتحمس والسعادة للإقبال على المعصية أو بعد ارتكابها. وحذَّر الفضيل بن عياض قائلًا: بقدر ما يصغر الذنب عندك يعظم عند الله، وبقدر ما يعظم عندك يصغر عند الله[3].

هذه مصيبة في حد ذاتها، أن السالك لهذا الفكر يعتمد على أن معصيته صغيرة (وربما يظن أن المعصية الواحدة تُحسب سيئة واحدة فقط) في حين أنه ليس الذي يحسب عدد السيئات التي توضع عليه منها، أي لا أحد يعلم كم سيئة تُحسب عليه بسبب معصية يرتكبها مهما صغرت أو قلّت. لا يمكن أن يُحسب على الذي يشرب المُدخنات لساعة نفس عدد السيئات التي تُحسب على الذي يشربها لبضع دقائق، والذي يشربها في العلن لا يتساوى مع الذي يشربها في الخفاء، والذي يشربها

---

[1] صحيح مسلم 130.

[2] تنبيه الغافلين بأحاديث سيد الأنبياء والمرسلين لسمرقندي 270.

[3] سير أعلام النبلاء للذهبي 427/8.

بافتخار لا يتساوى مع الذي يشربها وهو يشعر بالعار مما يفعله، وغير هذا. فالحقيقة أننا لا نعلم كم السيئات التي نكتسبها من معصية، والإعتماد على أن السيئات قليلة من معاصي نجهل قدر السيئات التي عليها هي مُجازفة عمياء سفيهة، وقذفٌ للنفس في الهاوية.

وهناك من يُعَذَّب عذابًا غليظًا في الآخرة على ذنوبٍ ربما لا يراها كثير من الناس أنها بكبائر، ولكنها تراكمت عليه أو قارنها مرضٌ في القلب استلزمت للفاعل عذابًا غليظًا. ومثل ذلك ما جاء في الحديث عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) الذي يرويه سَمُرَةُ بْنُ جُنْدُبٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِمَّا يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ لأَصْحَابِهِ "هَلْ رَأَى أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنْ رُؤْيَا؟"، فَيَقُصُّ عَلَيْهِ مَنْ شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَقُصَّ، وَإِنَّهُ قَالَ ذَاتَ غَدَاةٍ "إِنَّهُ أَتَانِي اللَّيْلَةَ آتِيَانِ وَإِنَّهُمَا ابْتَعَثَانِي، وَإِنَّهُمَا قَالا لِي: انْطَلِقْ؛ وَإِنِّي انْطَلَقْتُ مَعَهُمَا وَإِنَّا أَتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ مُضْطَجِعٍ، وَإِذَا آخَرُ قَائِمٌ عَلَيْهِ بِصَخْرَةٍ وَإِذَا هُوَ يَهْوِي بِالصَّخْرَةِ لِرَأْسِهِ فَيَثْلَغُ رَأْسَهُ، فَيَتَهَدْهَدُ الْحَجَرُ هَا هُنَا فَيَتْبَعُ الْحَجَرَ فَيَأْخُذُهُ، فَلا يَرْجِعُ إِلَيْهِ حَتَّى يَصِحَّ رَأْسُهُ كَمَا كَانَ، ثُمَّ يَعُودُ عَلَيْهِ فَيَفْعَلُ بِهِ مِثْلَ مَا فَعَلَ الْمَرَّةَ الأُولَى، قُلْتُ لَهُمَا: سُبْحَانَ اللَّهِ، مَا هَذَانِ؟ قَالا لِي: انْطَلِقْ انْطَلِقْ؛ فَانْطَلَقْنَا فَأَتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ مُسْتَلْقٍ لِقَفَاهُ، وَإِذَا آخَرُ قَائِمٌ عَلَيْهِ بِكَلُّوبٍ مِنْ حَدِيدٍ وَإِذَا هُوَ يَأْتِي أَحَدَ شِقَّيْ وَجْهِهِ فَيُشَرْشِرُ شِدْقَهُ إِلَى قَفَاهُ وَمَنْخِرَهُ إِلَى قَفَاهُ وَعَيْنَهُ إِلَى قَفَاهُ، ثُمَّ يَتَحَوَّلُ إِلَى الْجَانِبِ الآخَرِ فَيَفْعَلُ بِهِ مِثْلَ مَا فَعَلَ بِالْجَانِبِ الأَوَّلِ، فَمَا يَفْرُغُ مِنْ ذَلِكَ الْجَانِبِ حَتَّى يَصِحَّ ذَلِكَ الْجَانِبُ كَمَا كَانَ، ثُمَّ يَعُودُ عَلَيْهِ فَيَفْعَلُ مِثْلَ مَا فَعَلَ الْمَرَّةَ الأُولَى، قُلْتُ: سُبْحَانَ اللَّهِ، مَا هَذَانِ؟ قَالا لِي: انْطَلِقْ انْطَلِقْ؛ فَانْطَلَقْنَا فَأَتَيْنَا عَلَى مِثْلِ التَّنُّورِ (قَالَ الراوي: فَأَحْسِبُ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ فَإِذَا فِيهِ لَغَطٌ وَأَصْوَاتٌ) فَاطَّلَعْنَا فِيهِ فَإِذَا فِيهِ رِجَالٌ وَنِسَاءٌ عُرَاةٌ وَإِذَا هُمْ يَأْتِيهِمْ لَهَبٌ مِنْ أَسْفَلَ مِنْهُمْ، فَإِذَا أَتَاهُمْ ذَلِكَ اللَّهَبُ ضَوْضَوْا، قُلْتُ لَهُمَا: مَا هَؤُلاءِ؟ قَالا لِي: انْطَلِقْ انْطَلِقْ؛ فَانْطَلَقْنَا فَأَتَيْنَا عَلَى نَهَرٍ (قَالَ الراوي: حَسِبْتُ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ أَحْمَرَ مِثْلِ الدَّمِ) وَإِذَا فِي النَّهَرِ رَجُلٌ سَابِحٌ يَسْبَحُ، وَإِذَا عَلَى شَطِّ النَّهَرِ رَجُلٌ قَدْ جَمَعَ عِنْدَهُ حِجَارَةً كَثِيرَةً، وَإِذَا ذَلِكَ السَّابِحُ يَسْبَحُ مَا يَسْبَحُ ثُمَّ يَأْتِي ذَلِكَ الَّذِي قَدْ جَمَعَ عِنْدَهُ الْحِجَارَةَ فَيَفْغَرُ لَهُ فَاهُ فَيُلْقِمُهُ حَجَرًا، فَيَنْطَلِقُ يَسْبَحُ ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِ، كُلَّمَا رَجَعَ إِلَيْهِ فَغَرَ لَهُ فَاهُ فَأَلْقَمَهُ حَجَرًا، قُلْتُ لَهُمَا: مَا هَذَانِ؟ قَالا لِي: انْطَلِقْ انْطَلِقْ؛ فَانْطَلَقْنَا فَأَتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ كَرِيهِ الْمَرْآةِ كَأَكْرَهِ مَا أَنْتَ رَاءٍ رَجُلا مَرْآةً، وَإِذَا عِنْدَهُ نَارٌ يَحُشُّهَا وَيَسْعَى حَوْلَهَا، قُلْتُ لَهُمَا: مَا هَذَا؟ قَالا لِي: انْطَلِقْ انْطَلِقْ؛ فَانْطَلَقْنَا فَأَتَيْنَا عَلَى رَوْضَةٍ مُعْتَمَّةٍ فِيهَا مِنْ كُلِّ لَوْنِ الرَّبِيعِ، وَإِذَا بَيْنَ ظَهْرَيْ الرَّوْضَةِ رَجُلٌ طَوِيلٌ لا أَكَادُ أَرَى رَأْسَهُ طُولا فِي السَّمَاءِ، وَإِذَا حَوْلَ الرَّجُلِ مِنْ أَكْثَرِ وِلْدَانٍ رَأَيْتُهُمْ قَطُّ، قُلْتُ لَهُمَا: مَا هَذَا، مَا هَؤُلاءِ؟ قَالا لِي: انْطَلِقْ انْطَلِقْ؛ فَانْطَلَقْنَا فَانْتَهَيْنَا إِلَى رَوْضَةٍ عَظِيمَةٍ لَمْ أَرَ رَوْضَةً قَطُّ أَعْظَمَ مِنْهَا وَلا أَحْسَنَ، قَالا لِي: ارْقَ فِيهَا؛ فَارْتَقَيْنَا فِيهَا، فَانْتَهَيْنَا إِلَى مَدِينَةٍ مَبْنِيَّةٍ بِلَبِنِ ذَهَبٍ وَلَبِنِ فِضَّةٍ، فَأَتَيْنَا بَابَ الْمَدِينَةِ فَاسْتَفْتَحْنَا فَفُتِحَ لَنَا، فَدَخَلْنَاهَا فَتَلَقَّانَا فِيهَا رِجَالٌ شَطْرٌ مِنْ خَلْقِهِمْ كَأَحْسَنِ مَا أَنْتَ رَاءٍ وَشَطْرٌ كَأَقْبَحِ مَا أَنْتَ رَاءٍ، قَالا لَهُمْ: اذْهَبُوا فَقَعُوا فِي ذَلِكَ النَّهَرِ؛ وَإِذَا نَهَرٌ مُعْتَرِضٌ يَجْرِي كَأَنَّ مَاءَهُ الْمَحْضُ فِي الْبَيَاضِ، فَذَهَبُوا فَوَقَعُوا فِيهِ ثُمَّ رَجَعُوا إِلَيْنَا قَدْ ذَهَبَ ذَلِكَ السُّوءُ عَنْهُمْ فَصَارُوا فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ، قَالا لِي: هَذِهِ جَنَّةُ عَدْنٍ

وَهَذَاكَ مَنْزِلُكَ؛ فَسَمَا بَصَرِي صُعُدًا فَإِذَا قَصْرٌ مِثْلُ الرَّبَابَةِ الْبَيْضَاءِ، قَالا لِي: هَذَاكَ مَنْزِلُكَ؛ قُلْتُ لَهُمَا: بَارَكَ اللَّهُ فِيكُمَا، ذَرَانِي فَأَدْخُلَهُ؛ قَالا: أَمَّا الآنَ فَلا، وَأَنْتَ دَاخِلَهُ؛ قُلْتُ لَهُمَا: فَإِنِّي قَدْ رَأَيْتُ مُنْذُ اللَّيْلَةِ عَجَبًا، فَمَا هَذَا الَّذِي رَأَيْتُ؟ قَالا لِي: أَمَا إِنَّا سَنُخْبِرُكَ، أَمَّا الرَّجُلُ الأَوَّلُ الَّذِي أَتَيْتَ عَلَيْهِ يُثْلَغُ رَأْسُهُ بِالْحَجَرِ فَإِنَّهُ الرَّجُلُ يَأْخُذُ الْقُرْآنَ فَيَرْفُضُهُ وَيَنَامُ عَنْ الصَّلاةِ الْمَكْتُوبَةِ، وَأَمَّا الرَّجُلُ الَّذِي أَتَيْتَ عَلَيْهِ يُشَرْشَرُ شِدْقُهُ إِلَى قَفَاهُ وَمَنْخِرُهُ إِلَى قَفَاهُ وَعَيْنُهُ إِلَى قَفَاهُ فَإِنَّهُ الرَّجُلُ يَغْدُو مِنْ بَيْتِهِ فَيَكْذِبُ الْكَذْبَةَ تَبْلُغُ الآفَاقَ، وَأَمَّا الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ الْعُرَاةُ الَّذِينَ فِي مِثْلِ بِنَاءِ التَّنُّورِ فَإِنَّهُمْ الزُّنَاةُ وَالزَّوَانِي، وَأَمَّا الرَّجُلُ الَّذِي أَتَيْتَ عَلَيْهِ يَسْبَحُ فِي النَّهَرِ وَيُلْقَمُ الْحَجَرَ فَإِنَّهُ آكِلُ الرِّبَا، وَأَمَّا الرَّجُلُ الْكَرِيهُ الْمَرْآةِ الَّذِي عِنْدَ النَّارِ يَحُشُّهَا وَيَسْعَى حَوْلَهَا فَإِنَّهُ مَالِكٌ خَازِنُ جَهَنَّمَ، وَأَمَّا الرَّجُلُ الطَّوِيلُ الَّذِي فِي الرَّوْضَةِ فَإِنَّهُ إِبْرَاهِيمُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَمَّا الْوِلْدَانُ الَّذِينَ حَوْلَهُ فَكُلُّ مَوْلُودٍ مَاتَ عَلَى الْفِطْرَةِ". فَقَالَ بَعْضُ الْمُسْلِمِينَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَأَوْلادُ الْمُشْرِكِينَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "وَأَوْلادُ الْمُشْرِكِينَ، وَأَمَّا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَانُوا شَطْرٌ مِنْهُمْ حَسَنًا وَشَطْرٌ قَبِيحًا، فَإِنَّهُمْ قَوْمٌ خَلَطُوا عَمَلا صَالِحا وَآخَرَ سَيِّئا، تَجَاوَزَ اللَّهُ عَنْهُمْ"[1].

(فَيَثْلَغُ أي يكسر ويَشُجَّ؛ فَيَتَهَدْهَدُ أي يتدحرج؛ بِكَلُّوبٍ هي حديدة معوجة الرأس ينزع بها اللحم من القدر؛ فَيُشَرْشِرُ أي يَشُقَّ؛ شِدْقَهُ هو جانب الفم؛ وَمَنْخِرَهُ أي الأنف؛ التَّنُّورِ هو الفرن الذي يُخبز فيه؛ لَغَطٌ هي الأصوات التي لا تفهم؛ ضَوْضَوْا أي ارتفع أصواتهم ولغطهم؛ فَيَفْغَرُ/فَغَرَ بمعنى واحد وهو أن يفتح؛ فَيُلْقِمُهُ أي يرمي في الفم؛ يَحُشُّهَا أي يوقدها ويزيدها اشتعالًا؛ ارْقَ أي اصعد وارتفع؛ شَطْرٌ هو النصف؛ الْمَحْضُ أي خالص؛ الرَّبَابَةِ هي السحابة البيضاء المنفردة). فالكذبة مثلًا ليس منصوصًا في حد ذاتها أنها كبيرة، ولكن كذبة هذا الرجل بلغت الآفاق في الضرر بعواقبها، فهو يظل يُعَذَّب بها حتى يُبعث يوم القيامة!

من هذا الحديث نرى أن كل إنسان يُعذَّب بحسب معصيته، أي أن الله يُجازي العبد بنفس جنس العمل، خيرًا كان أم شرًّا. فمثلًا: إن الذي يكذب يُشَّق شدقه إلى قفاه لأن مصدر الكذبة هو فمه، ويحتاج إلى التنفس من منخره ليُخرج الهواء للتكلم، والنظر بعينيه لجمع المعلومات حتى يستطيع إحباك الكذبة. وحافظ القرآن الذي يُثلغ رأسه بسبب أنه حفظ القرآن في عقله ولكنه لم يستنفع بفوائده بالعمل به، وكأنه لم يسمعه أصلًا، فأحرى أن يُستخرَج العلم من مكان حفظه في جسده.

وبعد قراءة مثل هذا الحديث، كيف أظل أرى أني سأنجو من عذاب الله بحجة أن سيئاتي يسيرة؟ هل أظن أن الله يعجز عن إيجاد طريقة تعذيب تُكفِّر عني سيئاتي التي قَلَّت؟! وكما جاء في الحديث، هناك أناس وجوههم لها شطران: حسنٌ وقبيحٌ، لأنهم خلطوا بين الأعمال الصالحة والسيئة، فمن أين غروري هذا بالباطل؟ إنه من تسويل الشيطان والنفس... فالجزاء من جنس العمل، ولئن

[1] صحيح البخاري 6525.

ظننت أني سأفلت من عقاب ربي بسبب قلة الذنوب المرتكبة، فهذا أدعى للتعذيب لأنني تهاونت بحساب الله وقدرته.

ولكن إذا أقررت بذنوبي، وإن كانت قليلة وبسيطة، ثم تبت وطلبت العفو والمغفرة من الله، فهذا أدعى لرحمة ومغفرة ربي بأن يتجاوز عن معاقبتي. هذا مع العلم أن ما من أحد يستحل لنفسه المعاصي الصغيرة اليسيرة ويقف عند هذا الحد، فقريبًا سنجد هذا المُستحِل يزيد في كم وكبر المعصية، لأن النفس والشيطان يشجعان على التمادي في الخطوة التالية من المعاصي والاستمتاع أكثر. وهذا من مكايد الشيطان ليُدخل عباد الله إلى النار، بأن يُزين لهم القليل الصغير من المعاصي وغايته في النهاية أن يُبلغهم الشرك أو الكفر، مُدركًا أن العبد لن يقف عند هذا الحد إن استحل تلك المعاصي، أو استصغر أثرهم عليه، أو استخف بالعذاب عليهم. قال الرسول (صلى الله عليه وسلم) في حجة الوداع في مكة "أَلا وَإِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ أَيِسَ مِنْ أَنْ يُعْبَدَ فِي بِلادِكُمْ هَذِهِ أَبَدًا، وَلَكِنْ سَتَكُونُ لَهُ طَاعَةٌ فِيمَا تَحْتَقِرُونَ مِنْ أَعْمَالِكُمْ، فَسَيَرْضَى بِهِ"[1].

على هذا الأساس، ينبغي أن أسأل نفسي سؤالًا صريحًا فيصليًّا وأجاوب عنه بصدق مع نفسي: لأفترض أن معصيتي صغيرة وقليلة حقًّا، لكن ماذا لو تفلتت مني سيطرتي على هذا الوضع فأكثرت من المعاصي، أو انتقلت إلى الكبائر، فهل عندي خطة أمان بديلة كي أنجو من عذاب الآخرة؟ بمعنى آخر، إذا انفلت زمام الأمور من يدي، ما العامل الذي سيحجبني عن دخول النار؟ فهل يُجازَف بالمصير مقابل اليسير من المعاصي؟ من هذا الذي يسند سلامته ونجاته على أُرجوحة يوازنها على الدوام بدلًا من أرضية راكزة وآمنة–طاعة الله؟

من منظورٍ آخر، ماذا سأفعل عندما تُراوغني هذه الفكرة؟ ماذا لو قابلتني معصية وأردت أن أرتكبها وأنا عادتي أن أتجنب المعاصي، معصية واحدة فقط، وفوق هذا أنها صغيرة بالتأكيد؟ ما المشكلة حقًّا من ارتكاب معصية واحدةٍ صغيرة؟ قبل أن أرتكبها، هل حقًّا تمعَّنت في قول الله تعالى {كَلا إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكًّا دَكًّا (21) وَجَاء رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا (22) وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى} [الفجر 21–23]؟

حين أرى جهنم بهيبتها تُجرّ، وأُدرك أنها أُتي بها ليُقذف أناس فيها، آنذاك سأتذكر هذه المعصية الواحدة الصغيرة، وسأُسفِّه نفسي لارتكابها وإن كانت الوحيدة التي ارتكبتها في حياتي، لأنها قد تكون هي التي تُفضي بي إلى جهنم، ولكن أنّى تنفعني الذكرى آنذاك. فإذا ضمت وأمِنت أني لن ألوم نفسي وأُسائلها في تلك اللحظة العصيبة عما كان الداعي من تلك المعصية الوحيدة الصغيرة، فلأسأل نفسي السؤال الأصعب. السؤال هو: إذا تسببت تلك المعصية الصغيرة الوحيدة في استحقاقي

[1] سنن الترمذي 2085، جزء من الحديث.

دخول النار ولو للحظة، هل سأستطيع ألا أُعاتب نفسي، بل وأن أقول إن لذة تلك المعصية جديرة بأن أستحمل لحظة في النار من أجلها؟ هل أستطيع في تلك الحالة أن أستثني نفسي من قول الله تعالى {تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ} [الشورى 22]؟ فإن كانت إجاباتي الصادقة "نعم"، فلأرتكب تلك المعصية.

فالمسألة لا تقتصر على صغر المعصية ونُدرتها، ولكن ترتكز على خطورة الوضع الذي نحن فيه وعِظَم الأحداث المحيطة بها. إن أحداث يوم القيامة ستقع لا محالة، وجميعنا حتى في هذه اللحظة الحالية، سائرون إليها بلا مَفَر، ومنتهانا عند الله {وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى} [النجم 42]. إذًا، أفليس عصيان الله عمدًا ولو بصغيرة، في حين نحن الآن في طريقنا إلى أهوال القيامة، يُعتبر من الجنون؟

وبالطبع فوق خطورة الوضع الذي نحن فيه هناك عظمة الله، كما قال بلال بن سعد (رحمه الله): لا تنظر إلى صغر الذنب، وانظر من عصيت[1]. فاجعل عينيك نصب أنك تُخالف الله رب العالمين، فذلك أدعى في ردع النفس عن المعصية الصغيرة.

ثم فلنفترض أني سأكون ممن ارتكب الصغائر بحرية ثم عفا الله عنهم في الآخرة ودخل الجنة (وهم الذين خلطوا عملًا صالحًا وآخر سيئًا)، فإني قد لا أُستثنى من عواقب تقع عليَّ لا محالة قبل دخولي الجنة، مثل المسخ شطرين حسنًا وقبيحًا. فهل أرضى لنفسي ذلك المسخ؟

وعلى وزن هذا، ماذا لو أن الله أسقطني من على جسر جهنم، وأيقنت واستشعرت لحظة وقوعي من الجسر أني داخلٌ جهنم، ورأيت جهنم وعاينتها بجوانبها (منظرها ورائحتها وهَبوِها) وليس بيني وبينها مانع، ثم أنقذني الله قبل أن أدخلها، ألا يكفي ذلك عذابًا؟ أليست تلك اللحظة من الفزع المتناهي تكفيني قناعةً أن أترك المعاصي؟ مثل هذه اللحظات الحاسمة تُحفر في الذاكرة: السقوط من على الجسر، أو المسخ إلى شطرين، أو تلقيبي "بالجُهَنَّمِيّ" في الجنة كما في الحديث (صلى الله عليه وسلم) "لَيُصِيبَنَّ أَقْوَامًا سَفْعٌ مِنْ النَّارِ بِذُنُوبٍ أَصَابُوهَا عُقُوبَةً، ثُمَّ يُدْخِلُهُمْ اللَّهُ الْجَنَّةَ بِفَضْلِ رَحْمَتِهِ، يُقَالُ لَهُمْ الْجَهَنَّمِيُّونَ"[2]. مثل هذه اللحظات الفاصلة لا ينساها العقل ولا تُمحى عن المرء أبدًا، حتى مع خلوده في الجنة. فمن أجل ماذا أجعل نفسي أخوض مثل تلك اللحظات ويلتصق بي تلك الألقاب والذكريات؟

أي مع أني قد أنجو من النار، فإني لن أسلم من عواقب ما قبل النار التي لا أعي كم عددها وما أنواعها. أفليس إذًا الاستهانة بآثار صغائر الذنوب من السفاهة؟ فإن من السفاهة أن أُجازف

---

[1] البداية والنهاية لإسماعيل بن كثير 146/13.

[2] صحيح البخاري 6896.

بحياتي فيما لا أعلمه (العواقب من حيث الكم والنوع) من أجل تحصيل متعة عابرة، ولن أشبع منها أبدًا حتى، بل وأستطيع العيش دونها.

كل هذا الكلام ولم نتطرق إلى المصيبة التي قد تحدث من وراء هذا الفكر بعد. ماذا لو، لو، أن المعصية التي اعتدتها فارتكبتها مرارًا وتكرارًا منذ شبابي على أنها صغيرة، اتضح لي يوم القيامة أنها في الحقيقة كبيرة من الكبائر ولكني كنت أجهل هذا، ماذا سأفعل آنذاك؟ كيف سيكون موقفي؟ يجب أن أتخيل نفسي في هذا الموقف حتى أستوعب أبعاد الورطة التي سأكون فيها آنذاك، خاصة أن ذلك وارد وليس بمستحيل، فما عساي أن يكون ردي؟

ولنتجنب للحظات الخوض في نقاش إذا كانت تلك المعصية حقًّا صغيرة أو قليلة أم لا، ويتضح لي عند إحصائهن في المحاسبة أني ارتكبتها بمبالغة فأصبح حملها ثقيلًا جدًّا، فأدرك أني قد خدعت نفسي، ولنركز على نقطة أخرى. هناك قضية وحدها فيما يتعلق بانتهاج هذا الفكر تحتاج إلى وقفة، وهي أن هذا نوع من أنواع مكر العبد بقوانين الله، وهذه وحدها معصية كبيرة تجلب عذاب الله، وإن كانت المعصية الأصلية بسيطة. فحتى إن سلم من دخول جهنم، فإن الله بمكره يستطيع إخراج حق أصغر سيئة إن شاء.

فمثلًا: ماذا لو أني في القبر ووسَّعه الله عليَّ وأناره لي ويُفتح على باب من أبواب الجنة، ولكن في طرف إصبع إحدى قدمي هناك نارٌ تلظَّى ملتصقة بي، فهل سأستطيع أن أستمتع بمزايا القبر التي وهبني إياها الله؟ قطعًا إن تلك النار ستُنغِّص عليَّ متعتي فيما أعطاني الله، فهل حقًّا استمتعت؟! قد أعطاني الله الثواب مع العقاب، فلا يكن عند أحدنا شك أن الله قد يكمر بالعبد المسلم كما مكر هو في فعل الصغائر.

فوق هذا كله، ينبغي ألا أغفل عن قول الله تعالى {وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ} [الزلزلة 7-8]. فحتى إن كانت المعصية في صغرٍ متناهٍ، مجرد مثقال ذرة، سيتم تذكيري بها يوم القيامة أمام الله ومُحاسبتي عليها، وكفى بهذا عناءً، إذ سأجدها مكتوبة في كتاب أعمالي. لا شيء أصغر من أن يتم تدوينه.

لكن مع كل هذه النقاط، فإن هناك قضية أسمى تفرض عليَّ مواجهة نفسي بها، ألا وهي تعاملي مع الله. فلنفترض أني أريد أن أمشي على هذا المنهج الفكري، فهل أرضى بمكافأتي في الآخرة بناء على نفس المنهج؟ بمعنى، هل أرضى وأنا في الجنة أن يكون عليَّ يوم في العام يأتيني الطعام فاسدًا، والشراب رديئًا ومريرًا، والخدم يُعاملونني بإهانة ويعصونني، والحور العين يظهر منهن القُبح وسوء الكلام، وبيتي يكون مُتّسخًا ورائحته سيئة؟ فكيف أرضى لله ما لا أرضاه لنفسي، فوالله إن هذا لظلم عظيم. فينبغي ألا أدَّسّ رديئًا فيما أعطيه لله وأتوقع أن يُعطيني أفضل ما عنده.

ختامًا، هناك حديثٌ للرسول (صلى الله عليه وسلم) يُلمّ بجميع جوانب هذا الفصل، ويتصدى لهذه الفكرة المُهلِكة. قال (صلى الله عليه وسلم) عندما مر بقبرين ذات مرة "يُعَذَّبَانِ، وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ"، ثُمَّ قَالَ "بَلَى، كَانَ أَحَدُهُمَا لَا يَسْتَتِرُ مِنْ بَوْلِهِ، وَكَانَ الْآخَرُ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ"، ثُمَّ دَعَا بِجَرِيدَةٍ فَكَسَرَهَا كِسْرَتَيْنِ، فَوَضَعَ عَلَى كُلِّ قَبْرٍ مِنْهُمَا كِسْرَةً فَقِيلَ لَهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ لِمَ فَعَلْتَ هَذَا؟ قَالَ "لَعَلَّهُ أَنْ يُخَفَّفَ عَنْهُمَا مَا لَمْ تَيْبَسَا (أَوْ إِلَى أَنْ يَيْبَسَا)"[1] (لَا يَسْتَتِرُ مِنْ بَوْلِهِ أي لا يتجنبه ولا يحترز منه، أو قد لا يستنجي بماء بعد التبول؛ بِجَرِيدَةٍ هو غصن النخلة المُجرَّد من ورقه؛ تَيْبَسَا أي يَجِفَّان).

قد قال العلماء عن المقصد من قوله (صلى الله عليه وسلم) "بَلَى" كلامًا كثيرًا. منهم من قال إنه بمعنى: بل إنهما لذنبان كبيران مع أن الأمرين صغيران في الجهد لتركهما (أي أن تجنبهما كان يسيرًا وبسيطًا)، إذ إن عدم الاستتار من البول يؤدي إلى بطلان الصلاة لأن العبد ليس على طهارة، وأن النميمة تؤدي إلى الشحناء والخصومة وربما حتى قطع الرحم أو القتل بين المسلمين. وقيل المعنى هو إنهما رأوهم أمورًا (ذنوبًا) هيّنة، ولكن اتضح أن عواقبهما تؤدي لذنوب كبيرة (عدم إقامة الصلاة، وفتنة المسلمين)، ومن ثمَّ إنهما لذنبان كبيران في المُحصِّلة. وقال آخرون إن المقصد هو أن الذنوب صغيرة ولكنهما يُعذبان عليهما عذابًا كبيرًا. وأيًّا كان التفسير الأدق، فإن جميع تلك التفسيرات لها وجه في هذا الفصل.

إن سعة رحمة وعفو الله واسعة، وافتراض أن هناك ذنبًا أعظم من عفو الله هو افتراء وجُرأة على الله

قد يهمل المرء في عبادة الله في حين يُكثر من المعاصي، بحجة سعة كرم وعفو ورحمة الله، ظنًّا بهذا أنه يُحسن ظنه في الله، فذلك ليس من حسن الظن بل هو من الأمل الكاذب (أي التمني) وخداع النفس. وقد شبَّه الشيخ الغزالي (رحمه الله) الوضع، بين من يُحسن الظن بالله مع العمل الصالح وبين الذي لا يعمل، برجلٍ يزرع البذور في أرضه وينتظر الحصاد وبين آخر ينتظر الحصاد وهو لم يزرع شيئًا.

وقد بيَّن ابن القيم (رحمه الله) الفرق بين رجاء رحمة الله وتمني رحمة الله، فقال إن الرجاء يرتبط بثلاثة أمور، أحدها: محبة ما يرجوه، الثاني: خوفه من فواته، الثالث: سعيه في تحصيله بحسب الإمكان. ثم قال: وأما رجاء لا يقارنه شيء من ذلك فهو من باب الأماني[2]. ويُروى عن الإمام الحسن البصري (رحمه الله وجزاه عنا خيرًا على نصائحه بكلامٍ جامعٍ مُبصر) قوله: إن قومًا ألهتهم أماني المغفرة رجاء الرحمة حتى خرجوا من الدنيا وليست لهم أعمال صالحة، يقول أحدهم: إني

[1] صحيح البخاري 209.

[2] الجواب الكافي لابن القيم 39 (بتصرف).

لَحَسَنُ الظن بالله وأرجو رحمة الله؛ وكذَب، ولو أحسن الظن بالله لأحسن العمل لله، ولو رجا رحمة الله لطلبها بالأعمال الصالحة، يوشك من دخل المفازة [أي الصحراء] من غير زاد ولا ماء أن يهلك[1]. وقال معروف: رجاؤك لرحمة مَن لا تطيعه مِن الخُذلان والحُمق[2].

جاء في كتاب تلبيس إبليس: ومنهم من يَقُول 'الرب كريم، والعفو واسع، والرجاء من الدين'؛ فيُسَمّون تمنيهم واغترارهم رجاء، وهذا الذي أهلك عامة المذنبين. قَالَ أَبُو عمرو بْن العلاء: بلغني أن الفرزدق جلس إِلَى قوم يتذكرون رحمة الله، فكان أوسعهم فِي الرجاء صدرًا، فَقَالَ لَهُ: لمَ تَقذِف المحصنات؟ فَقَالَ: أحقروني لو أذنبت إِلَى ولديّ مَا أذنبته إِلَى ربي عز وجل، أتراهما كانا يطيبان نفسًا أن يقذفاني فِي تنور مملوء جمرًا؟ قالوا: لا إنما كانا يرحمانك، قَالَ: فأني أوثق برحمة ربي منهما. قلت [أي ابن القيم]: وهذا هو الجهل المحض، لأن رحمة الله عز وجل ليست برقة طبع، ولو كانت كذلك لما ذُبح عصفور ولا أُميت طفل ولا أدخل أحد إِلَى جهنم.

ولقد دخلوا عَلَى أبي نواس فِي مرض موته، فقالوا لَهُ: تُب إِلَى الله عز وجل، فَقَالَ: إياي تخوّفون؟ حدثني حماد بْن سلمة، عَنْ يَزِيد الرقاشي، عَنْ أنس، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "لِكُلِّ نَبِيٍّ شَفَاعَةٌ، وَإِنِّي اخْتَبَأْتُ شَفَاعَتِي لأَهْلِ الْكَبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي"، أفترى لا أكون أنا منهم. قال المُصنِّف رحمه الله: وخطأ هَذَا الرَّجُل من وجهين، أحدهما أنه نظر إِلَى جانب الرحمة الله ولم ينظر إِلَى جانب العقاب، والثاني أنه نسي أن الرحمة إنما تكون للتائب، كَمَا قَالَ عز وجل: {وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ} [طه 82]، وقال: {وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ} [الأعراف 156]، وهذا التلبيس هو الذي هلك عامة العوام (انتهى)[3].

ومثل ذاك الرجل الذي يقذف المُحصنات العفيفات من النساء بالبهتان عنده تلبيس آخر، إذ إنه أخطأ في حق الناس ولكن يرجو من الله العفو عن معصيته، فماذا عن حق من ظلمهن؟ لنفترض أن الله عفا عنه، هل ضمن أنهنَّ سيعفون عنه أيضًا بدلًا من الأخذ من حسناته وإلقاء عليه سيئاتهن؟ أما الرجل الذي يُقارن علاقته مع ربه بعلاقته مع أبنائه، فالفرق هو أنه يتفضل على أولاده ولذلك يعفوان عنه بعدما يُسيء إليهما، ولكنه مع ربه يكون هو المُتفَضَّل عليه من الله. فالفرق جسيم، إذ إنه يأخذ الفضل من الله ثم يَرُد بالإساءة إليه تعالى، ثم يريد أن يتفضل الله عليه مرة أخرى بالعفو ويُسَلِّم بذلك.

ونعم، ليس هناك ذنب عظيم على سعة عفو الله، ولكن هذا العفو يناله من يكون أهلًا له. فهذا القول صائب، ولكن الخطأ هنا يكون في تطبيقه. والدليل على أن هناك ذنوبًا لا يغفرها الله حتى

---

[1] البداية والنهاية 13140/9.

[2] الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي لابن القيم 28.

[3] تلبيس إبليس لابن قيم الجوزية 387-388.

تُترك هو قوله تعالى {إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء وَمَن يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلا بَعِيدًا} [النساء 116]. فإن الله لا يغفر الإشراك به بالرغم من أنه قادرٌ على أن يغفره، إذ إن القضية قضية حقوق وقواعد وليست قضية حجم المعصية أمام عفو الله.

إنما يغفر الله أي ذنب، مهما عظم، لمن يطلب المغفرة من الله مُخلصًا ويأخذ بالأسباب التي تُبين صدق توبته. وصِدق توبة العبد تظهر بأمور مثل عدم تكرار الذنب، والندم، ويُستحسن تقديم من الأعمال الصالحة للتكفير عن ذلك الذنب، خاصةً ما يكون عكس آثار ما اقترفه.

جاء في كتاب الجواب الكافي: وكثير من الجهال اعتمدوا على رحمة الله وعفوه وكرمه، وضيعوا أمره ونهيه، ونسوا أنه شديد العقاب، وأنه لا يرد بأسه عن القوم المجرمين، ومن اعتمد على العفو مع الإصرار على الذنب فهو كالمعاند. وقال بعض العلماء: من قطع عضوًا منك في الدنيا بسرقة ثلاثة دراهم، لا تأمن أن تكون عقوبته في الآخرة على نحو هذا [والمقصود هو حد قطع يد السارق، الذي يُشرَع إذا كانت السرقة قُدِّرت بما قيمته ثلاث دراهم كالحد الأدنى]. وقيل للحسن: نراك طويل البكاء، فقال: أخاف أن يطرحني في النار ولا يبالي[1].

ثم إن الذي يغتر بهذه الفكرة لماذا تقتصر رؤيته على صفات الله: الرحمة والعفو والمغفرة، بينما لا يضع في حساباته أو تفسيره للواقع أن الله أيضًا هو المُنتقم، والقهار، والجبار، وذو عقاب أليم. يجب وضع كل شيء في مكانه، فالذي يعصي الله ويقول إن رحمة ومغفرة الله ليس لها مثيل هو في الحقيقة يُسيء التعامل مع الله وينتظر أحسن مُعاملة من الله، فهل هذا منطقي أو يرضى به أحد؟ بل هل يرضاه هذا الشخص لنفسه، فإن قال 'نعم' فليتقرب وليتودد إلى من يظلمه ويُعاديه، فإن لم يستطع تقبُّله على نفسه فلماذا يرضى بهذا لربه؟!

ومعنى حسن الظن بالله كما أشار ابن القيم: حسن الظن إنما يكون مع الإحسان، فإن المُحسن حسنُ الظن بربه أن يُجازيه على إحسانه ولا يخلف وعده ويقبل توبته. ثم قال: وقد قال إبراهيم لقومه {أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ (86) فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ} [الصافات 86-87]، أي ما ظنكم أن يفعل بكم إذا لقيتموه وقد عبدتم غيره؟ ومن تأمل هذا الموضع حق التأمل علم أن حسن الظن بالله هو حسن العمل نفسه، فإن العبد إنما يحمله على حسن العمل ظنه بربه أن يجازيه على أعماله ويثيبه عليها ويتقبلها منه، فالذي حمله على العمل حسن الظن، فكلما حَسُن ظنه حَسُن عمله.

ثم قال: وبالجملة، فحسن الظن إنما يكون مع انعقاد أسباب النجاة، وإما مع انعقاد أسباب الهلاك فلا يتأتي إحسان الظن. فإن قيل: بل يتأتى ذلك، ويكون مستند حسن الظن: سعة مغفرة الله

[1] الجواب الكافي لابن القيم 28.

ورحمته وعفوه وجوده، وأن رحمته سبقت غضبه، وأنه لا تنفعه العقوبة ولا يضره العفو؛ قيل: الأمر هكذا والله فوق ذلك وأجل وأكرم وأجود وأرحم، ولكن إنما يضع ذلك في محله اللائق به، فإنه سبحانه موصوف بالحكمة والعزة والانتقام وشدة البطش وعقوبة من يستحق العقوبة، فلو كان معول حسن الظن على مجرد صفاته وأسمائه لاشترك في ذلك البر والفاجر، والمؤمن والكافر، ووليه وعدوه.

فما ينفع المجرم أسماؤه وصفاته وقد باء بسخطه وغضبه، وتعرض لِلعنته، ووقع في محارمه، وانتهك حرماته؟ بل حسن الظن ينفع من تاب وندم وأقلع، وبدل السيئة بالحسنة، واستقبل بقية عمره بالخير والطاعة، ثم أحسن الظن؛ فهذا حسن ظن، والأول غرور، والله المستعان. ولا تستطل هذا الفصل فإن الحاجة إليه شديدة لكل أحد، ففرق بين حسن الظن بالله وبين الغرة به، قال الله تعالى {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [البقرة 218]، فجعل هؤلاء أهل الرجاء لا الظالمين والفاسقين، وقال تعالى {ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ} [النحل 110]، فأخبر سبحانه أنه بعد هذه الأشياء غفور رحيم لمن فعلها. فالعالم يضع الرجاء مواضعه، والجاهل المغتر يضعه في غير مواضعه[1] (انتهى بتصرف).

فهذه دعوة خبيثة عندما يقولها المرء ويُقبل على المعاصي. خُبثها يكمن في أن المرء يريد من ورائها رفع عبء إهماله أو تقاعسه عن تجنب عصيان الله من على رقبته، وتعليقها على عظم عفو الله. إضافةً، إن هذا النمط الفكري إشارة إلى الأمن من مكر الله، والذي هو ذنب عظيم في حد ذاته، كما قال ابن حَجَر (رحمه الله): الأمن من مكر الله تعالى يتحقق بالاسترسال في المعاصي مع الاتّكال على الرحمة[2].

لا بأس فيما أرتكبه ما دمت سأموت شهيدًا

في هذه الخاطرة، أفترض أني صدقت مع الله في ابتغائي الشهادة، فسوف أموت شهيدًا بناءً على قول الرسول (صلى الله عليه وسلم) "مَنْ سَأَلَ اللَّهَ الشَّهَادَةَ بِصِدْقٍ بَلَّغَهُ اللَّهُ مَنَازِلَ الشُّهَدَاءِ، وَإِنْ مَاتَ عَلَى فِرَاشِهِ"[3]، وهذا سيُكَفِّر عني سيئاتي. وفي حديث آخر يرويه سيدنا أَبِو هريرة (رضي الله عنه): مَرَّ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِشِعْبٍ فِيهِ عُيَيْنَةٌ مِنْ مَاءٍ عَذْبَةٌ فَأَعْجَبَتْهُ لِطِيبِهَا، فَقَالَ: لَوْ اعْتَزَلْتُ النَّاسَ فَأَقَمْتُ فِي هَذَا الشِّعْبِ، وَلَنْ أَفْعَلَ حَتَّى أَسْتَأْذِنَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فَذَكَرَ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ "لا تَفْعَلْ، فَإِنَّ مُقَامَ أَحَدِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ

---

[1] الجواب الكافي لابن القيم 35-37.

[2] الزواجر 86/1.

[3] صحيح مسلم 3532.

أَفْضَلُ مِنْ صَلاتِهِ فِي بَيْتِهِ سَبْعِينَ عَامًا، أَلا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَيُدْخِلَكُمُ الْجَنَّةَ؟ اغْزُو فِي سَبِيلِ اللَّهِ، مَنْ قَاتَلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَوَاقَ نَاقَةٍ وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ"[1] (فَوَاقَ نَاقَةٍ أي قدر ما يمر من الوقت بين الحِلبَتَين للناقة).

فلا يزال الله يعطينا فُرَصًا للنجاة، فهل أنا آخذ بهذه الفرصة؟ فينبغي لكل امرئ أن يُحدِّث نفسه بجهاد أعداء الله، مستعدًّا لذلك، لاسيما في هذه الأوقات التي كثرت فيها البلاد المُحتلة للمسلمين (والجهاد له أفرع، منه ما نستطيعه بلا عذر مثل الدعاء والجهاد بالمال في صيغة تبرعات، ومنها ما يستلزم العُدة مثل الجهاد بالنفس). ولكن، يجب ألا تكون تلك الأحاديث مدخلًا من مداخل الشيطان للنفس، فيسوّل لهم أنه لا بأس بالمعاصي ما دام يريد أن يموت شهيدًا، لما في ذلك من عدة ثغرات. وتلك الثغرات تبدأ بأن كثيرًا من الناس يتغافلون عن كلمة "بِصِدْقٍ"، ومنها أني إذا زعمت أني صدقت مع الله في النية فذلك تزكية للنفس.

كما أن صدق النية مع كثرة المعاصي يتعارضان، فإن المعاصي تنتقص من عزيمة ومصداقية العبد المتعلقتين بالجهاد في سبيل الله، إذ إن العبد قد فشل في مجاهدة نفسه من أجل الله في المقام الأول. أليس الذي يضع نصب عينيه أمرًا يكون هو همَّه وغايته، ينشغل به فلا يلتفت ولا يُغريه غيره؟ هكذا الحال مع من يضع الجهاد نصب عينيه صدقًا، لا ينجذب إلى المعاصي.

المعاصي قد تجعلني أنحدر إلى مستوى من أسرف على نفسه (كما سيأتي في الحديث القادم)، فأكون قد خدعت نفسي أني صادق مع الله، ثم أفر عندما يحين وقت الجهاد فعلًا. يتبين لي آنذاك عدم صدقي واقعيًّا، وأنى ينفعني ذلك، فإنما يُثبِّت الله من يريد حين التقاء الجمعان. أو قد يمكر الله بي فيمنعني من الخروج من باب العقاب. ثم إنها من علامات الإيمان والتقوى أن المرء يعمل راجيًا أن يُكرمه الله بتلك الشهادة، مُشفقًا مهمومًا من أنه قد لا يكون منهم. هؤلاء أدعى أن تهب لهم الشهادة حقًّا لأنه تعالى يُحب مثل تلك الصفات في عباده، لأنها قمة صفات التعبد لله.

يُضاف إلى ذلك كله أننا فلنفترض أني سلمت من ذلك كله ونلت الشهادة، فإن الشهيد التَقِيّ له درجة غير الشهيد الذي كان يعصي الله. هذا كما ورد في الحديث عن النبي (صلى الله عليه وسلم) "الشُّهَدَاءُ أَرْبَعَةٌ: رَجُلٌ مُؤْمِنٌ جَيِّدُ الإِيمَانِ لَقِيَ الْعَدُوَّ فَصَدَقَ اللَّهَ حَتَّى قُتِلَ، فَذَلِكَ الَّذِي يَرْفَعُ النَّاسُ إِلَيْهِ أَعْيُنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ هَكَذَا (وَرَفَعَ رَأْسَهُ حَتَّى وَقَعَتْ قَلَنْسُوَتُهُ؛ قَالَ أحد الرواة وهو ينقل الحديث عن الراوي الذي قبله: فَمَا أَدْرِي أَقَلَنْسُوَةَ عُمَرَ أَرَادَ أَمْ قَلَنْسُوَةَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)؛ وَرَجُلٌ مُؤْمِنٌ جَيِّدُ الإِيمَانِ لَقِيَ الْعَدُوَّ فَكَأَنَّمَا ضُرِبَ جِلْدُهُ بِشَوْكِ طَلْحٍ مِنَ الْجُبْنِ، أَتَاهُ سَهْمٌ غَرْبٌ فَقَتَلَهُ فَهُوَ فِي الدَّرَجَةِ الثَّانِيَةِ؛ وَرَجُلٌ مُؤْمِنٌ خَلَطَ عَمَلا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا، لَقِيَ الْعَدُوَّ فَصَدَقَ اللَّهَ حَتَّى قُتِلَ،

[1] سنن الترمذي 1574.

فَذَلِكَ فِي الدَّرَجَةِ الثَّالِثَةِ؛ وَرَجُلٌ مُؤْمِنٌ أَسْرَفَ عَلَى نَفْسِهِ، لَقِيَ الْعَدُوَّ فَصَدَقَ اللَّهَ حَتَّى قُتِلَ، فَذَلِكَ فِي الدَّرَجَةِ الرَّابِعَةِ"[1] (قَلَنْسُوَتُهُ أي غطاء الرأس؛ بِشَوْكِ طَلْحٍ أي شوك نوع من الشجر الكبير؛ سَهْمٌ غَرْبٌ أي سهم طائش).

بل الأدهى هو لو أن ذنوبي أبلغتني مرحلة النفاق (خاصة إذا كان الأكبر)، فحتى إن تثبّتُ على الجهاد واستُشهدت في أحسن الافتراضات، فإن هذا لا ينفعني... ففي حديث أعمّ (من الحديث الذي ذكرناه للتو) في تصنيف الذين يقولون 'لا إله إلا الله'، قال سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) "الْقَتْلُ ثَلَاثَةٌ: رَجُلٌ مُؤْمِنٌ قَاتَلَ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا لَقِيَ الْعَدُوَّ قَاتَلَهُمْ حَتَّى يُقْتَلَ، فَذَلِكَ الشَّهِيدُ الْمُفْتَخِرُ فِي خَيْمَةِ اللَّهِ تَحْتَ عَرْشِهِ، لَا يَفْضُلُهُ النَّبِيُّونَ إِلَّا بِدَرَجَةِ النُّبُوَّةِ؛ وَرَجُلٌ مُؤْمِنٌ قَرَفَ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ الذُّنُوبِ وَالْخَطَايَا، جَاهَدَ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا لَقِيَ الْعَدُوَّ قَاتَلَ حَتَّى يُقْتَلَ، مُحِيَتْ ذُنُوبُهُ وَخَطَايَاهُ، إِنَّ السَّيْفَ مَحَّاءُ الْخَطَايَا، وَأُدْخِلَ مِنْ أَيِّ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ شَاءَ، فَإِنَّ لَهَا ثَمَانِيَةَ أَبْوَابٍ وَلِجَهَنَّمَ سَبْعَةَ أَبْوَابٍ، وَبَعْضُهَا أَفْضَلُ مِنْ بَعْضٍ؛ وَرَجُلٌ مُنَافِقٌ جَاهَدَ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ حَتَّى إِذَا لَقِيَ الْعَدُوَّ قَاتَلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ حَتَّى يُقْتَلَ، فَإِنَّ ذَلِكَ فِي النَّارِ، السَّيْفُ لَا يَمْحُو النِّفَاقَ"[2].

فالأحاديث تحث على الجهاد جملةً، وليس المغزى أن نية الجهاد عذر لارتكاب المعاصي، فهذا ينافي موضوعية الأحاديث لأنهما يحثان على الجهاد لا على المعاصي والفساد. ويجب ألا يغفل أحد عن أن حتى الشهداء لهم درجات، بالرغم من أنهم جميعًا قُتلوا في سبيل الله ولهم كرامات عظيمة. فالشهيد الذي كان يعمل الصالحات قبل الجهاد له منزلة غير الشهيد الذي لم يكن يعمل الصالحات (دون التطرق لقضية السيئات حتى)، فالأول يجمع ويتقدم.

ليس كما يظن البعض، أن العبد متى ما نوى الجهاد وينتظره فهذا يُعوّض عن مساوئه. وحقيقة الأمر هو أن هذا من كيد الشيطان بالعبد لأن هذه النظرية بها عدة علل. فلا ندري قد أموت في غير الجهاد، أو أن أفر حين يأتي وقت الجهاد كما حدث حتى مع بعض ممن حاربوا مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) {إِنّ الّذِينَ تَوَلّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنّمَا اسْتَزَلّهُمُ الشّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ وَلَقَدْ عَفَا اللهُ عَنْهُمْ إِنّ اللهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ} [آل عمران 155]. والعاقبة الأسوأ من ذلك كله أن المرء الفاحش قد يصيبه مكر الله، فلا يُمَكّنه الله من فرصة الجهاد، كأن تفوته الفرصة انشغالًا بلهو أو أن يتهرب عندما يُنادى عليه للجهاد. أو مثلًا قد يزيغ بأن يجاهد بنية أن يقال عليه شجاع، أو أن يلتبس عليه في فتنه فيقاتل إخوانه المسلمين الذين على حق ظنًّا أنهم على باطل!

ومن يقول إنها تكفي النية فهو على خطأ، فإن النية ينبغي أن تُدعم بالأفعال. وإذا كانت النية ضعيفة أو خادعة فإن ذلك يظهر في الأفعال، متمثلة ككثرة العصيان مثلًا. لا يتحجج أحدٌ

---

[1] سنن الترمذي 1568.

[2] مسند أحمد 16998. وثقه ابن حجر وابن حبان والألباني، وضعّفه الأرناؤوط.

بحديث النبي (صلى الله عليه وسلم)، عن الذي يموت في فراشه مع نيَّته للجهاد، في حين يتغافل عن كلمة "بصدق". الصدق في النية يكون بإثباتها وتقويتها بالعمل مع الإخلاص لله، وهو طاعة الله والبعد عن المعصية، والاستعداد للشهادة بإعداد العُدة لهذا قدر الإمكان ولمقاومة مكايد أعداء دين الله. وهذا يعني أن العبد يجب ألا يعصي الله عامةً وهو ينتظر فرصة فتح باب الجهاد.

والذي يؤكد على أهمية صدق النيات مع الله هي الواقعة المنقولة عن شداد بن الهاد، أَنَّ رَجُلًا مِنْ الأَعْرَابِ جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فَآمَنَ بِهِ وَاتَّبَعَهُ، ثُمَّ قَالَ: أُهَاجِرُ مَعَكَ، فَأَوْصَى بِهِ النَّبِيُّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) بَعْضَ أَصْحَابِهِ. فَلَمَّا كَانَتْ غَزْوَةٌ، غَنِمَ النَّبِيُّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) سَبْيًا فَقَسَمَ وَقَسَمَ لَهُ، فَأَعْطَى أَصْحَابَهُ مَا قَسَمَ لَهُ، وَكَانَ يَرْعَى ظَهْرَهُمْ، فَلَمَّا جَاءَ دَفَعُوهُ إِلَيْهِ، فَقَالَ: مَا هَذَا؟ قَالُوا: قِسْمٌ قَسَمَهُ لَكَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَخَذَهُ فَجَاءَ بِهِ إِلَى النَّبِيِّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فَقَالَ: مَا هَذَا؟ قَالَ "قَسَمْتُهُ لَكَ"، قَالَ: مَا عَلَى هَذَا اتَّبَعْتُكَ، وَلَكِنِّي اتَّبَعْتُكَ عَلَى أَنْ أُرْمَى إِلَى هَاهُنَا (وَأَشَارَ إِلَى حَلْقِهِ بِسَهْمٍ) فَأَمُوتَ فَأَدْخُلَ الْجَنَّةَ؛ فَقَالَ "إِنْ تَصْدُقْ اللَّهَ يَصْدُقْكَ". فَلَبِثُوا قَلِيلا ثُمَّ نَهَضُوا فِي قِتَالِ الْعَدُوِّ، فَأُتِيَ بِهِ النَّبِيُّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يُحْمَلُ قَدْ أَصَابَهُ سَهْمٌ حَيْثُ أَشَارَ، فَقَالَ النَّبِيُّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) "أَهُوَ هُوَ؟" قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ "صَدَقَ اللَّهَ فَصَدَقَهُ"، ثُمَّ كَفَّنَهُ النَّبِيُّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فِي جُبَّةِ النَّبِيِّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، ثُمَّ قَدَّمَهُ فَصَلَّى عَلَيْهِ، فَكَانَ فِيمَا ظَهَرَ مِنْ صَلاتِهِ "اللَّهُمَّ هَذَا عَبْدُكَ خَرَجَ مُهَاجِرًا فِي سَبِيلِكَ فَقُتِلَ شَهِيدًا، أَنَا شَهِيدٌ عَلَى ذَلِكَ"[1].

قد أراد هذا الأعرابي رد القسمة من الغنيمة إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) لأنه لم يتطلع إلى غنيمة، بل تطلع وطمع في رضا الله. ومن هذه الواقعة نستطيع أن نستدل أيضًا أن النيات الصادقة تظهر في الأفعال، وفي هذه الحالة كان تركه للغنيمة من أدلة صدق نية هذا الرجل، فصَدَقَه الله. فاللهم اجعلنا مثله.

ولنتفكر في الأمر، فإن جهاد العدو ليس سهلًا كما نظن، ففيه نترك الدنيا بمتاعها، وسُبل الراحة، وما اعتاده المرء من نظام حياته، وترك ما يألفه إلى ما يجهله، وترك الأهل والأولاد والزوجة، ونُقبِل على المشقة من كثرة إجهاد البدن والعقل، مع قلة في النوم والأكل والماء. ضيفوا إلى ذلك التعرض واضطرار التعامل مع ما لا نتوقعه ولا نعلمه من مصائب ومواقف كاسرة للنفس، هذا ومع الصبر الوفير على ذلك كله لأجَلٍ غير معلوم. وفوق هذا كله، هناك ضغط عرضته للموت باستمرار، فالجهاد استبدال الرفاهية والأمن بالعناء والفناء في الدنيا.

فكيف لمن أحب الدنيا وانغمس في لذاتها أن يتركها للجهاد الشاق؟ وكيف يُقنع نفسه أن يُخاطر بملاقاة ربه إذا قُتِل وهو مقيم على عصيانه؟ وإن أرغم نفسه على الجهاد، قد لا يطول صبره

[1] سنن النسائي 1927.

عن متع الحياة وعلى حمل أعباء النفس والجسد في الجهاد. هذا وبالإضافة إلى تملك الخوف منه، فلعله يفر أو تصيبه صدمة عندما يرى إخوانه يُقتلون. ولئن ألزم نفسه فربما يكون دائم التذمر والاعتراض والتردد والانكسار عن مواصلة الجهاد أو الرباط.

فجهاد العدو يبدأ بجهاد النفس، لأنه يقوّي عزيمة العبد على نُصرة كلمة الله ويُعلِي من تحمله للشدائد، فهو بمنزلة تدريب للنفس. قال أبو الحسن الندوي (رحمه الله): ولما كان جهاد أعداء الله في الخارج فرعًا على جهاد العبد نفسه في ذات الله، كما قال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) "وَالْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ، وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ الْخَطَايَا وَالذُّنُوبَ"[1]، كان جهاد النفس مُقدمًا على جهاد العدو في الخارج، وأصلًا له. سُئل ابن عمر بن الخطاب (رضي الله عنهما) عن الجهاد فقال: ابدأ بنفسك فجاهدها، وابدأ بنفسك فاغزُها. وقال إبراهيم بن أبي علقمة لقوم جاءوا من الغزو: قد جئتم من الجهاد الأصغر فما فعلتم في الجهاد الأكبر؟ قالوا: وما الجهاد الأكبر؟ قال: جهاد القلب[2]. وقد أشار قول إبراهيم بن أدهم إلى هذا بطريقة غير مباشرة: أشد الجهاد جهاد الهَوَى، مَن منع نفسه هَوَاهَا فقد استراح من الدنيا وبلائها، وكان محفوظًا ومُعَافًى من أذاها[3].

أما لو أن مجتمعًا كثُر فيه اللاهون المترفون، يُصبح حاله كما أشار النبي (صلى الله عليه وسلم) "يُوشِكُ الأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا"، فَقَالَ قَائِلٌ: وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ "بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ، وَلَيَنْزَعَنَّ اللَّهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمْ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ، وَلَيَقْذِفَنَّ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ الْوَهْنَ"، فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا الْوَهْنُ؟ قَالَ "حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ"[4]. يُصبح المجتمع واهِنًا نافرًا من الجهاد لأنه يخاف الموت، ويستشعر هذا غير المسلمين فيُغَرِّرون بغزو المسلمين.

قد أنجزت كثيرًا من العمل الصالح، فلا بأس من الترفيه عن نفسي (بالمعصية)

أحيانًا أجد أنه يخطر ببالي: لا بأس في هذه المعصية، فإني قدمت عملًا صالحًا كثيرًا. المنطق والمبرر الذي تخفيه النفس هو أن تلك المعاصي لا تُقارَن أمام أعمالي الصالحة، وأني أحتاج إلى مدة ترفيه. أو ترد في نفسي أفكار مشابهة؛ مثل: إني أراني على الصراط وما أُقدمه كثير. وفي هذا النمط الفكري عدة عِلل تؤدي إلى هلاك المرء، أولها ذكرًا هي أن من ظن أنه قدم ما يكفي

---

[1] مسند أحمد 22833.

[2] جامع العلوم والحكم لأبي الفرج بن رجب الحنبلي 171.

[3] حلية الأولياء وطبقات الأصفياء لأبو نعيم الأصبهاني 18/8.

[4] سنن الترمذي 3745.

من عمل صالح فإنه قد خدع نفسه، لأن المرء لا يستطيع أن يوفي حق الله عليه. والدليل هو أن جميع الناس يدخلون الجنة برحمة الله. فهلّا أُسدد حق الله عليَّ قبل أن أشرع في عصيانه؟!

قال ابن القيم (رحمه الله) حول هذه النقطة: من له بصيرة بنفسه، وبصيرة بحقوق الله، وهو صادق في طلبه، لم يبق له نظره في سيئاته حسنة ألبتة، فلا يلقى الله إلا بالإفلاس المحض والفقر الصرف، لأنه إذا فتش عن عيوب نفسه وعيوب عمله علم أنها لا تصلح لله، وأن تلك البضاعة لا تُشتري بها النجاة من عذاب الله، فضلًا عن الفوز بعظيم ثواب الله. فإن خلص له عمل وحال مع الله، وصفا له معه وقت، شاهد مِنّة الله عليه به، ومجرد فضله، وأنه ليس من نفسه، ولا هي أهل لذاك، فهو دائمًا مشاهد لمنة الله عليه ولعيوب نفسه وعمله، لأنه متى تطلبها رآها. وهذا من أجَلّ أنواع المعارف وأنفعها للعبد. ولذلك كان سيد الاستغفار: اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك عليَّ، وأبوء بذنبي، فاغفر لي، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت[1].

بل وهناك نقطة محورية، ألا وهي أن العمل الصالح، مهما عظم وكثر، فائدته تعود على المرء نفسه في الأساس. لن يبلغ العبد أبدًا درجة أن عمله يعود على الله بالنفع، سبحانه وتعالى عن هذا علوًّا كبيرًا، فهو الغنيّ، وإنما حثَّنا الله على العمل الصالح (العدل والصدق في التعاملات مثلًا) لمصلحتنا وسلامتنا نحن إذ فيه منفعة لنا في الدنيا، ولكن الله بفضله وكرمه يجزينا عليه بالثواب لننتفع بالسلامة في الآخرة أيضًا. كل هذا وأن العمل الصالح يتم بتوفيق الله وعونه للعبد في الأصل، إذ إن الله إن لم يأذن بحدوث العمل الصالح، بل وإن لم يُعن المرء أيضًا، ما استطاع العبد أن يفعله.

فإذا أبصرنا هذا المنطلق، فعلى من أمُنُّ بعملي الصالح؟ وكيف يَمُن عبد أنه أتم عملًا صالحًا كثيرًا مع أن الله وفَّقه له وأن منفعة ذاك العمل إنما هو لنفسه؟! أم هل أَمُنُّ على نفسي بالعمل الصالح في الحقيقة، مخالفةً للمنطق؟ وحتى آنذاك، كيف تكون هناك ذريعة أني أستحق أن أضُر نفسي بالمعصية؟ والتباسي يكون أفدح إن اغتررت بعملي الصالح وقد احتسبت فيه ما هو من الواجبات، التي إن تركتها لاستحققت عذاب الله في المقام الأول، مثل الصلوات المكتوبة، أو زكاة المال، أو صوم رمضان. بل والأسوأ إن اغتررت بإعراضي عن المعصية على أنه عمل صالح عظيم، والتي إن ارتكبتها لاستحققت العذاب من الأصل، أحتسب فعل لا شيء على أنه عمل صالح عظيم!

ثم، هل بلغ عملي ما يوازي أو يُقارب عمل الصحابة؟ فإنهم الذين خافوا من أن تُبطل أعمالهم فلم يتوقفوا عن البذل إلى أن أتاهم الموت، وعندما أتاهم رأوا أنهم لم يُقدموا ما يكفي. وكذلك كان حال الذين بُشِّروا بالجنة، فكأنهم لم يُقال لهم، فلم يتقاعسوا عن العمل ولم يتباطئوا عنه، فلا شك

[1] مدارج السالكين لابن قيم الجوزية 221/1.

أن استبصارهم للحقيقة والواقع أصوب من رؤيتي للواقع. كمثالٍ، دار حوار بين سيدنا كعب الأحبار وسيدنا عمر (رضي الله عنهما)، والذي طلب منه الموعظة، فقال له سيدنا كعب: يا أمير المؤمنين، اعمل عمل رجل لو وافَيْتَ القيامة بعمل سبعين نبيًّا، لازدَرَأتَ عملك مما ترى[1]. بل والواقع هو: هل أن عملي الصالح قريب من عمل التابعين، أو تابع التابعين؟ أو هل هو حتى قريب من الأتقياء في زمني هذا؟!

حتى وإن كان المرء من الذين يكثرون العمل الصالح حقًّا، أصبح من الذين يُزَكّون أنفسهم وأفعالهم بالفضل؛ الصفة التي قد نهى الله عنها. قال ابن القيم (رحمه الله): ومن أركان المحاسبة ما ذكره صاحب المنازل [أي الشيخ أبو إسماعيل الهروي رحمه الله] "أن تعرف أن كل طاعة رضيتها منك فهي عليك، وكل معصية عيرت بها أخاك فهي إليك". رضا العبد بطاعته دليل على حسن ظنه بنفسه، وجهله بحقوق العبودية، وعدم عمله بما يستحقه الرب جل جلاله ويليق أن يُعامَل به.

وحاصل ذلك أن جهله بنفسه وصفاتها وآفاتها وعيوب عمله، وجهله بربه وحقوقه وما ينبغي أن يعامل به، يتولد منهما رضاه بطاعته، وإحسان ظنه بها، ويتولد من ذلك من العُجب والكبر والآفات ما هو أكبر من الكبائر الظاهرة من الزنا، وشرب الخمر، والفرار من الزحف ونحوها. فالرضا بالطاعة من رعونات النفس وحماقتها.

وأرباب العزائم والبصائر أشد ما يكونون استغفارًا عقيب الطاعات، لشهودهم تقصيرهم فيها، وترك القيام لله بها كما يليق بجلاله وكبريائه، وأنه لولا الأمر لما أقدم أحدهم على مثل هذه العبودية، ولا رضيها لسيده.

وقد أمر الله تعالى وَفدَه وحجاج بيته بأن يستغفروه عقيب إفاضتهم من عرفات، وهو أجلّ المواقف وأفضلها، فقال {فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ (198) ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}. وقال تعالى {وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ}، قال الحسن: مدّوا الصلاة إلى السحر، ثم جلسوا يستغفرون الله عز وجل. وفي الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا سلم من الصلاة استغفر ثلاثًا، ثم قال: اللهم أنت السلام، ومنك السلام، تباركت يا ذا الجلال والإكرام. وأمره الله تعالى بالاستغفار بعد أداء الرسالة، والقيام بما عليه من أعبائها، وقضاء فرض الحج، واقتراب أجله، فقال في آخر سورة أنزلت عليه {إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (1) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (2) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا}.

[1] الزهد للإمام أحمد بن حنبل 151.

ومن هاهنا فهم عُمَر وابن عباس (رضي الله عنهم) أن هذا أجل رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلَمَه به، فأمره أن يستغفره عقيب أداء ما كان عليه، فكأنه إعلام بأنك قد أديت ما عليك، ولم يبق عليك شيء، فاجعل خاتمته الاستغفار، كما كان خاتمة الصلاة والحج وقيام الليل، وخاتمة الوضوء أيضًا أن يقول بعد فراغه "سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك، اللهم اجعلني من التوابين، واجعلني من المتطهرين".

فهذا شأن من عرف ما ينبغي لله، ويليق بجلاله من حقوق العبودية وشرائطها، لا جهل أصحاب الدعاوى وشطحاتهم[1] (انتهى).

وهذه الصفة: الثناء على النفس وعملها، بقناعتي أني على صراط الصالحين وأن ما قدَّمته من عمل كاف، تؤدي إلى الغرور، مما يقود إلى التكبر والتهاون والاسترخاء عن العمل الصالح. فبمجرد اقتناعي بهذا أكون قد بدأت في منحدر هلاكي بالفعل. بل وسيتبعها الإكثار من المعاصي نظرًا للتهاون، مما قد يُحبط العمل الصالح، فهي صفات سيئة متتابعة، أي واحدة منهن تحُط من منزلة العبد عند الله. هناك واقعة يرويها لنا عبد الرحمن بن زياد بن أنعم (وهو حديث مقطوع) متعلقة بهذا الفكر تحديدًا، فيها أن سيدنا موسى (عليه السلام) تمثل له إبليس، فسأله: فأخبرني ما الذنب الذي إذا أذنب ابن آدم استحوذت عليه؟ قال: إذا أعجبته نفسه، واستكثر عمله، ونسي ذنبه، استحوذت عليه[2].

هذا كله وقد أقنعت نفسي أن الله قد قَبِلَ ذلك العمل مني، قد غفلت عن الآية {وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ} [المؤمنون 60]. سألت السيدة عائشة (رضي الله عنها) الرسول (صلى الله عليه وسلم) عن هذه الآية "وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ" قائلة: أَهُمْ الَّذِينَ يَشْرَبُونَ الْخَمْرَ وَيَسْرِقُونَ؟ قَالَ "لا يَا بِنْتَ الصِّدِّيقِ، وَلَكِنَّهُمْ الَّذِينَ يَصُومُونَ وَيُصَلُّونَ وَيَتَصَدَّقُونَ وَهُمْ يَخَافُونَ أَنْ لا يُقْبَلَ مِنْهُمْ، أُولَئِكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ"[3].

والصحابة (رضي الله عنهم) لم يكن منهجهم مثلي، فعملي لا يمكن أن يُقارب عملهم، ومع هذا كانوا يخشون مكر الله بهم أن يُدخلهم النار. إنهم قدَّموا من الأعمال ما لا أُطيقه، وبالرغم من ذلك كانوا يخشون ألا يتقبل الله منهم كما وصفتهم الآية، وإن قبله الله فقد لا يكفي لنجاتهم من النار. فما المنفعة التي أنا مقتنعٌ أني قدمتها حقيقةً لدين الله؟

---

[1] مدارج السالكين لابن القيم 1/192-193.

[2] شعب الإيمان للبيهقي 3/246؛ وجاء مثله في تاريخ دمشق لابن عساكر 61/126.

[3] سنن الترمذي 3099.

هؤلاء رجال قد استوعبوا الحقائق واستقر في قلوبهم الإيمان، أحبوا الله وخشوا منه، وأخذوا بتوجيهات الرسول (صلى الله عليه وسلم) وحرصوا على الالتزام بهن. ومثالًا على التحذيرات اللاتي حرصوا على تفاديها، كما يتضح في الرواية، هو عندما قال الرسول (صلى الله عليه وسلم) "لَأَعْلَمَنَّ أَقْوَامًا مِنْ أُمَّتِي يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ جِبَالِ تِهَامَةَ بِيضًا، فَيَجْعَلُهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَبَاءً مَنْثُورًا"، قَالَ ثَوْبَانُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ صِفْهُمْ لَنَا، جَلِّهِمْ لَنَا، أَنْ لا نَكُونَ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُ؛ قَالَ "أَمَا إِنَّهُمْ إِخْوَانُكُمْ وَمِنْ جِلْدَتِكُمْ، وَيَأْخُذُونَ مِنْ اللَّيْلِ كَمَا تَأْخُذُونَ، وَلَكِنَّهُمْ أَقْوَامٌ إِذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ اللَّهِ انْتَهَكُوهَا"[1].

تعليقًا على الحديث مما قاله العلماء: للعلماء حوله كلام كثير، ومن أصوب ما قيل فيه: إنه في الذين يتكرر منهم انتهاك محارم الله باستمرار، وأن من صفاتهم الاستخفاف بما حرَّم الله، وأنهم لا تنكسر قلوبهم عند فعلهم لتلك المعاصي، بل يتجرأون على فعلها وانتهاك حدود الله. قال الشيخ الألباني (رحمه الله): هؤلاء (إذا خلوا بمحارم الله انتهكوها) لا يعني خلوا مرة واحدة، وإنما هذا ديْدُنهم وشأنُهم وهِجّيراهم دائمًا، فلذلك تطغى هذه المحرمات على تلك الحسنات[2].

وقال الشيخ محمد المختار الشنقيطي (حفظه الله): أي أن عندهم استهتارًا واستخفافًا بالله عز وجل، فهناك فرق بين المعصية التي تأتي مع الانكسار والمعصية التي تأتي بغير انكسار، بين شخص يعصي الله في ستر وبين شخص عنده جرأة على الله عز وجل. فصارت حسناته في العلانية أشبه بالرياء وإن كانت أمثال الجبال، فإذا كان بين الصالحين أَحْسَنَ أيما إحسانٍ لأنه يرجو الناس ولا يرجو الله. فيأتي بحسنات كأمثال الجبال، فظاهرها حسنات، لكنهم إذا خلوا بمحارم الله انتهكوها فهم في السر لا يرجون لله وقارًا، ولا يخافون من الله سبحانه وتعالى، بخلاف من يفعل المعصية في السر وقلبه منكسر، ويكره هذه المعصية ويمقتها، ويرزقه الله الندم.

فالشخص الذي يفعل المعصية في السر وعنده الندم والحرقة ويتألم ليس ممن ينتهك محارم الله عز وجل، لأنه في الأصل مُعَظِّم لشعائر الله، لكن غلبته شهوته فينكسر لها. أما الآخر فيتسم بالوقاحة والجرأة على الله، لأن الشرع لا يتحدث عن شخص أو شخصين ولا يتحدث عن نص محدد، إنما يعطي الأوصاف كاملة[3] (انتهى). وقد قال بعض الناصحين كلامًا مُحرِجًا للذي يُكرر انتهاك حرمات الله في الخفاء: اتق الله أن يكون أهون الناظرين إليك[4].

وحسن المثل الذي يُضرب للذي يقول إنه لا بأس من بعض المعاصي هو في الطالب الذي ذاكر المنهج الدراسي جيدًا ويدخل الامتحان فيه خمسة أسئلة، فهل تطاوعه نفسه ألا يُجاوب إلا على

---

[1] سنن ابن ماجه 4235.

[2] سلسلة الهدى والنور للألباني، شريط رقم 226.

[3] شرح زاد المستقنع لمحمد المختار الشنقيطي 332.

[4] جامع العلوم والحِكَم لابن رجب الحنبلي 162.

أربعة أسئلة ويترك الخامس ويقول: يكفي هذا من إجابات حسنة؟ فما بال من يترك سؤالين ويقول هو قد سَلِم، بل ما بال من يُجاوب سؤالًا واحدًا بإتقان ثم يقول إن هذا يكفي من إحسان ويأمل النجاح؟! السؤال التوضيحي والبديهي الذي يجب طرحه هو: لماذا يُجاوب المرء عن كل الأسئلة بإتقان قدر استطاعته في الامتحان التعليمي؟

هناك سببان رئيسيان، الأول أن الطالب المتفوق يريد أن يحرز أفضل نتيجة، وليس مجرد النجاح. والسبب الثاني هو أن عادةً ما يغفل الطالب عن ذكر ركن من الإجابة على السؤال أو يُخطئ في الإجابة، ومن ثمَّ يأخذ درجة أقل مما كان يتوقعها في ذاك سؤال، فيسعى للاحتراز من هذا بأن يُجاوب كل الأسئلة. فلماذا إذًا يكون ذلك منهجنا في الامتحانات الدراسية وليس منهجنا في الامتحان الربّاني، الذي هو الأساسي والمصيري وليس له إعادة؟! هل أن معاناة السقوط في امتحان الدراسي أكثر من معاناة السقوط في امتحان الآخرة، أم أن ثمار التقدم في النتيجة الدراسية أفضل من ثمار الدرجات العُلى من الجنة؟ فمن الذي يرضى بالأدنى عن الأعلى من درجات الجنة؟

العلة التالية في اتخاذ هذا المنهج الفكري هي استصغار المعصية، فإن استصغار المعصية يُضعف القلب والإيمان والعزم على التمسك بالدين، إذ إنه يتهاون بالمعصية فيعتادها ويألفها، وتَحول بينه وبين العمل الصالح لأنه ينفر من جُهد ذاك العمل. فلماذا في هذا الحال قد يترك متعة ولذة الشهوات التي اعتادها، وفوق ذلك من أجل أمرٍ فيه مشقة وتكرهه النفس؟ وحتى لو أنها صغيرة حقًّا، فإن الرسول (صلى الله عليه وسلم) قد حذَّر مما نحتقره من الذنوب لأنهن يتراكمن على العبد حتى يصبحن حملًا ثقيلًا.

أما فكرة أني أحتاج إلى فترة راحة أو ترويح، فذلك لا بأس به، بل هو مهم كي أتقوى على الطاعة وأستطيع المثابرة عليها. ولكن يجب الحذر من هذه الفكرة لأنها كثيرًا ما تُطرح في عقل المرء ليراد بها الباطل، وتُستخدم في غير محلها، وهو الترويح عن النفس بما نهى الله عنه. فلا يحق لمخلوق أن يُرفّه عن نفسه بالتعدي على حق خالقه، فالترويح يكون في الحلال وليس في محرم، وإلا كيف تكون تقوية للمداومة على العمل الصالح والمعصية في الحقيقة تُضعف عزيمة المرء عن العمل الصالح؟

حتى إن حققت ما أهدف له بالحذر، فكانت معاصيّي أقل من عملي الصالح، فإن الله قادر على أن يُدخلني الجنة مع استخراج حقه عليَّ من معصيتي له. فلا يزال هناك مراحل مثل القبر والحساب وجسر جهنم، أماكن ومراحل يُخلَّص فيها المرء من ذنوبه إن شاء الله في ذلك، والعياذ بالله من هذا كله. الحقيقة هي أن من يعصي الله يُصبح عُرضة لعذاب الله، لا مأمن له، كائنًا من كان، فها هو رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يُؤمر أن يُعلِن ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ

عَظِيمٍ (15) مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ} [الأنعام 15-16]. فلا أحد فوق العذاب مع معصية الله، مهما كثر عمله أو قلَّت معاصيه، إذا اختار الله ألا يعفو عنهن.

والداهية الأكبر تكون إذا بررت لنفسي هذا المسلك ليس من باب العمل الصالح الذي أستعظمه، بل أُبرره من باب الفقه الذي جمعته، لأن العكس يحدث وهو أن الوزر الذي عليَّ فعليًّا يزداد بدلًا من أن يصبح هيّنًا. هذا لأن من المفترض أن العلم يزيد العبد إيمانًا وخشيةً وتُقًى، فكيف يزيدني اجتراءً على عصيان الله إلا إذا كان هناك خطب ما؟ قال ابن الجوزي (رحمه الله) أنه رأى من حفظة القرآن ورواة الأحاديث من يترخَّص في الذنوب، ظنًّا أن الحفظ (والمجهود الذي بذله أو المنفعة التي يُقدِّمها في دين الله أيضًا) يدفع عنه الحمل. ثم أعقب قائلًا عن مثل ذلك الحافظ أو العالِم: ولو فَهِمَ لعلم أن الحُجّة عليه أقوى ممن لم يقرأ. وهذا كلام دقيقٌ جدًّا، إذ إن العبد إذا تفقه العلم الذي اطّلع عليه، لتقلصت عنده رغبته في المعصية أو حتى تضييع الوقت؛ أما من تعلم ثم لم ينصلح حاله، فهذا الذي لم يبلغ مرتبة الفقيه بل بلغ مرتبة العالِم.

أما عن استنباط أن العلم يكون حجة على العالِم العاصي، وأن جُرمه أعظم من الذي لا يعلم، فهو يُستنبط مما كان يحدث مع الأنبياء إذ كان يُعاقبهم الله على بعض الأخطاء (والتي لم تبلغ منزلة الذنوب). هذا لأن عندهم من العلم والمعاينة للغيبيات (فمثلًا، قد كلَّم الله سيدنا موسى تكليمًا)، ومن ثمَّ الإيمان، ما ليس عند سائر الإنس، بالإضافة إلى أن الله يُمحِّصهم ليكونوا أهلًا لخصائص النبوة والاقتداء بهم. ولو لم يكن عندهم علم ولا معاينة وعاقبهم الله، لكان هذا ظُلمًا، تعالى الله عن ذلك، فمعاقبته إياهم تدل على أنها بناءً على علمهم.

قد جازى الله سيدنا يونس (عليه السلام) بأن يبتلعه الحوت في البحر، وهذا لأنه خرج من بين قومه بعدما سَئم من دعوتهم إلى الله دون أن يُجيبوه، في حين لم يأمره الله أن يخرج مِن بينهم. وهذا سيدنا موسى (عليه السلام)، ابتلاه الله بوضعه تحت وصاية سيدنا الخِضر لأنه عندما سُئل عن أعلم الناس أشار إلى أنه هو أعلم الناس، ولم يَرُدَّ الفضل إلى الله الذي علَّمه. ومع سيدنا سليمان (عليه السلام)، فقد أعلن أنه سيطوف على كل نسائه حتى يلدن رجالًا يُقاتلون في سبيل الله، ولكنه نسي أن يقول "إن شاء الله"، فلم تلد منهن إلا واحدة، ولدت نصف إنسان. وجوزي سيدنا يوسف (عليه السلام) عندما علَّق أملًا أن يُخرجه ملك مصر من السجن بقوله لرجل أن ينقل قصته للملك، فجعله الله يمكث في السجن بضع سنين حتى تكون آماله كلها متعلقة فقط به سبحانه وتعالى.

وإني قد رأيت أناسًا، حسبتهم على خير وسلامة، بلغوا من الفقه والعمل الصالح مرحلة أنهم رأوا أنهم أفضل من عامة الناس، وعاملوهم على ذلك الأساس لأنهم يرون أن عامة الناس هالكون وهم ناجون. وقد سقط هؤلاء المتكبرون في سوء ما يُكمنون في صدورهم، ولا أظن إلا أنهم قد ضلوا بذلك. فأخشى أن تكون قد شملتهم الآية {أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَـٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ

سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىَ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللهِ أَفَلاَ تَذَكّرُونَ} [الجاثية 23]، بناءً على أن هواهم هو أن يشعروا بالأفضلية على الناس، وقد اتّبعوه، نسأل الله الهداية والتوفيق والاستقامة والمعافاة لنا ولهم.

ولعل بعضنا قد سمع أو قرأ قصصًا واقعية لذلك، من أكثرها شيوعًا فيمن بلغ منزلة عالية في الإيمان والتعبد ثم افتُتِن بالنساء، حتى هلك وقُبضت روحه وهو على ذلك الحال. مثل هذا كله يكون سببه علة في النيات أو في الإخلاص مع الله، نسأل الله السلامة والتوفيق. ومن أراد أن يعتبر من مثل تلك القصص فليرجع إلى الكتب المختصة.

بل ويزيد من انحدار منزلتي ارتكابي للمعاصي، إذ إني حتى إن زعمت أني صالح بالرغم مما أقترفه، فإن هناك الشخص الذي هو أتقى مني، يعمل الصالحات ولا يستبيح معصية الله أو حتى تضييع الوقت بالاستطالة في المباحات. فلا شك أن مثل هذا الشخص أفضل عند الله مني، إذ إنه أتقى لله وأحرص على بلوغ التفضيل عند الله. لعلي سهوت عن قول الله تعالى {إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} [الحجرات 13، جزء من الآية].

ويكون المبدأ الفكري أفجَّ إذا تَهَيأ للمرء أنه يحق له أن تكون له استثناءً في معصية مُحددة يعتادها، ولا يرى بأسًا في ذلك. فكيف يكون حقه وهو كله على بعضه مِلكٌ لله؟ فحتى جسده ليس ملكه، وإنما هو إعارة له من الله، فبأي جُرأة يُحلُّ لنفسه حدًّا من حدود الله؟ وبأي حقٍ يُحدد ما هو حقه لاسيما إذا كان هذا خارج الإطار الذي وضعه الله له؟! وهذا سنتكلم فيه باستفاضة في الفصل القادم إن شاء الله.

وهناك من ينحدر إلى مراحل أقبح من هذا كله، قد خلطوا بين الاغترار بأنفسهم أنهم بلغوا من المنزلة عند الله ما لا يبلغه إلا المُستثنائون، وبين الجرأة على عصيان الله. يظن أحدهم، بعدما اقتنع أنه عند الله بمنزلة رفيعة، أن له أن يعصي الله مُطلقًا، وهذه علة خطيرة في العقيدة، ينشأ منها من الآفات القلبية والقولية والفعلية البالغة في عظم خطورتهم أيضًا.

حالهم للناظر أشبه بمن قال الله فيهم {أَفَمَن زُيّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاء وَيَهْدِي مَن يَشَاء فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ} [فاطر 8]. فقد حُكي أن منهم من يُرى وهو على معصية مع أنه يرسم بين الناس أنه عارفٌ بالله مُتَعَبِّد، ويستعظمه كثير من الناس، فإذا سُئل عن هذا قال مثل: أنتم لا تعرفون أين أكون (مع الله)، فإني أعصي الله حتى أنزل. ومنهم من يقول: العارف (بالله) لا تضره المعصية، كما تضر الجاهل.

فمِن أين نبدأ بذكر الآفات الواضحة، فمن الظاهر من أفات قلوبهم: الرياء، والكبر، والغرور، والأمن من مكر الله، ومدح النفس، واستعظام أنفسهم. ومن أفات العمل يظهر: الجرأة على شرع الله،

والجهر بالمعصية مع نشرها بين المسلمين، والتهاون بعصيان الله. ولافترائهم هذا عدة ردود، قد ذكرنا بعضهن من قبل مثل تزكيتهم أنفسهم بأنهم من الأخيار.

لكن لحسم الموضوع، هل يرى أحدهم أنه بلغ منزلة الرُّسُل في الأفضلية؟ فإن قال نعم، فقد بان بطلان كلامه وكَذِبه إذ لم ينزل عليه كتاب من عند الله حتى يكون بتلك الدرجة من التميز. أما إن قال إنه لم يبلغ تلك المنزلة، فهو أدعى أن يتقي الله ويُقلع عن المعاصي فورًا، إذ إن الرُّسُل أنفسهم قد وصلهم التحذير من الله أنهم إن عصوه فإنه سيبطش بهم. وهذا واضح في آيات مثل {وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا (73) وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا (74) إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا} [الإسراء 73-75]، وفي قوله تعالى {وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (44) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (45) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ} [الحاقة 44-46].

ثم إن هذا النهج مُخالفٌ لسُنَّة الرسول (صلى الله عليه وسلم) التي أُمرنا أن نتبعها، فإنه لم يعصِ الله مع أنه أشرف الخلق عند الله، بل وقد غُفر له ما تقدم وما تأخّر من ذنبه، ومع هذا لم يُقبل على معصية واحدة حتى. هذا وقد قال الرسول (صلى الله عليه وسلم) أنه لن يدخل أحدٌ الجنة بأجر عمله، ولا الرسول أيضًا إلا أن يتغمده الله بفضله ورحمته، فأنَّى لمن هو أدنى من رسولٍ أن يطمئن أنه سيدخل الجنة، ويعصي الله على هذا الأساس؟! فلنحذر كل الحذر من الاقتناع بمثل هذه الأفكار.

كل هذا ولم نتطرق للمصيبة الكبرى المُحتملة، ألا وهي أن ماذا لو كانت تلك الأعمال -التي أراها أنها صالحة وثقيلة- تكون في الحقيقية معاصي؟! للتو قد مررنا بآية فاطر التي تذكر أن هناك من الناس من زُيّن له سوء عمله فرآه حسنًا، فكم منا يدرك أن من تفاسير تلك الآية هي لمن يرتكب المعصية ظنًّا أنها عمل صالح يبلغ الآفاق في إرضاء الله؟! هذا واضح في المُشركين والمُبتدعين، كمن يُقدِّم القرابين إلى وليٍّ من أولياء الله ليتقرب إلى الله، أو كمن يُصلي على الرسول (صلى الله عليه وسلم) على أنغام المعازف. وممن شملتهم الآية هو من يسرق منصبًا أو ما لا يخدع نفسه أنه سيُقدِّم به ما لا يفعله الناس من خير ومنافع، فحتى إن فعل الخير بذلك فلن يقبله الله منه لأن الله لا يقبل إلا طيبًا، بل أنه تعالى لا يُجيز ارتكاب المعصية تحت ذريعة إتمام الخير.

إجمالا وبناءً على كل تلك النقاط، إن الاقتناع بهذا الفكر خاطئ ويقود إلى الهلاك، بل إلى حد أن العبد الذي لا يُقدِّم عملًا صالحًا كثيرًا ولا يعصي الله يكون أفضل من الذي يتبنى مثل هذا المنهج الفكري. ذُكِرَ رجل عند النَّبي (صلى اللَّهُ عليه وسلم) بِعِبَادَةٍ واجتهادٍ، وذُكِرَ عنده آخر بِرِعَةٍ (أي بورعه عما نهى الله عنه)، فقال (صلى اللَّهُ عليه وسلم) "لَا يُعْدَلُ بِالرِّعَةِ"[1]، أي لا يُعدَل بكثرة

[1] سنن الترمذي 2443.

الوَرَعِ خصلَةٌ غيرها من خِصَالِ الخير، بل الوَرَعُ أعظم فضلًا ما دام يؤدي ما افترضه الله عليه. ونقل ابن المبارك في كتابه "الزهد" أن سيدنا ابن عباس (رضي الله عنه) سُئل في الأفضلية بين رجُل قليل العمل قليل الذنوب ورجل كثير العمل كثير الذنوب، فقال: لَا أَعْدِلُ بِالسَّلَامَةِ شَيْئًا. فإن ترك العصيان في كل الأحوال، سواء كان العمل الصالح للمرء كثير أو قليل، ركيزة أساسية.

وأخيرًا، هناك حديث يشمل هذه القضية، يُبطِل التمسك بهذا المنهج، ألا وهو عندما ذُكر لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) رجال يَنْصَبُونَ (أي يجتهدون) في العبادة من أصحابه نصَبًا شديدًا، فقال "تِلْكَ ضَرَاوَةُ الْإِسْلَامِ وَشِرَّتُهُ، وَلِكُلِّ ضَرَاوَةٍ شِرَّةٌ، وَلِكُلِّ شِرَّةٍ فَتْرَةٌ، فَمَنْ كَانَتْ فَتْرَتُهُ إِلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ فَلِأُمٍّ مَا هُوَ، وَمَنْ كَانَتْ فَتْرَتُهُ إِلَى مَعَاصِي اللَّهِ فَذَلِكَ الْهَالِكُ"[1] (ضَرَاوَةُ أي عادةً وتَعَلُّقًا به لا يُصبر عنه، وَشِرَّتُهُ أي الحرص على الشيء والنشاط فيه والرغبة، والشِرَّة: الحدة والقوة؛ فَتْرَةٌ أي استرخاء ووَهن، والفَترة: الضعف والانكسار؛ فَلِأُمٍّ ما هو أي قَصَد الطريق المستقيم). هذا يعني أنه إذا عمد أحد هؤلاء الصحابة إلى المعاصي في أوقات ضعفه بعد اجتهاده ذلك لَهَلَك، وكفى بهذا الحديث للرد على هذا المنهج الفكري.

إنه يحق لي أن أختار معصية واحدة أكون معذورًا في ارتكابها

هذا الفكر قد يُسوَّل للعبد من عدة طرق، مثل عندما يرى أنه يُنجز أعمالًا صالحة كثيرة، فيريد أن يكون له منفذ لنفسه للترفيه. أو قد تأتي هذه الفكرة بناءً على مبدأ أن الإنسان بطبعه معيوب، فمن المنطقي أن يتقبل عيبه ويعيش مع عِلَّته بأن يحتضن معصية مُحددة يستهويها، أو قد شق عليه مجاهدتها، وتكون تلك هي "سلبيته". فلا بأس بهذا في نظره لأن كل شخصٍ له "سلبيته" أيضًا. والعلة تكمن في أن الإنسان بالفعل معيوب ويقع في المعاصي، ولكن المطلوب منه أن يُجاهد نفسه عن الوقوع في المعصية ويستغفر إذا وقع فيها. فليس الحل أن يشرد عن الطريق الموضوع له بأن يُلازم معصية ويعتنقها بجوانبها (بما في ذلك أضرارها، ومن ثمَّ لا يحاول مقاومتها)، بل وقد يصل إلى مرحلة إدمانها.

فقد أقول لنفسي إنه لا بأس، بل وقد تتجرأ نفسي ويتسوّل لي في فكري أنه يحق لي، أن تكون لي معصية واحدة أعتادها، ولعلي أتمادى أكثر في الضلال بأن أطمع أن تُستثنى من أن تُحسب عليَّ ذنبًا، ولكن من أين لي هذا الإذن أو الحق؟ أهو عهد أخذته من الله، أم مِن دليل وجدته في الكتاب أو السُنَّة الشريفة؟ إن كان عهدًا أحسبه على الله أنه حقي، فذلك المنهج مثل مبدأ الذين قالوا {وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاما مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ} [البقرة 80]. أما إن كان ظني أنه من الشريعة في شيء، فعليَّ أن ءأتي بدليل ولا

[1] مسند أحمد 6254.

أفتري الكذب على الإسلام، وإلا أكون مثل الذين وصفهم الله {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ} [آل عمران 24].

فيا لتناقض الحال، إذ ادّعوا وأرسخوا في أنفسهم فكرة أنهم سيُعذبون فقط أيامًا، ولم تكن مبنية على دليل من دينهم، فغرهم مبدأ حرَّفوه من دينهم، مما حملهم على التفريط في دينهم. فالسخرية تكمن في أن التي حملتهم على هتك دينهم هي فكرة زعموا أنها من دينهم! هذا والفكرة أرسخوها حتى يُبرِّروا ارتكاب ما يحلو لهم من الشهوات، وما يُمليه عليه هواهم ليتمتعوا في الدنيا، ولكن التَفَّت عليهم تلك الفكرة وانقلبت عليهم من شدة محاولتهم لإرساخها، حتى إنهم صدَّقوها وارتكزوا عليها لهتك دينهم. فخدعوا أنفسهم وبال عليهم بالهلاك منهجهم الذي كان من المفترض أن يعود عليهم بالمميزات (عن طريق إباحة المحرمات لهم).

وهناك حديث واحد قد يُعمد في استغلاله بسبب هوى النفس في هذا الموضع، قد يدعم ذلك الفكر إن فُهم خطأ، وهو حديث النبي (صلى الله عليه وسلم) "مَا مِنْ عَبْدٍ مُؤْمِنٍ إلا وَلَهُ ذَنْبٌ يَعْتَادُهُ الْفَيْنَةَ بَعْدَ الْفَيْنَةِ، أَوْ ذَنْبٌ هُوَ مُقِيمٌ عَلَيْهِ لا يُفَارِقُهُ حَتَّى يُفَارِقَ، إِنَّ الْمُؤْمِنَ خُلِقَ مُفْتَنًا تَوَّابًا نَسِيًّا، إِذَا ذُكِّرَ ذَكَرَ"[1]. والواقع هو أن الحديث ليس فيه حثٌّ على ملازمة معصية، ولا يُغرر على الإقدام عليها، إنما هو حثٌّ للتوبة ولتطمين التائبين، ولمواساة اليائسين. وهذا بناءً على أنه من ارتكب ذنبًا فلا ينبغي له أن يقنط من رحمة ربه، أو يعتقد أن ذنبه أعظم من عفو الله ورحمته، ولو تكرر منه الوقوع في نفس المعصية لضعفه، خصوصًا إذا كان يتحول عن المعصية حين يتم تذكرته بالله. وما على المذنب سوى التوبة الصادقة، والعزم على عدم العود إلى ذنبه مرة أخرى.

وقد قال الشيخ محمد عبد الرحمن المباركفوري (رحمه الله) عند شرحه لحديث "وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللَّهُ بِكُمْ وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ فَيَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ"[2] أنه قال الطِّيبي: ليس الحديث تسلية للمنهمكين في الذنوب كما يتوهمه أهل الغرّة بالله، فإن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم إنما بُعثوا ليردعوا الناس عن غشيان الذنوب، بل بيان لعفو الله تعالى وتجاوزه عن المذنبين ليرغبوا في التوبة. والمعنى المراد من الحديث هو أن الله كما أحب أن يعطي المحسنين أحب أن يتجاوز عن المسيئين، وقد دل على ذلك غير واحد من أسمائه: الغفار، الحليم، التواب، العفو.

ولم يكن ليجعلَ العباد شأنًا واحدًا كالملائكة، مجبولين على التنزه من الذنوب، بل يخلق فيهم من يكون بطبعه ميَّالًا إلى الهوى متلبسًا بما يقتضيه، ثم يكلفه التوقي عنه، ويحذره من مُذَاناته [أي

---

[1] أخرجه الطبراني في المعجم الكبير 304/11، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة 2276، ولكن تعقبه الشيخ محمد عمرو بن عبد اللطيف في جزئه: حديث (ما من عبد مؤمن إلا وله ذنب يعتاده الفينة بعد الفينة) في الميزان، وقال إن الحديث ضعيف؛ رحمهم الله جميعًا.

[2] صحيح مسلم 4936.

الاقتراب منه]، ويُعرِّفه التوبة بعد الابتلاء. فإن وفَّى: فأجره على الله، وإن أخطأ الطريق: فالتوبة بين يديه، فأراد النبي صلى الله عليه وسلم به أنكم لو كنتم مجبولين على ما جبلت عليه الملائكة لجاء الله بقوم يتأتى منهم الذنب، فيتجلى عليهم بتلك الصفات، على مقتضى الحكمة؛ فإن الغفَّار يستدعي مغفورًا، كما أن الرزَّاق يستدعي مرزوقًا[1] (انتهى).

ثم لا ينبغي الإغفال عن الجزء الأخير من الحديث حتى لا نكون من الذين يأخذون جزءًا من دينهم ويتركون جزءًا، وهو "إِنَّ الْمُؤْمِنَ خُلِقَ مُفْتَنًا تَوَّابًا نَسِيًّا، إِذَا ذُكِّرَ ذَكَرَ"، ففيه دلالة على وجوب محاولة مدافعة المعاصي. ولكن لا بد للإنسان أن يُفتتن بالمعصية فيقع فيها، فطُلب من العبد المُجاهدة المستمرة في مقاومة المعصية، وذلك لإعلاء منزلته في الآخرة بحسب درجة مقاومته، ولِيُميز الله المجتهد من المتراخي.

ثم إن لفظين "تَوَّابًا" و"إِذَا ذُكِّرَ ذَكَرَ" يدلان على أنه يُطلب منه التوبة بعد المعصية أيضًا، وأنه إذا ذُكِّر فعليه أن ينتهي عن المعصية. ويدل ذلك أيضًا أن حال المؤمن غير حال المستحل أو المستخف بالمعصية، إذ في الحديث إشارة أن المؤمن يقع في المعصية ثم يتذكر ويتوب ولكنه قد يقع فيها ثانية. وهذا بخلاف حال المستبيح للمعصية، فإنه لا يندم ولا يتوب بين تكرار المعصية، وبالطبع لا ينوي تركها أبدًا والذي هو شرط من شروط التوبة، وفوق هذا قد لا يمتنع عنها إذا ذُكِّر بالله. فكل تلك النقاط تشير إلى أن الحديث ليس رخصة للعبد في أن يختار معصيةً واحدة له يستحلها، إنما هو يُخاطب ويُعالج واقع الحال الذي يعيشه العبد.

نقض آخر لهذا الفكر يظهر بمراقبة الواقع، وهو أن الإنسان لا يستطيع أن يُلزم نفسه ويُقصر هواه فقط على معصية واحدة، بل يتنوع في المعاصي، فكيف بالزعم أن له حقًّا في معصية واحدة وهو لا يستطيع الاقتصار عليها؟ فهذا، من باب المحاججة بالمنطق، وإن افترضنا أن مثل هذا العهد قد تم بين العبد وربه، فقد أبطله العبد لحظة وقوعه في معصية من نوع آخر. الواقع هو أن الإنسان لا يمكن أن يلزم فقط معصية واحدة ولو عزم، لأنه لا يستطيع أن يكبح نفسه من الوقوع في معاصي مختلفة، لأن النفس تَهوى التنوع في المحذورات كما تُحب التنوع في المباحات (مثل تغيير صنف الأكل).

فالعِلل في هذا المنهج التفكيري كثيرة، منها أن الذي يُشَرِّع الحلال والحرام هو الله ولا يحق لأحد أن يُعَدِّلَ الشرع على هواه، وإلا لعمّت الفوضى. وهذا المبدأ إذا طبَّقه الناس يؤدي إلى أُمة هالكة، لأنها تكون أُمة استحلت وتُرتكب فيها كل الحُرُمات، إذ إن كل فئة تستحل معصية مختلفة وتُقر بتحريم معصية تستحلها الأخرى، كُلٌّ بحسب هواه. ومن العلل أن الذي يستحل حرامًا يُعرِّض

[1] تحفة الأحوذي 193/7.

نفسه لمكر الله الذي لا قعر له لينتهي سقوط العبد، ولا سقف له للحد من درجته، ولا قوانين تَحكُمُه ليُتوقع مجراه.

بل والداهية أكبر من ذلك إن استحل تلك المعصية، أي أصر أنها ليست حرامًا بالرغم من اطلاعه على الأدلة على تحريمها، وهي أنه يكون قد أحل ما حرَّم الله، وبذلك يكون قد كفر، لأن سلوكه ذلك يتكلم بواقع الحال أنه لا يعترف بأن الله هو المُشَرِّع المُطلق. وعلى أرض الواقع، يظهر ذلك بأنه يُخالف ما أمر الله به ليس فقط في تلك المعصية، بل هو يتقاعس عن كثيرٍ مما أمر الله به مثل الصلاة، ويرتكب كثيرًا مما حرَّمه الله، وكُسر عنده مبدأ أن لله الأمر كله (أي الحُكم والسلطة في جميع الأمور). فيُثار كبرياء ذلك الشخص حتى يصل إلى أنه يُحارب دين الله في كثير من المواضع، بل وقد يسعى ويجتهد في ذلك وهو مُعجب بنفسه.

ثم إن الاقتناع أن المرء يحق له ارتكاب معصية مُحددة لا يخلو من أحد احتمالين، أن تكون المعصية عند الله إما من الكبائر وإما من الصغائر. فإن كانت كبيرة يعتادها، فهو أقرب للهلاك من النجاة، إذ إنه يُكرر عملًا يبغضه الله كثيرًا، فكيف ظنه بمعاملة الله له يوم القيامة؟ بل وهناك من الكبائر ما تستحق اللعن، مثل أخذ الرشوة، ومعنى اللعن كما فسَّره العلماء هو الطرد من رحمة الله، فما ظن العبد في مصيره عندما يُمنع من رحمة الله، يوم لا ينجو أحد بعمله الصالح إلا إذا شملته رحمة الله؟

أما إذا رأى العبد أنها صغيرة، فمِن ألخص العظات حول هذه النقطة هو ما قاله السلف الصالح: لا تنظر إلى صغر الذنب، وانظر من عصيت[1]. هذا وقد حذرنا الرسول (صلى الله عليه وسلم) من محقرات الذنوب لأنها تتراكم حتى تصبح حملًا على العبد يوم يُحصَون له، وتكرار المعصية بطريقة منتظمة من أكثر الطرق فاعلية في تراكم الذنوب. فكما أن المداومة على عملٍ صالح من أحب الأمور إلى الله كما نبأنا (صلى الله عليه وسلم) "سَدِّدُوا وَقَارِبُوا، وَاعْلَمُوا أَنْ لَنْ يُدْخِلَ أَحَدَكُمْ عَمَلُهُ الْجَنَّةَ، وَأَنَّ أَحَبَّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ أَدْوَمُهَا وَإِنْ قَلَّ"[2]، فمن المُتوقع أن تكون المداومة على معصية محددة (عمدًا) من أبغض الأفعال إلى الله.

ومن الحديث المذكور نستنتج أيضًا أنه بما أن المداومة على العمل الصالح من أحب الأمور إلى الله، فهذا يعني أنها تُعلي من قدر المرء عند الله علوًّا كبيرًا، وأن ذلك الفعل يكون له عائد كبير على العبد من جهة الحسنات على المدى الطويل. وقياسًا على هذا، فإن المداومة على عملٍ سيئٍ يعود على المرء برصيدٍ كبير من السيئات المُتراكمة يوم القيامة. فمن الحديث، نستطيع أن نستنتج المدى الذي قد يصل إليه المرء من الانحدار بسبب المداومة على معصية، وإن صغرت. وقد قال

[1] البداية والنهاية لإسماعيل بن كثير 13/.146

[2] صحيح البخاري 5983.

بعض الصحابة، منهما عمر وابن عباس (رضي الله عنهم): لا كبيرة مع استغفار، ولا صغيرة مع إصرار[1] (أي أن الكبيرة تُمحى بالاستغفار والتوبة إذ ليس هناك ذنب كبير على مغفرة الله، وأن الصغيرة تصبح كبيرة بالإصرار عليها).

ثم لنفترض أفضل الآمال، تفاؤلًا للعاصي، أن الذنب فعلًا صغير جدًّا فيحسبه الله كسيئة صغيرة جدًّا، ولنفترض أيضًا أن ذلك لا يُحدث حملًا كبيرًا على العاصي يوم القيامة مع تراكمه، ولكن ماذا عن حال قلب المرء؟ يتغافل كثير من الناس أن للمعصية شِقّين، شِقٌّ متعلق بالبدن وشِقٌّ متعلق بالقلب، فمن يُقبل على المعصية ببدنه يكون ذلك له جانب ينبع من القلب بلا شك، فالذي يُقبل على المعصية عادةً يشتهيها بقلبه.

وهنا تكون قضيتنا، فلنضع جانبًا أن المعصية تؤثر على الإيمان الذي في القلب سلبًا ولننتبه إلى ما هو يقع قبل ارتكابه للذنب، وهو أثر النية لارتكاب المعصية على القلب. إن كثيرًا من الذين يعمدون إلى المواظبة على معصية مُحددة لا يُلاحظون الجانب القلبي الذي يحدث، فإن تعمد تكرار المعصية عادةً لا تخلو من علة قلبية، إما أن تكون الاستهانة بحدود الله أو عقابه أو أن تكون غرورًا من المرء أنه سينجو من فعلته. فحتى إن كانت المعصية صغيرة جدًّا جدًّا، فإن الاستهانة بعقاب الله واغترار المرء بنفسه ليست بالذنوب الهينة عند الله، بل تلك الصفات من الذنوب العظيمة عند الله. وفي هذه الحالة، يكون الذنب القلبي أعظم بكثير من الذنب الذي يرتكبه المرء ببدنه، فيهلَك في الآخرة بسبب اعتقاده بدلًا من فعله.

وبضرب الأمثلة للتوضيح، وبقضية مرتبطة بما يدور في القلب، لعل بعضنا قد رأى واقعة أن شخصًا يكون مظلومًا من جبار فيدعو الله أن ينصره، فينصر الله المظلوم على الظالم، ولكن يحل على المظلوم الغرور فيشمت بما أصاب الظالم ويتباهى، فيجد المظلوم أنه انتكس مرة آخرة. ويكون انتكاسه هذا إما بإصابة المظلوم ببلاء أمام الظالم فينكسر غروره، وإما بإعادة بطش الظالم بالمظلوم نكاية في شماتته به، وربما يكون الانتكاس بغير ذلك من الطرق. هذا كله لأن الله لا يُحب الغرور ولا الشماتة ولا المباهاة (إلا في الحرب لردع ولقهر ولإرهاب من يُحارب الله). فإن المظلوم يكون معه الله حتى ينصره، فإذا نصره الله فاغتر العبد أو شمت (مع العلم أن الشماتة تختلف عن الوعظ أو التذكرة)، يُعرِض الله عنه، بل وربما يُعاقبه.

ولمن يُجادل أن الاعتقاد ليس من الأمور التي يُجازَى عليه المرء، فليتفكر في حديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ"[2]. فلينتبه إلى كلمة "فِي قَلْبِهِ".

---

[1] شرح النووي على مسلم 266/1.

[2] صحيح مسلم 133.

وعلى الوجه الآخر، قد يُجادل المرء أن آفات القلب لا تجلب السيئات، فلينتبه إلى آخر جملة في حديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "ثلاثٌ أُقسِم عليهنَّ، وأحدِّثُكم حديثًا فاحفظوهُ. فأما الذي أُقسمُ عليهنَّ: فإنهُ ما نقص مالُ عبدٍ من صدقةٍ، ولا ظُلم عبدٌ مظلمةً صبر عليها إلا زادهُ اللهُ بها عزًّا، ولا فتح عبدٌ بابَ مسألةٍ إلا فتح اللهُ عليهِ باب فقرٍ. وأما الذي أُحدِّثُكمْ فاحفظوهُ: إنما الدنيا لأربعةِ نفرٍ: عبدٌ رزقهُ اللهُ مالًا وعلمًا فهو يتَّقي فيهِ ربَّهُ، ويصلُ فيهِ رحمَهُ، ويعمل للهِ فيهِ بحقِّهِ، فهذا بأفضلِ المنازلِ؛ وعبدٌ رزقهُ اللهُ علمًا ولمْ يرزقْهُ مالًا فهو صادقُ النيةِ يقول: لو أنَّ لي مالًا لعملتُ بعملِ فلانٍ، فهو ونيتُهُ، فأجرُهما سواءٌ؛ وعبدٌ رزقَهُ اللهُ مالًا ولم يرزقْهُ علمًا فهو يتخبَّطُ في مالِهِ بغيرِ علمٍ، لا يتَّقي فيهِ ربَّهُ، ولا يصلُ فيهِ رحمَهُ، ولا يعملُ فيهِ بحقٍّ، فهذا بأخبثِ المنازلِ؛ وعبدٌ لم يرزقْهُ اللهُ مالًا ولا علمًا فهو يقولُ: لو أنَّ لي مالًا لعملتُ فيهِ بعملِ فلانٍ؛ فهو بنيتهِ، فوِزْرُهما سواءٌ"[1]. فالحذر كل الحذر من تسلل آفات القلب إلى المرء، ومن أركان الوقاية هو عدم الإصرار على المعصية.

ثانيًا: الأفكار التي تعمل نحو اليأس وإضعاف عزيمة المرء:

ما دمت خُلقت خطَّاء وسأقع في معصية ما لا محالة، فلماذا أُجاهد المعصية؟

قول ذلك للنفس من باب اليأس من مجاهدة المعصية.

واقعيًّا، إن المرء يجب عليه أن يدافع المعصية ما استطاع، فإن زل ووقع فيها وجب عليه الاستغفار. وليس الصواب هو أن يترك المرء نفسه دون مقاومة المعصية ويستغفر بعد الوقوع، لأنه إن فعل ذلك لم يسلم من أن يكون عادته وسجيته معصية الله، مما يؤول ذلك من عواقب وخيمة مثل التراخي في الدين والتكبر وترك الاستغفار آجلًا. وقولي لنفسي إني سأقع فيها لا محالة هي هدمٌ لآليات دفاع النفس عن المعصية، ومن ثمَّ تزداد نسبة وقوعي في المعصية، ولكن إن اجتهدت في مجاهدة المعصية أُصبح أقل وقوعًا في المعاصي.

وهذا مستدلٌ عليه من واقع الحياة حولي، فإن هناك أناسًا أقل وقوعًا في المعاصي عني ووقَّافين عند حدود الله، ومثل هؤلاء شملهم حديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "لا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي قَائِمَةً بِأَمْرِ اللَّهِ لا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ أَوْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ عَلَى النَّاسِ"[2]. فهناك أناس استطاعوا أن يحِدّوا من معصيتهم لله (إذ هل يُعقل أن يكون العصاة هم القائمين بأمر الله؟)، وهؤلاء أكبر دليل على أن الأمر ليس بمستحيلٍ أو غير واقعي أو ببعيدٍ عن متناول يدي مهما تقدم الزمن. فهذا الحديث، ومعه الواقع الذي أراه من حولي عن أناس أتقى مني،

---

[1] تخريج مشكاة المصابيح للألباني 5217. إسناده صحيح.

[2] صحيح مسلم 3548.

يُبطل الاحتجاج بأني سأقع في المعاصي لا محالة، لأنه مع أن المبدأ حقيقي إلا أنه يراد به باطلًا عن طريق التراخي في مقاومة المعاصي، ومن ثمَّ إطلاق الهوى، مما يُزيد من كمّ المعاصي بدرجة فجّة.

وإن قلت لنفسي 'إني لست معصومًا فلا بد ولا مفر من أن أُخطئ فأقع في المعصية فلأرتكبها إذًا، وما الداعي من مقاومتها'، أكون قد نصبت لنفسي أفخاخًا في لحظات ضعفي. ذلك لأن هذا النمط التفكيري يكون إما مكرًا وإما يأسًا، والمكر يكون نتيجة إعطاء نفسي رخصةً للخوض في المعاصي وإخماد صراخ الضمير. أما اليأس، فيكون بضعف الأمل في النجاة بعد الوقوع في المعصية، أو بالاستسلام لفكرة أن المُجاهدة لا تُجدي نفعًا في الامتناع، أو بسبب الإجهاد المؤقت من هذا الصراع المستمر.

من سلسلة الأحداث التي تقود إلى اليأس هي أن يعمد العبد إلى الإقلاع عن معصية مُحددة نهائيًّا، ويظل يجتهد، فتارةً يستطيع تفاديها وتارة يقع فيها بعدما استخدم شتى السُبل للابتعاد عنها، ويُحاول تكرارًا ومرارًا ولأمدٍ طويل، ولكنه يظل يقع فيها بين الحين والآخر. آنذاك يشعر بالضعف واليأس وقلة الحيلة، فيقتنع أنه لا الفائدة من مجاهدتها. وهذه مسألة مُتوقعة إذ إنه نتاج طبيعة النفس التي لا تُحب أن تشعر بالعجز، وطبيعة الشيطان الذي يُوسوس مثل هذه الأفكار في محاولة لإدخال العبد في اليأس ليترك مجاهدة المعصية.

هنا ينبغي إدراك أن مجاهدة المعصية مسألة، وترك المعصية مسألة أخرى، فليس كل من يزرع يَحصُدّ. إننا قد أُمرنا أن نُجاهد المعصية، ونؤجر على هذه المُجاهدة، ونؤجر ثانيةً إن استطعنا ترك المعصية؛ نُحاسَب على كل مسألة وحدها. أما استطاعة تحقيق تركها أو لا فهذه مسألة بيد الله وحده، تتحقق عندما يأذن الله بها، وهذا شبيهٌ بمسألة الهداية {إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ} [النحل 37]، ففي الآية دليل على أن جُهد ودعوة الرسول صلى الله عليه وسلم لا تشترط أن تُسفر إلى هدايتهم.

إنما يأذن الله بهذا عندما يشاء بحكمته، فمثلًا قد يكون عندما يرى الصدق البالغ قد تحقق عند العبد في ترك المعصية، والله تعالى وحده أعلم بالأسباب التي تجلب إذنه. هذا مع العلم أن الله بحكمته قد لا يأذن للعبد بتحقيق ترك المعصية، سواء نهائيًّا أو إلا بعد أمدٍ من الزمن، مثلًا لأن الله يرى أن هذه المعصية تجعل العبد مُتواضعًا أكثر مُتَضَرِّعًا بشدة، والله يُحب سماع تضرع عباده له، ولو تحقق ترك العبد لهذه المعصية لأصبح متكبرًا مغرورًا أو ابتَعَد عن ربه.

وينبغي أن ندرك أن مجاهدة النفس جولات، ولا بد من الصبر حتى تؤتي ثمارها، حتى إن لم تكن ثمرتها في الدنيا بتحقيق ترك المعصية، فإنها حتمًا لها ثمارها في الآخرة إذ في أقل التقديرات

تكون عذرًا للعبد أمام الله أنه حاول ترك المعصية بصدق، يوشك أن يعفو الله بها عن المرّات التي ارتكب العبد فيهن تلك المعصية. وهذا من باب حُسن الظن بالله، والذي هو من حُسن عبادة الله، في معاملته لعباده.

أما على الوجه الآخر، فإن اليأس الذي يُفضي إلى ترك مجاهدة النفس عن تلك المعصية يجعل العبد أقرب لاستحقاق عذاب الله، وإنما نُجاهد أنفسنا عن المعصية أملًا في أن يشملنا الله في رحمته، فاليأس من رحمة الله هلاك {وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [العنكبوت 23]. فهذا سفيان الثوري (رحمه الله)، الذي هو من الذين بلغوا الدرجات العُلى في الجمع بين العلم والزُهد والتقوى والعبادة، وشهد له الكثير من الفقهاء الثقال بهذا، يقول: ما عالَجت شيئًا أشد عليَّ من نفسي، مرَّةً لي ومرَّةً علي[1].

والدليل على أننا مُطالبون بمجاهدة النفس بصدق، بغض النظر عن النتائج على أرض الواقع بعد ذلك، يتبين جليًّا في قول الرسول (صلى الله عليه وسلم) "إِنْ قَامَتْ السَّاعَةُ وَبِيَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ، فَإِنْ اسْتَطَاعَ أَنْ لَا يَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَفْعَلْ"[2] (فَسِيلَةٌ هي شجرة النخل الصغيرة). فالمحاولة أساسية أكثر من المُحصِّلة بالنسبة إلى الأجر، لأننا نُحاسَب بناء على النيات الصادقة. وهناك حديث، ولكنه ضعيف الإسناد، للرسول (صلى الله عليه وسلم) جاء فيه "نيَّةُ المؤمنِ خيرٌ من عملِه، وعملُ المنافقِ خيرٌ من نيَّتِه، وكلٌّ يعملُ على نيَّتِه، فإذا عمل المؤمنُ عملًا، نارَ في قلبه نورٌ"[3].

ثم إن ضعف النتائج ليس بعُذرٍ عند الله لترك المُجاهدة، لأن المجاهدة مأمورة بها ولو بالقلب في أقل الأحوال، كما دل الحديث "مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ"[4]. بل وفيما هو أساسي أكثر، قد أمر الله رسوله أن يجاهد لتبليغ رسالة الإسلام، وأما النتائج المتمثلة في الهداية ومُحاسبة الناس على نياتهم فذلك متروك لله وحده {فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ} [الرعد 40، جزء من الآية].

ونقلًا عن مقالة لخالد راتب، كتب فيها: قال العلماء "نية المرء أبلغ من عمله، وأن العبدَ يبلغ بنيَّته ما لا يبلغه بعمله"، فالنية الصالحة توصل العبد للمراتب العالية والمنازل السامية ما لا يستطيعه بعمله؛ فالنية أبلغ من العمل، فإذا اقتَرَنا فهُما نور على نور، يهدي الله لنوره من يشاء. قال ابن القيم رحمه الله تعالى: فأما النية فهي رأسُ الأمر وعمودُه وأساسه وأصله الذي يُبنى عليه، فإنَّها روح العمل وقائده وسائقه، والعمل تابع لها، يُبنى عليها، ويصح بصحتها، ويفسد بفسادها، وبها يستجلب

---

[1] إحياء علوم الدين للغزالي 71/3.

[2] مسند أحمد 12512.

[3] السلسلة الضعيفة للألباني 6045؛ راوي الحديث: سهل بن سعد الساعدي.

[4] صحيح مسلم 70.

التوفيق، وبِعَدَمِها يحصل الخذلان، وبحسبها تتفاوت الدرجات في الدنيا والآخرة (إعلام الموقعين 199/4) (انتهى).

وهناك نقاط أخرى تقطع الطريق على الاستسلام لهذا الفكر، منها الحديث القدسي عن العبد الذي يتكرر منه المعصية، وكل مرة يندم ويُقرّ قائلًا: رب أذنبت فاغفر لي، فيقول الله "أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ، غَفَرْتُ لِعَبْدِي"[1]، فتتكرر المعصية ولكن لا يزال الله يغفر له كلما استغفر. فإذا وقع العبد في المعصية بعدما اجتهد في تجنبها، فهذا لا يعني انتهاء حياته ولا نهاية العالم، لأن الله ترك لنا باب الاستغفار منفذًا لنا من عقابه ومن كيد الشيطان، كما نبأنا سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) "إِنَّ الشَّيْطَانَ قَالَ: وَعِزَّتِكَ يَا رَبِّ لا أَبْرَحُ أُغْوِي عِبَادَكَ مَا دَامَتْ أَرْوَاحُهُمْ فِي أَجْسَادِهِمْ. قَالَ الرَّبُّ: وَعِزَّتِي وَجَلالِي لا أَزَالُ أَغْفِرُ لَهُمْ مَا اسْتَغْفَرُونِي"[2]، فلأستغفر ثم أُعاود مجاهدة نفسي مرة أخرى.

نقطة أخرى هي أنه إذا تفكر المرء في أبعاد هذا الفكر لأبصر أنه يتناقض، إذ إنه لو استطاع العبد أن يتفادى تلك المعصية في بعض الأحيان بمجاهدته إياها، فهذا ينفي أنه لا فائدة من مُجاهدة المعصية. فمجرد تقلُّص عدد مرات ارتكابه المعصية هو مؤشر إيجابي ودليل على أن مجاهدة النفس تأتي بثمار.

وأيضًا بالمنطق نتوصل لنقطة أخرى تُفنِّد هذا الفكر، وهي أن لو هذا الفكر صائب وتبنَّاه عامة الناس، لحدث ارتفاع فجّ في كمّ المعاصي المُرتكبة على الأرض، وهذا يُخالف قاعدة أن الله لا يُحب الفساد، فكيف يكون هذا الفكر عذرًا عند الله وبه سيزيد الفساد في الأرض؟ ثم ليستبشر المرء أنه لو، بمجاهدة النفس، استطاع أن يتفادى المعصية ولو مرة واحدة، فهذا فوز، لأنه انتصر على نفسه وعلى الشيطان، وتفادى تحميل نفسه وِزرًا، وما عليه الآن إلا جمع تلك الانتصارت.

إن مَثَل سوء الظن المتمثلة بهذا الفكر كمثل الاقتناع بأن العبد سيمرض لا محالة فلا داعي أن يأخذ من التدابير للوقاية من الأمراض، فيتنفس الهواء المُلَوَّث ويأكل الأكل الملوث ويمتنع من أخذ الأدوية والتطعيمات. هي حقيقةٌ أنه سيصاب لا محالة، ولكن الواقع هو أن الإنسان يأخذ احترازات ليُقلِّص من عدد المرات التي يمرض فيهن، وإن مرض فإنه يأخذ الأدوية ليُقصر من فترة مرضه وليُخفِّض من معاناته. فهو في الواقع يُحارب المرض في شتى مراحله، فكذلك ينبغي أن نكون مع المعصية.

[1] صحيح البخاري 6953، جزء من الحديث.

[2] مسند أحمد 10807.

وهناك آيات تحث على عدم اليأس بمثل هذا النمط الفكري، مع المواساة من الله مثل {وَلاَ تَهِنُواْ فِي ابْتِغَاء الْقَوْمِ إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللهِ مَا لاَ يَرْجُونَ وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيمًا} [النساء 104] (تَهِنُواْ أي الضعف والتخاذل، وأصل الكلمة من الوَهن). فانظر أخي، ماذا لو أن الرعيل الأول من المسلمين يئسوا بسبب المجهود الطائل الذي يبذلونه في محاربة أعداء الإسلام، وهذا فوق مجاهدة أنفسهم، وبسبب أن العوامل التي ضدهم كثيرة وكبيرة، وبسبب أن الأزمات التي عليهم اجتيازها مُعقَّدة للغاية، أين ليكون الإسلام اليوم؟ كل هذا ولكنهم استمروا وجاهدوا، لأنهم اختاروا أن يكونوا مع الله وعلموا أن الله سيكون معهم.

ولاحظ أخي أن الله لم يأمرهم فقط بالدفاع من هجمات العدو، بل إن الله حثهم على أن يطلبوا العدو (أي يلاحقوهم). والله واساهم لعلمه أنهم قد أُجهدوا وضعفت عزيمتهم، كما دل قوله تعالى {إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللهِ مَا لاَ يَرْجُونَ}.

فإيانا واليأس من المجاهدة لأن ذلك يُضعف الهمة ويستنزف العزيمة، وذلك يُسبب سلبية في النفس من الإقبال على العمل الصائب. وأثر ترك السعي قد لا يُلاحظ إلا في آخر الطريق، مثل تأثر سعة انتشار الإسلام بالفتوحات إن كان الرعيل الأول من المسلمين ضعفت همَّتهم واستسلموا للمشقة. وأيضًا مثل انخفاض منزلتي في الآخرة بسبب كثرة المعاصي، والأعمال الصالحة التي لم أُنجزها، يوم لا ينفع الندم أو عتاب النفس على سلبيتي.

بالرغم من صحة المقولة إني سأقع في المعصية لا محالة، فإن تعمد إطلاق النفس في المعاصي يخالف حكمة الله من ذلك. إن ابن آدم مُقدرٌ له أن يقع في المعاصي، ولكن ما يريده الله منا أن نجتهد في تجنب المعاصي قدر استطاعتنا {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ} [التغابن 16، جزء من الآية]، وأن نستغفره إذا وقعنا في معصية، فإننا نُبتَلى ليتم تحديد درجات العباد في الآخرة بحسب مجاهدتنا للمعاصي. ذلك لأن العبد الذي يعصي ربه ثم يندم يكون منكسرًا وذليلًا لله، راجيًا منه ومنيبًا إليه لأنه يُدرك أنه تعثر وأخطأ في حق الله، والله يُحب ذلك من العبد لأنه يجعل العبد أكثر تقربًا وتعبدًا لله.

لكن، من يتبنى حجة أنه واقع في المعاصي لا محالة فإنه يعمد إلى ترك مجاهدة النفس عن المعاصي، ولا يندم ولا ينكسر لأنه لا يرى أنه أخطأ. وإن شعر ببعض اللوم للنفس فإنه يُصرف ذلك بحجة أنه مُيَسَّر ومجلوب بطبعه على المعصية وليس مُخَيَّرًا، ويتبلد من كثرة معاصيه فلا يشعر بالحياء مما يفعله تجاه الله. ويُضاف إلى هذا أن التخطيط للمعصية أكثر تأثيرًا بالسلبية على العبد وأكبر إثمًا من المعصية العفوية.

ثم إنّ ترك مجاهدة النفس عن المعصية مُخالف لوصية رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بأن نجتهد في العمل، إذ قال "قَارِبُوا وَسَدِّدُوا وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَنْ يَنْجُوَ أَحَدٌ مِنْكُمْ بِعَمَلِهِ"، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَلا أَنْتَ، قَالَ "وَلا أَنَا، إِلا أَنْ يَتَغَمَّدَنِيَ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ"[1] (يَتَغَمَّدَنِيَ أي يغمُرني أو يتداركني أو يُلبسني). وفي الحديث ردٌّ غير مباشر على من يتبنى فكرة ارتكاب المعاصي بحرية لأنه سيقع فيها لا محالة، إذ إنه يُبين أن القضية لا تقتصر على الامتناع عن المعصية.

فحتى إن استطاع العبد أن يتجنب المعصية تمامًا (والمثل هنا هو الرسول صلى الله عليه وسلم)، فإنه لن يستحق الجنة بعمله، بل يدخلها أيضًا برحمة الله. فالقضية في الأساس قضية إصلاح النيات مع الله لاكتساب رحمته، مع دعم تلك النيات بالأعمال.

فلولا رحمة الله ما دخل أحدنا الجنة، ولا حتى أتقى شخصٌ –النبي (صلى الله عليه وسلم)،– فيجب علينا أن نعمل قدر المستطاع... مع الرجاء بأن يرحمنا الله في الآخرة. وإن العمل الصالح قد يجلب على العبد رحمة الله ولو كان قليلًا، كما دل الحديث الشريف "حُوسِبَ رَجُلٌ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ فَلَمْ يُوجَدْ لَهُ مِنْ الْخَيْرِ شَيْءٌ إِلا أَنَّهُ كَانَ يُخَالِطُ النَّاسَ وَكَانَ مُوسِرًا، فَكَانَ يَأْمُرُ غِلْمَانَهُ أَنْ يَتَجَاوَزُوا عَنْ الْمُعْسِرِ، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: نَحْنُ أَحَقُّ بِذَلِكَ مِنْهُ تَجَاوَزُوا عَنْهُ"[2]. ومع أن العمل مهما بلغ لن يقضي حق الله علينا، وسنظل دائمًا مدينين لله بما أنعم علينا به، فإن العمل الصالح الصغير (أو القليل) قد يبلغ عند الله ما لا يتوقعه أحد، إذا رأى الله فيه خصلة يُعظِّمها. فمثلًا إن كان يتَّصف بالتواضع لله ولعباد الله، أو الرحمة على الغير، أو الإحسان فيه، أو الصبر بالرغم من العسرة، أو الإخلاص البالغ، أو الذلة لله.

وهناك قصة (ضعيفة الإسناد) عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فيها تبصرة لنا، فيروي لنا قائلًا "خَرَجَ مِنْ عِنْدِي خَلِيلِي جِبْرِيلُ آنِفًا فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ، إِنَّ لِلَّهِ عَبْدًا مِنْ عَبِيدِهِ، عَبَدَ اللَّهَ تَعَالَى خَمْسَ مِائَةِ سَنَةٍ عَلَى رَأْسِ جَبَلٍ فِي الْبَحْرِ، عَرْضُهُ وَطُولُهُ ثَلاثُونَ ذِرَاعًا فِي ثَلاثِينَ ذِرَاعًا، وَالْبَحْرُ مُحِيطٌ بِهِ أَرْبَعَةَ آلافِ فَرْسَخٍ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ، وَأَخْرَجَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ عَيْنًا عَذْبَةً بِعَرْضِ الأُصْبَعِ، تَبَضُّ بِمَاءٍ عَذْبٍ فَتَسْتَنْقِعُ فِي أَسْفَلِ الْجَبَلِ، وَشَجَرَةَ رُمَّانٍ تُخْرِجُ لَهُ كُلَّ لَيْلَةٍ رُمَّانَةً فَتُغَذِّيهِ يَوْمَهُ، فَإِذَا أَمْسَى نَزَلَ فَأَصَابَ مِنَ الْوضُوءِ وَأَخَذَ تِلْكَ الرُّمَّانَةَ فَأَكَلَهَا ثُمَّ قَامَ لِصَلاتِهِ، فَسَأَلَ رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عِنْدَ وَقْتِ الأَجَلِ أَنْ يَقْبِضَهُ سَاجِدًا، وَأَنْ لا يَجْعَلَ لِلأَرْضِ وَلا لِشَيْءٍ يُفْسِدُهُ عَلَيْهِ سَبِيلا، حَتَّى بَعَثَهُ وَهُوَ سَاجِدٌ. فَفَعَلَ، فَنَحْنُ نَمُرُّ عَلَيْهِ إِذَا هَبَطْنَا وَإِذَا عَرَجْنَا، فَنَجِدُ لَهُ فِي الْعِلْمِ أَنَّهُ يُبْعَثُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُوقَفُ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَيَقُولُ لَهُ الرَّبُّ: أَدْخِلُوا عَبْدِي الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِي، فَيَقُولُ: رَبِّ بَلْ بِعَمَلِي، فَيَقُولُ الرَّبُّ: أَدْخِلُوا عَبْدِي الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِي، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ بَلْ بِعَمَلِي، فَيَقُولُ الرَّبُّ: أَدْخِلُوا

[1] صحيح مسلم 5041.

[2] صحيح مسلم 2921.

عَبْدِي الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِي، فَيَقُولُ: رَبِّ بَلْ بِعَمَلِي، فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِلْمَلائِكَةِ: قَايِسُوا عَبْدِي بِنِعْمَتِي عَلَيْهِ وَبِعَمَلِهِ؛ فَتُوجَدُ نِعْمَةُ الْبَصَرِ قَدْ أَحَاطَتْ بِعِبَادَةِ خَمْسِ مِائَةِ سَنَةٍ، وَبَقِيَتْ نِعْمَةُ الْجَسَدِ فَضْلا عَلَيْهِ، فَيَقُولُ: أَدْخِلُوا عَبْدِي النَّارَ؛ فَيُجَرُّ إِلَى النَّارِ فَيُنَادِي: رَبِّ بِرَحْمَتِكَ أَدْخِلْنِي الْجَنَّةَ، فَيَقُولُ: رُدُّوهُ؛ فَيُوقَفُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَيَقُولُ: يَا عَبْدِي، مَنْ خَلَقَكَ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا؟ فَيَقُولُ: أَنْتَ يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: كَانَ ذَلِكَ مِنْ قِبَلِكَ، أَوْ بِرَحْمَتِي؟ فَيَقُولُ: بَلْ بِرَحْمَتِكَ. فَيَقُولُ: مَنْ قَوَّاكَ لِعِبَادَةِ خَمْسِ مِائَةِ عَامٍ؟ فَيَقُولُ: أَنْتَ يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: مَنْ أَنْزَلَكَ فِي جَبَلٍ وَسَطَ اللُّجَّةِ، وَأَخْرَجَ لَكَ الْمَاءَ الْعَذْبَ مِنَ الْمَاءِ الْمَالِحِ، وَأَخْرَجَ لَكَ كُلَّ لَيْلَةٍ رُمَّانَةً، وَإِنَّمَا تَخْرُجُ مَرَّةً فِي السَّنَةِ، وَسَأَلْتَنِي أَنْ أَقْبِضَكَ سَاجِدًا، فَفَعَلْتُ ذَلِكَ بِكَ؟ فَيَقُولُ: أَنْتَ يَا رَبِّ، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: فَذَلِكَ بِرَحْمَتِي، وَبِرَحْمَتِي أُدْخِلُكَ الْجَنَّةَ، أَدْخِلُوا عَبْدِي الْجَنَّةَ، فَنِعْمَ الْعَبْدُ كُنْتَ يَا عَبْدِي؛ فَيُدْخِلُهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ. قَالَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلامُ: إِنَّمَا الأَشْيَاءُ بِرَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى يَا مُحَمَّدُ"[1].

ونلاحظ أنه يؤذن له بدخول الجنة فقط بعد أن أقر أنه فقير إلى رحمة الله، وأن عمله لم يوفِّ حق الله عليه. فالأمر يتلخص في السعي للوصول إلى رحمة الله ورضاه، وليس الامتناع عن المعاصي تمامًا، وبهذا ننجو إن شاء الله. فكيف يكون موقفي إن تركت طاعته، بل وعصيت الله، بحجة أني واقع في المعصية لا محالة؟! أذلك بدلًا من السعي لكسب رضا الله وابتغاء رحمته... ألست أسير في الاتجاه المعاكس؟ كيف سيؤول ذلك؟

سأفعل هذه المعصية فقط هذه المرة.

هذه خاطرة مغرية جدًّا تطرؤ لمن يُجاهد نفسه، ليُخفف وطأة لوم النفس من الإقبال على المعصية. والوضع لا يخرج عن حالة من الحالتين: إما تكون المعصية المرتكبة أول مرة يخوضها المرء، وإما أن ينوي الإقلاع عن معصية ما فيُقنع نفسه أن هذه هي آخر مرة.

في الحالة الأولى، يجب أن يُدرك المرء أن تعدي حاجز معصية ما يجعل اجتيازه مرة ثانية أسهل وأهون على المرء، إذ إن أول مرة لها مهابة ورهبة. المشكلة هنا هي أن المرء ينتهك مبدأ عنده، فمهما صغرت المعصية فقد تم كسر أكبر حاجز عن المعصية. بالمثل للتوضيح، قد يكون عند الطفل مبدأ أنه لن يسرق أبدًا إذ يرى أن هذا فعلٌ غاية في القُبح، ولكن عندما يكبر قليلًا ويتعرض لفتنة فقد يسرق مبلغًا صغيرًا، درهمًا مثلًا، وهو أقل من المبلغ الأدنى لقطع اليد. المشكلة هنا بهذه الخطوة هي أن المبدأ الشريف الراسخ فيه أنه لن يسرق أبدًا قد انهدم، مما يُمهِّد له الطريق أن يرتكبها ثانية في مبالغ أكبر. فالقضية هنا قد لا تكون صغر المعصية، والمشكلة الأساسية هي هدم مبدأ عند المرء.

[1] رواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين 7637، وقال: صحيح الإسناد؛ وصححه ابن القيم في شفاء العليل 346/1. ورد الحافظ الذهبى أنه ضعيف، وذكر الألباني الحديث في ضعيف الترغيب والترهيب 2099.

إذا تعدى المرء ذلك الحاجز، أصبح أصعب عليه مقاومة المعصية المرة ثانية إذا اشتهاها أو اعترضته، ويسهل عليه إعادة تخطي الحاجز. والمحصلة أنه عادة ما سيجد نفسه يُكرر هذه المعصية بمعدل أعلى مع مرور الوقت، قد عشقها فأدمنها ولا يستطيع تركها. وأي شخص بلغ أن يكون فاجرًا باعتياده السيئات (سواء كانت كبيرة أو صغيرة) يبدأ هكذا، فكل المعاصي لها حاجز أول مرة. بل وأكثر من ذلك، إذ ينبغي له أن يحذر من أن تجر هذه المعصية معاصي أفدح منها. والمُفاد من هذه المعلومات هو أن الأفضل للمرء ألا يرتكب معصية ما إذا أراد ألا يُصَعِّب مقاومة قلبه لها.

من أبرز الأدلة الواقعية، على أن للمعصية مهابة في قلب العبد حتى ينتهكها أول مرة إلى أن تُصبح هيّنة في قلبه مع تكرارها، يكمن في جزء من حديث للرسول (صلى الله عليه وسلم). قال "كَانَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا، فَسَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الأَرْضِ فَدُلَّ عَلَى رَاهِبٍ فَأَتَاهُ، فَقَالَ إِنَّهُ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟ فَقَالَ: لا، فَقَتَلَهُ فَكَمَّلَ بِهِ مِائَةً". فالقاتل كان يريد التوبة في الأصل، ولكنه قتل الراهب، بعد أن أُحبط أو غضب من إجابة الراهب، أيًّا كان الدافع. وهذا يدل على مدى اليسر والهوان الذي بلغه قتل النفس الذي حرّمه الله عنده. ويجب أن نرى ونستوعب أن لكل معصية أهلها الذين هم خاصتها وأجواؤها الخاصة التي تُهيأ لها، فهي عالَمٌ آخر، لا يدري المرء إن دخل ذلك العالَم أيخرج منه ثانيةً أم لا، وإن خرج فهل سيخرج سالمًا؟

لا ينبغي أن أغتر أني سأدخل وأخرج من المعصية سريعًا، أو أني سأخوض فقط في سطحها، فهذا صعبٌ وأقرب للمحال. ذلك لأنه قد جاء في حديث للرسول (صلى الله عليه وسلم) "ضربَ اللهُ تعالى مثلًا صراطًا مستقيمًا، وعلى جنْبَتَيِ الصراطِ سورانِ فيهما أبوابٌ مُفَتَّحَةٌ، وعلَى الأبوابِ ستورٌ مُرْخَاةٌ، وعلى بابِ الصراطِ داعٍ يقولُ: يا أيُّها الناسُ ادخلوا الصراطَ جميعًا ولَا تَتَعَوَّجوا؛ وداعٍ يدعُو مِنْ فَوْقِ الصراطِ، فإذا أرادَ الإنسانُ أنْ يفتحَ شيئًا مِنْ تِلْكَ الأبْوابِ قال: وَيْحَكَ لا تَفْتَحْهُ، فإنَّكَ إنْ تَفْتَحْهُ تَلِجْهُ. فالصراطُ: الإسلامُ، والسُّورانِ: حدودُ اللهِ، والأبوابُ الْمُفَتَّحَةُ: محارِمُ اللهِ تعالى، وذلِكَ الدَّاعِي على رأسِ الصراطِ: كتابُ اللهِ، والداعي مِنْ فوقٍ: واعظُ اللهِ في قلْبِ كُلِّ مسلِمٍ"[1].

فلا ضمانة لي منذ فتحي للباب، إذ إن فتحه يُحتِّم عليَّ إيلاجه (دخوله)، وليس عندي في الحقيقة علمٌ يقيني إذا كنت سأخرج منه أبدًا، ولا ميعادٌ حددته لخروجي منه. فالوضع أشبح بالبئر الذي أنزل فيه عمدًا وأنا لا أعلم عمقه ولا مدى زلقان تُربته، وأخدع نفسي قائلًا: إني لن أبلغ قاعه إذ إني أعلم ما الذي أفعله!

أما الحالة الثانية، فإن المرء الذي ينوي التوبة بعد أن يرتكب المعصية مرة أخرى إنما يُخادع نفسه، إذ غالبًا سيجد نفسه يزورها بين الحين والآخر تحت هذا العذر: ستكون هذه آخر مرة. ولكنها

[1] صحيح الجامع للألباني 3887.

في الحقيقة ليست كذلك، ودليل هذا أيضًا في الحديث عن الرجل الذي قتل تسعة وتسعين نفسًا، فحتى بعدما نوى وشرع في التوبة زلّت نفسه فارتكبها مرة أخرى بقتل الراهب. فلنصدق مع أنفسنا ولنواجهها، إذ إن من أراد التوبة حقًّا ينوي ترك المعصية دون ارتكابها ثانيةً أبدًا، وإلا قد ينتهي به المطاف أن يكون كالمستهزِء بعدم نيَّته تركها، أو قد يبلغ منزلة الماكر حتى، وعاقبة الماكر قد استفضنا فيها.

قد ارتكبت من المعاصي ما لا يُمكن إصلاحه

مع أن معظم الأحوال التي يقع فيها العبد في معصية الله تكون خلفيتها ما بين اغترار المرء بنفسه أو التمني الكاذب بالنجاة من العقاب أو مُحاولة المكر بقوانين الله، إلا أن في هذه الحالة تقع المشكلة على صعيد آخر: اليأس الشديد. فليحذر المرء من التوهم أنه بلغ مرحلة من الضياع لا يمكن الرجوع منها؛ مرحلة يُسَوِّلَ فيها الشيطان للعبد أن العبد قد اقترف من المعاصي ما يمنعه من الجنة ويوجب له النار. أي يتهيأ له أنه قد فجر إلى درجة أنه لا يمكن إصلاح ما أحدثه أو الرجوع منه، ويقتنع أنه لا يمكن أن يشمله الله في رحمته ومغفرته.

هذا مع أن اليأس من رحمة الله أمرٌ مذموم، إذ إن فيه تقليلًا من شأن صفات الله مثل رحمته وكرمه وغناه وعظمته. ثم إن اليأس يفيض بالمرء إلى الهلاك، إذ يترك نفسه ليغرق أكثر في مستنقع المعاصي بدلًا من الإنابة إلى الله. هذا في حين باب التوبة ليس مُغلقًا في الأصل ما دام أن الله اختار أن يترك روح العبد في جسده، أي مُتاح له فرصة للرجوع وتارك له منفذًا للنجاة، فما على المُذنب إلا أن يتَّخذ خطوات صادقة نحو الله، مع حسن الظن بربه أنه غفور رحيم لأقصى الحدود عن غنى وقوة.

ذم اليأس من رحمة الله جاء في عدة مواضع، منها ما في القرآن {قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ} [الحجر 56]، {يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ} [يوسف 87]. ومنها ما جاء في جزء من حديث لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) "وَثَلَاثَةٌ لَا تَسْأَلْ عَنْهُمْ: رَجُلٌ نَازَعَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ رِدَاءَهُ، فَإِنَّ رِدَاءَهُ الْكِبْرِيَاءُ وَإِزَارَهُ الْعِزَّةُ؛ وَرَجُلٌ شَكَّ فِي أَمْرِ اللَّهِ، وَالْقَنُوطُ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ"[1]. بل ومن شدة أضرار اليأس من رحمة الله، قد عدّه سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) من الكبائر عندما سُئِل مرة عن الكبائر، قائلًا "الشِّركُ باللهِ، والإياسُ من رَوْحِ اللهِ، والقُنوطُ من رَحمةِ اللهِ"[2].

[1] مسند أحمد 22817.

[2] مجمع الزوائد للهيثمي 109/1؛ قال إن رجاله موثوقون. وذكره الألباني في صحيح الجامع.

إن الشيطان يظل يُيَئس العبد من رحمة الله بأن يقنعه أن لا سبيل لإصلاح "المصائب" التي ارتكبها، وهذا كي يترك العبد العنان لنفسه فيرتكب معاصي أكثر وأكثر. آنذاك تراود العبد أفكار باطلة مثل "أنا مُقدّر لي أن أكون عاصيًا وكُتب لي دخول النار فلا حيلة لي"، أو "لن تزيدني هذه المعصية ثقلًا مقارنة بحمل المعاصي الكثيرة/الكبيرة التي ارتكبتها من قبل"، أو "أنا فاسد وهكذا يقول عنّي الناس فهكذا سأكون"، أو "لا يمكن أن يغفر الله لي ما اقترفته إذ إني فعلت أشياء غاية في الخبث والقبح والدناءة". وهذا كله لأنه قنط من النجاة ومن رحمة الله وعفوه وكرمه.

وهناك حديث شريف يُبطل ظن الفرد أنه لن يُغفر له بسبب قبح ما ارتكبه، وإن شهد الناس عليه بمدى قبح عمله ونفوا أن يُغفر له. الحديث منقول عن سيدنا جُنْدَبٍ (رضي الله عنه)، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَدَّثَ أَنَّ رَجُلاً قَالَ: وَاللَّهِ لا يَغْفِرُ اللَّهُ لِفُلانٍ؛ وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّى عَلَيَّ أَنْ لا أَغْفِرَ لِفُلانٍ، فَإِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لِفُلانٍ وَأَحْبَطْتُ عَمَلَكَ (أَوْ كَمَا قَالَ صلى الله عليه وسلم؛ يَتَأَلَّى أي يُقسِم أو يَحلِف)[1]. فهذه الواقعة مُعَبِّرة بما يكفي لترد على هذه القناعات الباطلة المُهلكة، اللواتي يؤدين إلى اليأس من التوبة والقنوط من رحمة الله.

ثم إن الأدلة تفوق الاقتناع بهذا الفكر، منها آيات مثل {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} [الزمر 53]. ومنها أحاديث مثل "قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي وَأَنَا مَعَهُ حَيْثُ يَذْكُرُنِي، وَاللَّهِ لَلَّهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ يَجِدُ ضَالَّتَهُ بِالْفَلاةِ، وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ شِبْرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وَإِذَا أَقْبَلَ إِلَيَّ يَمْشِي أَقْبَلْتُ إِلَيْهِ أُهَرْوِلُ"[2]، والحديث "وَلَوْ يَعْلَمُ الْكَافِرُ مَا عِنْدَ اللَّهِ مِنْ الرَّحْمَةِ، مَا قَنَطَ مِنْ جَنَّتِهِ أَحَدٌ"[3]، والحديث "قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ وَلا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ وَلا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً"[4]. فأي دعوة وترحاب هذا؟!

إن الله قد أوصانا بألا نقنط من رحمته، والذي يغفر لرجل قتل مائة نفس يغفر ما دون هذا، بل وإن ارتكب أكثر ما دام يصدق العبد في توبته. وإذا كان الكافر، بكل ما فعله قبل الإسلام، ولو حارب الإسلام وقاتل المؤمنين، يُغفر له بدخول الإسلام، فكيف يُحرّم المسلم الذي يشهد بوحدانية الله من مغفرة الله إذا تاب؟! فالمسلم المُذنب أدعى وأولى ألا يقنط من رحمة الله عن الكافر.

---

[1] صحيح مسلم 4753.

[2] صحيح مسلم 4927.

[3] صحيح مسلم 4948، جزء منه.

[4] سنن الترمذي 3463.

فلا ينبغي للمسلم أن يلتفت إلى ما سلف منه من مصائب عندما ينظر إلى عفو الله، إذ إن الله لا يبالي بما اقترفه العبد من معاصي عندما يعمد العبد إلى التوبة، ما دام يجتنب العبد الشرك بالله. جاء عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "قال اللهُ تعالى: مَنْ عَلِمَ أَنِّي ذو قدرةٍ على مغفرةِ الذنوبِ غفرتُ لَهُ ولا أُبالِي، مالم يشرِكْ بي شيئًا"[1].

وهناك أناس يرون أن أرجى آية بمغفرة الله هي قوله تعالى {إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ} [البروج 10]. جاءت هذه الآية في السياق عن أصحاب الأخدود، وهم الذين أرادوا القضاء على عبادة الله بحرق المؤمنين، فأوقدوا نارًا كبيرة وخيَّروهم بين الكفر أو النار، فقذفوا من أصرّ على الإيمان، حتى إنهم قذفوا رضيعًا مع أمه. لكن، توجد في الآية جملة محورية "ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا"، مما يدل على أنه من تاب منهم قُبلت منه توبته وغُفر له، بالرغم من بشاعة جريمته وشدة محاربته لكلمة "لا إله إلا الله". فمن منا فعل أسوأ من هذا؟

وحسمًا لهذه القضية، فلنفترض أن المرء بالفعل قد ارتكب معاصي كثيرة وجسيمة، واقتنع أن الله لن يغفرهم له (بالرغم من بطلان هذا الظن)، فكفى أن يضع نصب عينيه أن الله ليس بظالم. وهذا سيجعل المرء على الأقل أن يقف على ما هو عليه من معاصٍ سابقة، ولا يرتكب المزيد. بمعنى آخر، حتى إن كانت معاصيه كثيرة، فإن نار جهنم درجات والعذاب فيها أنواع، فالذي يُحرق في قدميه ليس كالذي يُحرق جسده كله، والذي يُحرق ليس كالذي يُكبَّل أو يُضرَب وهو يُحرق، فلماذا قد يزيد المرء من وضعه سوءًا في الآخرة ويُغرق نفسه في دركات أعمق، إن كان صادقًا مع نفسه؟ إن الله لا يزيد من عقاب العبد إلا عندما يزيد العبد من طغيانه وتَمَرُّده، فالمسألة مسألة درجات، وإنما جميعنا نعمل كي نُخفف عن أنفسنا العناء يوم القيامة. فهذه القناعة ليست بعذرٍ منطقي لارتكاب المعاصي.

تنتقدني وتهاجمني الناس لإعراضي عن المعصية

هذه المعضلة تصدر خاصة عندما يريد المرء الإقلاع عن معصية مُحددة تكون متفشية في المجتمع، إلى حد أنهم لا يكترثون بتحريمها أو حتى لا يقتنعون بتحريمها من الله. وهذا دون التطرق إلى معضلة أن ينهاهم عنها، ولكن نتداول قضية مدى بلوغ المعصية من التمكين على الناس إلى حد أنهم لا يريدون أحدًا أن يُعرِض عنها!

فمثال على تلك المعاصي هو الاستماع إلى المعازف، وأكل الربا عن طريق البنوك. ويزيد الوضع مشقةً على المرء إن كان مُحاطًا بكثير من هؤلاء المعتادين للمعصية، أو تكون له بطانة من أصدقاء السوء بسبب مكثه على تلك المعصية أمدًا من الزمن، ثم يعزم على الإقرار بالحق (بالاعتراف

[1] صحيح الجامع للألباني 4330.

أنها معصية، والخضوع لشريعة الله) والإنابة إلى الله. تنتاب المرء وساوس أنهم سيقولون عنه رجعي أو متشدد أو ما شابه ذلك، بل وقد يرى منهم اضطهادًا وازدراءً لرغبته في الاستقامة.

وبالرغم من أن هناك عدة ردود لتلك العقبة التي تقابل المرء الذي يريد الاستقامة لله، فإننا لن نستفيض طويلًا فيهن. منها مثلًا هو أن الأصل كان مجتمعٌ لا يألف تلك المعصية إذ إن الرسول (صلى الله عليه وسلم) قد أقام الدين في عصره، ونشره الصحابة (رضي الله عنهم) من بعده؛ فليس العكس هو الأصل، بل هو ما صار المجتمع عليه بسبب التراخي عن الحق مع إخماد الفطرة. ومنها أن الذين ينتقدون المرء الذي يريد أن يستقيم هم في الحقيقة يريدون تحقيق مصالحهم الشخصية على حسابه، إذ إن ملازمة أي معصية هي في الواقع معاناة وضررٌ للمرء.

ومنها أن من يُرضي الناس بسخط الله فقد هلك في الدنيا والآخرة، وأن الله الذي بيده مقاليد كل شيء يُعرِض عنه ويوكل أموره إلى أيدي الناس في حين يسخطون عليه ولهم مطامعهم الشخصية، مما يؤدي إلى الذل لا محالة. قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "مَنْ الْتَمَسَ رِضَا اللَّهِ بِسَخَطِ النَّاسِ كَفَاهُ اللَّهُ مُؤْنَةَ النَّاسِ، وَمَنْ الْتَمَسَ رِضَا النَّاسِ بِسَخَطِ اللَّهِ وَكَلَهُ اللَّهُ إِلَى النَّاسِ"[1] (مُؤْنَةَ أي عن احتياج نفقة الناس عليه).

بل وإذا أرضيت الناس بسخط الله فإن الله سيغضب عليَّ، وعاقبة هذا أن حتى الناس الذين كنت أبتغي إرضاءهم سيُبغضونني ويحتقروننني، بل وسيغدرون بي لا محالة، في نهاية المطاف. والعكس صحيح، كما نبأنا سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) "إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ عَبْدًا قَالَ: يَا جِبْرِيلُ إِنِّي أُحِبُّ فُلانًا فَأَحِبُّوهُ، فَيُنَادِي جِبْرِيلُ فِي السَّمَاوَاتِ: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُحِبُّ فُلانًا فَأَحِبُّوهُ؛ فَيُلْقَى حُبُّهُ عَلَى أَهْلِ الأَرْضِ فَيُحَبُّ. وَإِذَا أَبْغَضَ عَبْدًا قَالَ: يَا جِبْرِيلُ إِنِّي أُبْغِضُ فُلانًا فَأَبْغِضُوهُ، فَيُنَادِي جِبْرِيلُ فِي السَّمَاوَاتِ: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُبْغِضُ فُلانًا فَأَبْغِضُوهُ؛ فَيُوضَعُ لَهُ الْبُغْضُ لأَهْلِ الأَرْضِ فَيُبْغَضُ"[2]. فإرضاء الله هو الأساس، والأضمن في إرضاء جميع الأطراف إذ إن مُخالفتهم عند عصيان الله، وإن لم يرضوا به في الدنيا، سيرضون به قطعًا يوم القيامة لأن هذا سيعني أن الوزر عليهم سيكون أقل. ينبغي ألا أنسى أو يلتبس عليَّ أني خُلقت في الأصل لأعبد الله ولأُطيعه وأُرضيه، ثم إرضاء الناس بما لا يُخالف شرع الله.

ثم إن كان المرء يخجل أو يثقل عليه مشقة نقد ومهاجمة الناس له لهجره المعصية، فما بالنا بالذين أثنى عليهم الله لفعلهم أكثر من تخييب آمال الناس على معصية؟ أولئك الذين قالوا {قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ

[1] سنن الترمذي 2338، الحديث مرفوع منقطع ولكن صححه الألباني.

[2] مسند أحمد 10206.

لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ} [الممتحنة 4]. هؤلاء، الذين يوصينا الله أن نكون مثلهم، لم يهجرو المعصية وخالفوا أهواء العصاة فحسب، بل إنهم واجهوهم وزجرهوهم فأبلغوهم بالعداوة والبغضاء تجاه إشراكهم بالله، والتي هي أشد معصية تعلُّقًا في قلوب المشركين.

بل وأظهروا لهم أنهم يتبرأون منهم بالرغم من أنهم قومهم، إلى أن يعبدوا الله وحده. فإن كان الله قد حثنا على أن نتأسى بهؤلاء، أفلا يستطيع أحدنا على الأقل أن يتجاهل العصاة الذين يسخرون منه عندما يترك المعصية؟!

بل إن المُعضلة قد تكون أخطر من هذا، فكثير من الناس ينتقدون المُتمسكين بالإسلام على افتراض أن الإسلام يعيق عن تقدم الأمة، إذ ينظرون إلى الغرب والشرق بعين العزة والإجلال نظرًا لتقدمهم في شتى المجالات، وللرخاء الذي عندهم بعدما تخلوا عن "قيود" الأديان. فهم، بفكرهم هذا، في الحقيقة يدعون لنبذ الدين تمامًا لتحصيل الدنيا، وهذه من العقائد الكُفرية، وكيف لا إذ يدعون إلى الامتثال بفكر وسلوك الكفار؟ في هذه الحالة، الوضع ليس مسألة تلبية شهواتهم بعصيان الله أو نشر المعاصي مع تمسكهم بشهادة التوحيد، بل إن المسألة أصبحت قضية عقيدة، مسألة كفر أو إيمان.

ثم إن دعوتهم هذه من أشد الدعاوي إضلالًا لأنهم قلبوا الحقائق، إذ إن حال الأمة الإسلامية كان غاية في الرُّقي والتقدم والعزة عندما كان المسلمون يتَقون الله ويُطبِّقون شريعته. هذا حتى نبذ كثير من المسلمين الاعتبار لحدود الله، والداعين للاستزادة في التنصل من الشريعة هُم أئمة تلك الفئة، فتخاذلوا عن إتقان أعمالهم وعن الأمانة وعن التمسك بالمبادئ الحسنة، وانحدرت الأمة أخلاقيًّا واقتصاديًّا واجتماعيًّا وعلميًّا وهيبةً وغير ذلك، وتسلطَّ علينا مَن أخذ مما في أيدينا، حتى أصبح حالنا ما نحن عليه الآن. وقد رد أحد المتمسكين بدين الله على مثل هؤلاء المُدَّعين ردًّا قويًّا وحاسمًا فقال:

قالوا كِذابًا: دعوة رجعية معزولة عن قَرنَها العشرينِ!

الناس تنظر للأمام، فما لهم يدعوننا لنعود قبل قرونِ؟

رجعية أنا نغار لديننا ونقوم بالمفروض والمَسنُونِ؟!

رجعية أنا نصون حريمنا؟! بئس الحريم يكون غير مصونِ

رجعية أنا نذرنا أنفسا لله تحيا، لا لعيش دونِ؟!

رجعية أنا نربي جندنا للحق، لا لتفاهةٍ ومجونِ؟!

رجعية أن الرسول زعيمنا لسنا الذيول 'لِمَاركِسِ' و'لِنينِ'؟!

رجعية أن الجهاد سبيلنا؟! نعم، الجهاد ذريعة التمكينِ

رجعية أن يحكم الإسلام في شعب يرى الإسلام أعظم دينِ!

أوليس شرع الله –شرع محمد– أولى بنا من شرع 'نابليونِ'؟!

يارب إن تك هذه رجعية فاحشرنِ رجعيًا بيوم الدينِ![1]

هناك قصص قد ذكرها الشيخ محمد صالح المنجد في كتابه "أريد أن أتوب ولكن" لأناس ابتدروا إلى التوبة وطريق الصلاح، ولكن منهم من يتكالب عليه أصحابه السيئون ويكيدون له المكايد ليرجع عن طريق التوبة. وفيهم من أصحابه كانوا يأملون أن هذه ستكون فترة له وتمضي أو حالة وساوس وستزول، وكأن الإقبال على الله داء وضياع! وقد مر علي شخصيًّا موقفًا شبيهًا، فقد قال لي أحدٌ من الزملاء في بداية طريقي لإصلاح نفسي "لماذا تفعل في نفسك هذا؟"، وكان التعبير بالشفقة عليَّ، فشعرت كأنه يُقال لي: لماذا تُشوِّه وتؤذي نفسك هكذا؟ هذا وكنت أحسبه على صلاح قبل مقولته تلك؛ فتنة على فتنة.

وهناك من كان له قرينة سوء تأمر سائقها أن يتبع التائب وهو ذاهب إلى المسجد، فتُكلمه من النافذة. إنما يعمدون إلى تذكير المرء بالأوقات الممتعة وتزيين المعاصي للتأثير عليه، وربما يجعلونه يشعر أنه يرتكب جُرمًا أو أصبح خاسرًا، أي أنه على خطأ.

بل وربما يمنعونه عندما يُقبل على عمل صالح، فهناك من سلك منهج الترهيب بدلًا من الإغراء ليستميلوه، فقد شكا بعضهم أن أصدقاءه القدامى يهددونه بإعلان فضائحه بين الناس، ونشر أسراره على الملأ، إذ إن عندهم صورًا ووثائق، فهو يخشى على سمعته وخائف، لاسيما إن كانت أنثى. فهل مثل أولئك حقًّا أصدقاء يُرجَع إليهم؟! إن الله يعين العبد المُقبل عليه ويستره، فحتى إن وصل الأمر إلى أن يفتضح أمام جمع من الناس، فهذا لا يُساوي الفضيحة أمام الله في أثناء المُحاسبة وأمام الأشهاد. فالمنطقي هو المخاطرة باحتمالية كشف الزلات بدلًا من الكشف المحتوم للزلات، بل والمؤاخذة عليها، ولكن مع محاولة معالجة المشكلة بفطنة وحكمة إلى أن يرفعها الله دون أضرار.

[1] نونية القرضاوي.

فلا يُطع أحدنا مثل هؤلاء المُفسدين في الأرض، لأنهم يدعون إلى الهلاك، وقد ظهر منهم الخبث والدناءة في تصرفاتهم حتى مع من يرونه صديقهم. فمن أحق بالطاعة، قرناء السوء من العباد أم خالقك ومالِك الكون؟ فلنصبر على أذاهم ولنحتسب، ولنأخذ بالوصية {فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ} [الروم 60].

هذا وليتصارح المرء مع نفسه، أن هذا الفكر يحمل في طياته اقتناع المرء أن اللوم يقع على عاتق الناس حوله إذ إنهم فتنوه إلى المعصية وأن اللوم ليس عليه، فقد يكون يستخدمه كذريعة لتبرير إقباله على المعصية على أساس أنه كالمغلوب. والحقيقة هي أنه إذا خضع لهذه الفكرة، وأصبح ضحية لهؤلاء المُفتنين فارتكب المعصية، فلا جدال أنهم يُلامون على ارتكابه المعصية وأنهم سيحملون كفلًا من وزرها، ولكن هل هذا يعني أن اليد التي فعليًّا بطشت ظُلمًا والقدم التي مشت للاعتداء على الآخرين والعقل الذي دبَّر تنفيذ المعصية كلهم ليس لهم نصيب من الوزر، ومن ثمَّ العقاب والعذاب؟! هل المُرتكب الفعلي للجريمة ليس عليه شيء من اللوم لأن أناسًا آخرين هم الذين غرَّروه على فعل الجريمة؟ لو كان هذا الكلام صحيحًا لكان جنود فرعون مُبرّأون من وزر تنفيذهم لأوامر فرعون، وليس لمن قتلوهم قصاص من الجنود!

ولكن أقوى وأشمل نقطة تتصدى لهذه المعضلة وأي من هذه الضغوطات هي في مبدأ عام جاء في القرآن الكريم {هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَن يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا} [النساء 109]. وهذا لنا استفسار منطقي، أن مَن منهم سيجادل عن المرء بعدما أغروه أن يثبت على المعصية؟ الحقيقة هي: لن يجرؤ أحد من الناس مهما بلغت المودة، كائن من كان بين الناس أو له ما له من منزلة عند الله، أن يُصدِّر ويُعرِّض نفسه لبطش الله بالتدخل أمامه تعالى للدفاع عنك والمحاججة لك لتبرير ارتكابك للمعصية. هذا خاصةً أن الله قد أمر أكرم الخلق عنده، رسوله محمد (صلى الله عليه وسلم)، أن يُعلن للناس {قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا} [الجن 22].

فكيف لقرين السوء أن يُضحِّي بسلامته أمام الله في الآخرة من أجل نجاتك، بعدما كان يُضحِّي بك في الدنيا بقهرك لتحقيق غاياته؟ وكيف يتصدى عنك، وللعوار الذي في عملك، وعمله هو نفسه فيه عوار أكبر؟!

عامة الناس في لهوٍ وتقصير، ولا أستطيع أن أحمل هذا الدين وحدي، فلن يحدث فرق إن وقعت في بعض المعاصي

إن حال الأمة الإسلامية لا يخفى على من يُقرّ بالحق، وذلك بسبب تقصير أغلب المسلمين عما فرضه الله، مع إقبالهم على المعاصي. وهذا قد يجعل التقي ييأس إذ إنه يجتهد كثيرًا ليرتقي

بحال الأمة، في حين تتأخر شريحة كبيرة من المجتمع عن النهوض بالأمة، فيشعر كأن جهده يتبدد إذ إن المُحصلة أن حال الأمة يتدهور أكثر حاليًّا. ومع أن هذا صحيحٌ من جهة أن أغلب المسلمين ينبغي أن ينصلحوا حتى يحدث تحسن ملحوظ في حال الأمة، فإنه يجب ألا يترك إصلاح نفسه كفرد إذ إن الحساب أمام الله شخصي وفردي.

فالفرد في الأصل مسؤول عن نفسه، ثم عن الأمة. وعندما يُصلح المرء نفسه، حتى إن كان عامة المسلمين لا يُصلحون أنفسهم، فقد بدأ تلقائيًّا في إصلاح الأمة بالابتداء بنفسه. فإذا أكمل بأن يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ونصح الناس وأرشدهم إلى سُنَّة الرسول (صلى الله عليه وسلم)، فقد أعذر نفسه تمامًا أمام الله وإن لم يمتثلوا بموعظته، وعلى من لم يُصلح نفسه أن يواجه مصيره مع الله. إذا كان هذا هو الوضع، فقد تحققت شروط تطبيق الآية {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ} [المائدة 105].

لذلك يجب ألا ييأس التقي، ولا يتخذ تلك الحقيقة ذريعةً لنفسه ومبررًا كي يقع في المعصية هو نفسه (أو التَّقَاعس عن إصلاح نفسه). هذا لأن الناس الذين كنت أتحجج بهم لن يكونوا بجانبي وأنا أُحاسَب! فأعمالي لي أو عليَّ.

وإن فسدت سائر الأمة، فإني لا ألتزم بهذا الدين للناس، ولا أتقي الله فقط كي أنهض بالدين. إنما ألتزم بالدين وأتقي الله كي أنجو بنفسي أمام الله كوني وفَّيت ما عليَّ من مسؤوليات، سواء أحدث وفائي هذا تغييرًا ملموسًا في المجتمع أم لا. وذلك المبدأ هو نفس مبدأ وجوب النهي عن المنكر، فحتى إن فسد عامة المسلمين لدرجة أني أعلم أنهم لن يستجيبوا للنهي عن المنكر، فإن ذلك لا يُسقط وجوبه عليَّ. إن الله قد أمرني بالنهي عن المنكر سواء أحدث فرقًا أم لا، فالتكليف لا يسقط بتوقع النتيجة. ثم فوق ذلك، حتى إن لم يحقق النهي عن المنكر تغيرًا في الناس، فإن افتراض أن المجهود ذهب هباءً هو ظنٌّ باطل، إذ إن الله يُكافئ العبد على السعي بغض النظر عن النتيجة على أرض الواقع. وكذلك الوضع بين إصلاح النفس وأثره على حال الأمة.

وهذه قضية مهمة ينبغي أن يُدركها كل المسلم، أنه يُؤاخَذ على أداء مسؤولياته ولا يؤاخذ على النتائج، فعليه إصلاح نفسه وإرشاد الناس بالرفق دون أن يُلقي بالًا إلى ما يحدث بعد هذا، لأن الأهمية الأساسية هي ما يكتبه الله له من الأعمال والأجر، وليست النتيجة هي الغاية ولكنها مقصد. وهذا يتبين في حديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "إِنْ قَامَتْ السَّاعَةُ وَبِيَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ، فَإِنْ اسْتَطَاعَ أَنْ لَا يَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَفْعَلْ"[1] (فَسِيلَةٌ هي شجرة النخل الصغيرة). فالحث هو أن يفعل المرء الخير لله، وله الأجر عليه، حتى إن استيقن أن الأثر سيكون مُنعدمًا أو يُنكث. وهذا خاصةً أن

[1] مسند أحمد 12512.

النتيجة قد تأتي بثمارها بالفعل ولكن بعد أمد أو بطريقة لا يتوقعها ولن يراها هو. فمثلًا، قد يُصلح شخصٌ جانبي حاله مع أنه لم يكن هو المعنيّ بالعظة، ولكنه سمعها قَدَرًا.

وهذا المبدأ يُدركه البصير من المتقين، أنهم يلتزمون بالدين، ويتقون الله، وينهون عن المنكر، وغير ذلك من أجل حبهم لله، ولكي يكون معهم عذرهم أمام الله. وهذه الحقيقة تتبين في الذين ينهون عن فعلة أصحاب السبت {وَإِذَ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُواْ مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ} [الأعراف 164]. فإنك إذا تراخيت في دينك وخضت في المعاصي مثل عامة المُقصِّرين احتجاجًا بهم، أو تركت نهيهم عن المنكر يأسًا في استجابتهم، تكون قد تخاذلت في مسؤوليتك أمام الله وحمَّلت نفسك أوزارًا. فربما يُضيِّع عليك المُقصِّرون عزَّتك بالإسلام في دنياك إن لم تنهض الأمة الإسلامية بسبب كثرتهم، ولكن هل تتركهم يكونوا سببًا في ضياع آخرتك عليك أيضًا؟

ثم الخوف من تبني هذا المبدأ هو أن المرء قد ينزلق تدريجيًّا في مستنقع المعاصي، وينتهي به المطاف إلى أنه هو نفسه يكون مثل المسلمين المُقصِّرين الذين كان يلومهم في المقام الأول. والمُحصِّلة آنذاك تكون أنه يصبح هو نفسه من العبء على المتقين، بدلًا من أن يكون من الذين يُعانون من تقصير عامة المسلمين. وهذا التغيير لحال المرء قد يتأتى على مدى سنين تدريجيًّا (أو ربما عقود)، فلا يلاحظ ذلك حتى يُفاجأ في موقف أنه من الذين هم عبء على الدين وأن حاله قد انقلب! حتى إن لم ينقلب حاله، فهو يتشبَّه بالمُقصِّرين في الدين، فمن منا يرضى أن يعامله الله شبيهًا بما يعامل به المُقصِّرين؟

والحذر كل الحذر، فإن العقاب أو البلاء قد ينزل على المرء وحده دون سائر الناس لتبنّيه هذا الفكر، فقد يُجبر على التقصير في واجب خاصة لو كان يزدري إخوانه المسلمين نظرًا لأعمالهم، ثم يُحرم من ميزة لأنه فرَّط في هذا الواجب. مثالًا على ذلك، أنه يُحقِّر أعمال عامة المسلمين أمام أعماله، فيُعاقبه الله بالتخاذل عن أداء بعض الصلوات في المسجد اغترارًا بعمله، فينخفض عدد المصلين تراكميًّا، مما يؤدي إلى أن المساجد تُغلق بين الصلوات إجباريًّا كما يحدث في بعض الدول.

قد حُرِمَ من ميزة الصلاة في المسجد إذا تأخر، لعُذر، عن أول الوقت. يصبح هو عبئًا على الإسلام، وربما أيضًا عُدّ مع زمرة المُقصِّرين عند الله وهو لا يُدرك. الصواب هنا أن يُصلح العبد نفسه ويتمسك بالإسلام، مشفقًا وحزينًا على حال إخوانه بدلًا من أن ييأس منهم أو بسببهم، راجيًا الله أن ينصلحوا فيدعو لهم، ويأخذ خطوات لعونهم مثل أن يُذكِّرهم بالله.

وفكرة تطرأ على البال متعلقة بقضية هذا الفصل هي تحججي بأن الزمن فيه فتن كثيرة وأناس كثيرون على المعاصي، فأنا أقع فيها أيضًا لأنه يصعب الإعراض عنها. وأستند لوسوستي بحديث

رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "بَلْ ائْتَمِرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَتَنَاهَوْا عَنْ الْمُنْكَرِ، حَتَّى إِذَا رَأَيْتَ شُحًّا مُطَاعًا وَهَوًى مُتَّبَعًا وَدُنْيَا مُؤْثَرَةً وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ فَعَلَيْكَ بِخَاصَّةِ نَفْسِكَ وَدَعْ الْعَوَامَّ، فَإِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ أَيَّامًا الصَّبْرُ فِيهِنَّ مِثْلُ الْقَبْضِ عَلَى الْجَمْرِ، لِلْعَامِلِ فِيهِنَّ مِثْلُ أَجْرِ خَمْسِينَ رَجُلًا يَعْمَلُونَ مِثْلَ عَمَلِكُمْ"، قالت الصحابة: أَجْرُ خَمْسِينَ مِنَّا أَوْ مِنْهُمْ؟! قَالَ "بَلْ أَجْرُ خَمْسِينَ مِنْكُمْ"[1]؛ ففي الحديث دلالة على أن الفتن تزداد مع تقدم الزمن.

أُبرر تفلتي بأن لو كنت في زمن الرسول (صلى الله عليه وسلم) لكنت أتقى، إذ كان يُرشدهم وكانت الصحابة يشدُّون بعضهم بعضًا إلى الصلاح. لكن في الحقيقة، هذه المُبررات بها علل كثيرة، منها أن في الحديث لم يُسرّح الرسول (صلى الله عليه وسلم) بالوقوع في المعصية نظرًا لهذه الفتن، بل أوصى بالتركيز على نجاة النفس وإصلاحها، أي حفظها عن المعاصي، وعدم الرضوخ لفتنة فساد عامة الناس.

ثم إن الصحابة كانوا في زمن أصعب، إذ أدخلوا دينًا جديدًا على الناس، وهو الإسلام. الصحابة قد بدأوا في أجواء أسوأ مما أنا فيه، وهم من صنعوا بيئتهم الصالحة بعون الله. ثم إن الصعوبة هي جوهر الاختبار، فإذا كنت أنتظر سهولة تجنب المعصية، فأين الاختبار الصعب الذي يوصل للدرجات العُلى؟

يُضاف إلى هذا أن في قول ذلك للنفس هو اعتراضٌ على قضاء الله، وهذا لا يجوز. ما يتوجب على المرء فعله هو أن يتقبل ويتعامل مع ما وضعه الله فيه من ظروف، سواء اجتماعية أم صحية أم مادية أم غير ذلك، بأن يرضى بما قسمه الله له، ثم يجتهد في تقوى الله ونصرة الإسلام وسط تلك الظروف وتحت وطأة العقبات الحالية. وهذا ما يراقب الله عباده عليه، أي ما يفعلونه فيما اختاره لهم من معطيات بحكمته، فإن الله قد حدد لكل واحدٍ منا زمانه وبلده اللذين يكون فيهما، وحدد له ظروفه من النعم والابتلاءات، فليس وجودي في هذا الزمن عشوائيًّا.

وما يدريني، لعلي إذا كنت في زمن الرسول (صلى الله عليه وسلم) لزدت طغيانًا وتمردًا عما أنا عليه الآن، إذ ربما لا أتحمل ما تحمله الصحابة (رضوان الله عليهم) من الاضطهادات وتكاليف بالمجاهدة ومُخالفة عادات آبائهم وأقوامهم. فلعل الله أنعم الله عليَّ ووقاني أن أهلك بأن حال بيني وبين معاصرة تلك المرحلة، التي ربما كنت أتخاذل فيها فأستحق العقاب الشديد (مثل التخلف عن القتال). ويؤيد كلامي هذا ما قاله الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود (رضي الله عنه): إِنَّ اللَّهَ نَظَرَ فِي قُلُوبِ الْعِبَادِ فَوَجَدَ قَلْبَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَيْرَ قُلُوبِ الْعِبَادِ، فَاصْطَفَاهُ لِنَفْسِهِ فَابْتَعَثَهُ بِرِسَالَتِهِ، ثُمَّ نَظَرَ فِي قُلُوبِ الْعِبَادِ بَعْدَ قَلْبِ مُحَمَّدٍ فَوَجَدَ قُلُوبَ أَصْحَابِهِ خَيْرَ قُلُوبِ الْعِبَادِ، فَجَعَلَهُمْ

[1] سنن الترمذي 2984.

وُزَرَاءَ نَبِيِّهِ يُقَاتِلُونَ عَلَى دِينِهِ، فَمَا رَأَى الْمُسْلِمُونَ حَسَنًا فَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ حَسَنٌ، وَمَا رَأَوْا سَيِّئًا فَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ سَيِّئٌ[1].

فما بالي يتردد في نفسي: يا ليتني كنت في زمن الرسول (صلى الله عليه وسلم)، ولو كانت أُتيحت لي الفرصة فقط لكنت أقَرَّيت عينه (صلى الله عليه وسلم). فهذا الكلام شبيهٌ بالذي قاله رجل أمام سيدنا حذيفة بن اليمان (رضي الله عنه): لَوْ أَدْرَكْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَاتَلْتُ مَعَهُ وَأَبْلَيْتُ؛ فَقَالَ حُذَيْفَةُ: أَنْتَ كُنْتَ تَفْعَلُ ذَلِكَ؟ لَقَدْ رَأَيْتُنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْلَةَ الْأَحْزَابِ وَأَخَذَتْنَا رِيحٌ شَدِيدَةٌ وَقُرٌّ [أي برد]، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "أَلَا رَجُلٌ يَأْتِينِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ جَعَلَهُ اللَّهُ مَعِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟" [أي يتسلل إلى الأعداء ويأتي بمعلومات عنهم]، فَسَكَتْنَا فَلَمْ يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ، ثُمَّ قَالَ "أَلَا رَجُلٌ يَأْتِينَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ جَعَلَهُ اللَّهُ مَعِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟" فَسَكَتْنَا فَلَمْ يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ، ثُمَّ قَالَ "أَلَا رَجُلٌ يَأْتِينَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ جَعَلَهُ اللَّهُ مَعِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟" فَسَكَتْنَا فَلَمْ يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ، فَقَالَ "قُمْ يَا حُذَيْفَةُ فَأْتِنَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ"، فَلَمْ أَجِدْ بُدًّا إِذْ دَعَانِي بِاسْمِي أَنْ أَقُومَ[2]. فهذا مع جمعٍ من الصحابة (رضي الله عنهم)، الذين هم خيرة الناس عبر الزمن وأفضلهم نُصرةً للرسول (صلى الله عليه وسلم)، فكيف بشخصٍ مثلي أن يفعل؟

أو قد أقول: لو كنت في ذلك العهد لكنت أتقى مما أنا عليه الآن لأن المناخ العام يهيئ المرء للتقوى، والصحابة يعينون بعضهم على الخير. وما يدريني ما الذي كنت سأفعله فعليًّا في تلك المرحلة العصيبة، حيث كان الإسلام ينشأ فكان بين الناس غريبًا.

ويؤيد ذلك أكثر ما جاء عن سيدنا المقداد بن عمرو (رضي الله عنه)، وهو من أوائل من أظهروا إسلامهم في مكة فترة الاضطهاد، فهو أهلًا في أن يتكلم عن من آمن ومن أعرض، بل ومن حارب الإسلام. إنه قد رأى أناسًا استبطأوا في الاستجابة للرسول الله (صلى الله عليه وسلم)، وأناسًا حاربوه، في حين أسرع هو وقلةٌ من قريش للإيمان. يروي لنا سيدنا جبير بن نفير (رضي الله عنه) واقعة واعظة قائلًا: مَرَّ على المقداد رَجُلٌ فَقَالَ: طُوبَى لِهَاتَيْنِ الْعَيْنَيْنِ اللَّتَيْنِ رَأَتَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَاللَّهِ لَوَدِدْنَا أَنَّا رَأَيْنَا مَا رَأَيْتَ وَشَهِدْنَا مَا شَهِدْتَ. فَاسْتُغْضِبَ [المقداد]، فَجَعَلْتُ أَعْجَبُ، مَا قَالَ إِلا خَيْرًا! ثُمَّ أَقْبَلَ إِلَيْهِ فَقَالَ: مَا يَحْمِلُ الرَّجُلُ عَلَى أَنْ يَتَمَنَّى مَحْضَرًا غَيَّبَهُ اللَّهُ عَنْهُ، لا يَدْرِي لَوْ شَهِدَهُ كَيْفَ كَانَ يَكُونُ فِيهِ! وَاللَّهِ لَقَدْ حَضَرَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَقْوَامٌ أَكَبَّهُمْ اللَّهُ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ فِي جَهَنَّمَ لَمْ يُجِيبُوهُ وَلَمْ يُصَدِّقُوهُ، أَوَلا تَحْمَدُونَ اللَّهَ إِذْ أَخْرَجَكُمْ لا تَعْرِفُونَ إِلا رَبَّكُمْ مُصَدِّقِينَ لِمَا جَاءَ بِهِ نَبِيُّكُمْ قَدْ كُفِيتُمْ الْبَلاءَ بِغَيْرِكُمْ؟ وَاللَّهِ لَقَدْ بَعَثَ اللَّهُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى أَشَدِّ حَالٍ بُعِثَ عَلَيْهَا نَبِيٌّ مِنْ الأَنْبِيَاءِ، فِي فَتْرَةٍ وَجَاهِلِيَّةٍ مَا يَرَوْنَ أَنَّ دِينًا أَفْضَلُ مِنْ عِبَادَةِ الأَوْثَانِ، فَجَاءَ

[1] مسند أحمد 3418.

[2] صحيح مسلم 3343، جزء من الرواية.

بِفُرْقَانٍ فَرَقَ بِهِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَفَرَّقَ بَيْنَ الْوَالِدِ وَوَلَدِهِ، حَتَّى إِنْ كَانَ الرَّجُلُ لَيَرَى وَالِدَهُ وَوَلَدَهُ أَوْ أَخَاهُ كَافِرًا وَقَدْ فَتَحَ اللَّهُ قُفْلَ قَلْبِهِ لِلإِيمَانِ، يَعْلَمُ أَنَّهُ إِنْ هَلَكَ دَخَلَ النَّارَ، فَلا تَقَرُّ عَيْنُهُ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ حَبِيبَهُ فِي النَّارِ، وَأَنَّهَا لَلَّتِي قَالَ عَزَّ وَجَلَّ {الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ}[1].

قد أشمل وأصاب تمامًا فيما قاله، فقد كان عهدٌ فيه عند عامة الناس أن أفضل دينٍ هو عبادة الأصنام، وكان ذلك متأصلًا في عقولهم ومشاعرهم وتقاليدهم وعشيرتهم وبيوتهم، واعتادوا على ذلك لدرجة أنهم يتعجبوا إذا أراد أحدٌ أن يشذ عنهم ويعبد إلَهًا واحدًا! أفلم نقرأ قول الله تعالى فيما قالوه {أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ} [ص 5]؟

فقد قدَّر الله أن أحيا في هذه الفترة الزمنية، وهو أعلم بما هو أصلح لي، وأن زمن الصحابة كان أشد من الآن لأنهم بدأوا نشر الإسلام وهو غريب على الناس. وبلا شك فإن ذلك أصعب من الحفاظ عليه الآن وهو معروف بين الناس.

ثم في النهاية، هل أنا التفتُّ لحديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "طوبى لِلْغُرَباءِ"، قيل: ومَنِ الغُرَباء يا رسولَ اللهِ؟ قال "ناسٌ صالِحُونَ قَلِيلٌ في ناسِ سَوْءٍ كَثِيرٍ، مَنْ يَعْصِيهِمْ أكثرُ مِمَّنْ يُطِيعُهُمْ"[2]. فإن كان هذا الوضع الذي أشتكي منه قد نبَّأ به الرسول (صلى الله عليه وسلم)، وأن حال الصالحون فيه كالغرباء، وأن عامة الناس لا يستمعون لنصائحهم، أفأستسلم وأكون مع عامة العصاة عندما أتى ذاك الزمن؟ أفأنضم إلى زمرة الناس السيئة بدلًا من القلة الصالحون الذين بُشِّروا؟ أمنطقيٌ أني أقوم عن الاختبار اعتراضًا بعدما كنت أتوقعه؟! وهلّا انتبهت بحق إلى حديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "لا تَكُونُوا إِمَّعَةً، تَقُولُونَ: إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَحْسَنَّا، وَإِنْ ظَلَمُوا ظَلَمْنَا، وَلَكِنْ وَطِّنُوا أَنْفُسَكُمْ: إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَنْ تُحْسِنُوا، وَإِنْ أَسَاءُوا فَلا تَظْلِمُوا"[3]؟

إنما دوائي هو أن أُطبّق ما أمر به الرسول (صلى الله عليه وسلم)، إذ سأل عبد الله بن عمرو (رضي الله عنه) ليختبره "كَيْفَ أَنْتَ إِذَا بَقِيتَ فِي حُثَالَةٍ مِنَ النَّاسِ؟" قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ كَيْفَ ذَلِكَ؟ قَالَ "إِذَا مَرِجَتْ عُهُودُهُمْ وَأَمَانَاتُهُمْ وَكَانُوا هَكَذَا" (وَشَبَّكَ يُونُسُ بَيْنَ أَصَابِعِهِ، يَصِفُ ذَاكَ)، قَالَ: مَا أَصْنَعُ عِنْدَ ذَاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ "اتَّقِ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ، وَخُذْ مَا تَعْرِفُ، وَدَعْ مَا تُنْكِرُ، وَعَلَيْكَ بِخَاصَّتِكَ، وَإِيَّاكَ وَعَوَامَّهُمْ"[4] (حُثَالَةٍ هو الرديء من كل شيء؛ مَرِجَتْ هنا بمعنى اختلطت وفسدت؛ وَعَلَيْكَ بِخَاصَّتِكَ وَإِيَّاكَ وَعَوَامَّهُمْ أي تمسك بأمر الصالحين الذين هم قلّة وترك أمر أغلب الناس لأنهم في ضلال).

---

[1] مسند أحمد 22693.

[2] السلسلة الصحيحة للألباني 1619.

[3] سنن الترمذي 1930.

[4] مسند أحمد 6219.

عندي من البلاء الشديد ما يعذرني في ارتكاب المعصية، وأحتاج إلى التخفيف عن نفسي (بالمعصية)

قال تعالى {أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ (44) سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (45) بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ} [القمر 44-46]. يتوعد الله للذين كفروا بالهلاك في الدنيا والآخرة، والآخرة أدهى وأمر. ومن الآيات نستنتج أن ما يصيبنا في الدنيا من البلاء، مهما عظم، لن يكون شيئًا بالنسبة إلى عذاب الآخرة. وعلى هذا الأساس، ليست هناك متعة تُكافئ قدر عذاب المعصية.

إن المعصية تجلب معاناة في الآخرة ومتاعًا في الدنيا، ولكن قدر المعاناة في الآخرة أعلى من قدر متعة المعصية، مع أن العقاب يكون على قدر المعصية، وهذا لأن الإنسان بطبعه يجزع بالبسيط من المشقة في حين يجب أن تفيض النعمة حتى يفرح. للتوضيح، إن الناس إذا عندهم الصحة ولكن معهم من المال ما يكفي فقط حوائجهم، فستجد أن أكثرهم يسخطون بدلًا من أن يفرحوا. يُضاف إلى هذا أن الناس يجزعون ويُعانون من توقع العقاب من قبل أن ينزل حتى، مثل السارق الذي ينتظر قطع يده، فهو يظل يُعاني من الخوف والقلق إلى أن يتم تطبيق العقاب. فإن كان المرء يجزع من اليسير من بلاء الدنيا، فكيف سيكون حاله عندما يُصاب بعقاب الآخرة نتيجة معاصيه؟

وإن كنت أظن أن عندي من البلاء ما يبرر لي ارتكاب معصية، فهذا يعني أن كل من أصابه بلاء له مُبررٌ أن يعصي الله أيضًا. ولو كان هذا الاستثناء جائزا، لخاض كل الناس في المعاصي مقتنعين بأنهم معذورون، وآنذاك لانتشرت وعلت وسادت المعاصي في الأُمة. وما كثرة من هو أشد مني بلاءً وبأضعاف كثيرة، بل وفي جوانب متعددة من حياته مثل صحته وماله وأهله، ولكن فيهم من هو أتقى مني بمراحل، فهذا الواقع يُبطل عذري إذ استطاع غيري تحمُّل واجتياز البلاء.

ويجب أن يُعلم، أنه لا يخلو عبد من بلاء، فمنهم من يُبتلى في أمرٍ واحد ومنهم في عدة أمور، ومنهم من تكون بليته بسيطة ومنهم شديدة، ومنهم من يكون بليته في ماله ومنهم في صحته، ومنهم من تكون بليته عابرة ومنهم من تكون دائمة (مثل مرض مذمن أو فقدان ابنه)، ومنهم من تكون بليته خفية ومنهم ظاهرة واضحة. وهذا حتى إنك لترى الرجل ذا المال والسلطة والوسامة والصحة، ولكنه عنده أزمة نفسية تأكل فيه داخليًا، فهو يتعذب ولا يرى هذا أحد.

ولو أنك سألت شخصًا عن بلائه لحدَّثك عنه، ولكن غالبًا ما ستراه هيِّنًا أو تستخف به، وذلك لأنك لم تُصب به كي تُدرك أبعاده ومدى ثقله، تمامًا مثلما لم يُصَب هذا الشخص ببلائك فلا يتفهم ولا يستوعب مدى المعاناة التي أنت فيها. فلو أن البلاء كان عذرًا لارتكاب المعصية، لسادت الفواحش والإثم والظلم، ولكانت عيشة يسودها الهمجية، ولكان قانون الغابة هو الذي يسري. فهذا الفكر يدعو إلى الإفساد في الأرض.

هذا يُضاف إلى أن هذه الحجة تنقض المقصد من بلاء الله للعبد بالضراء والسراء، لأنه اختبار يُنظر كيف سيُبلَى فيه {وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا} [الفرقان 20] (أحد معاني الفتنة في الآية أن العبد يرى النعم على شخصٍ آخر)، وليس للتحجج به للإقدام على الفشل! إن من أهداف الابتلاء، سواء بنُقصان نعمة أم بالإصابة بمحنة، هو فصل الصادقين من الكاذبين في إيمانهم، ولترتيب الصادقين في درجات الآخرة بحسب أعمالهم {إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا} [الكهف 7].

قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "إِذَا سَبَقَتْ لِلْعَبْدِ مِنْ اللَّهِ مَنْزِلَةٌ لَمْ يَبْلُغْهَا بِعَمَلِهِ، ابْتَلَاهُ اللَّهُ فِي جَسَدِهِ أَوْ فِي مَالِهِ أَوْ فِي وَلَدِهِ، ثُمَّ صَبَّرَهُ حَتَّى يُبْلِغَهُ الْمَنْزِلَةَ الَّتِي سَبَقَتْ لَهُ مِنْهُ"[1]. فلننتبه لجملة " ثُمَّ صَبَّرَهُ"، إذ إنها تدل على أن صبر العبد شرطٌ في هذا الوضع، فإن لم يصبر العبد وسخط وعصى الله فلن يرتقي في المنزلة. وهذا ما أشار إليه قول الله تعالى {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ} [البقرة 155].

فإذا صبر العبد عند البلاء باتقاء الله، صار إلى منزلة غاية في الرفعة، إلى حد أن عامة المسلمين يغبطونه ويتمنون أنهم لو أُصيبوا بأشد البلاء وصبروا مثله. قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "يَوَدُّ أَهْلُ الْعَافِيَةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، حِينَ يُعْطَى أَهْلُ الْبَلَاءِ الثَّوَابَ، لَوْ أَنَّ جُلُودَهُمْ كَانَتْ قُرِضَتْ فِي الدُّنْيَا بِالْمَقَارِيضِ"[2] (قُرِضَتْ أي قُطِّعت؛ بِالْمَقَارِيضِ هي أدوات التقطيع مثل مقص الأشجار).

ومن الصحابة نأخذ العبر، فلنا في سيدنا سعد بن أبي وقاص (رضي الله عنه) في هذا الموضع أسوة لنا من واقعة عجيبة. ذاك عندما قَدِمَ إلى مكة، وَقَدْ كُفَّ بَصَرُهُ، جَعَلَ النَّاسُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ لِيَدْعُوَ لَهُمْ [إذ كان مُجاب الدعوة]، فَجَعَلَ يَدْعُو لَهُمْ. قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ السَّائِبِ: فَأَتَيْتُهُ وَأَنَا غُلَامٌ، فَتَعَرَّفْتُ إِلَيْهِ، فَعَرَفَنِي، فَقُلْتُ: يَا عَمُّ، أَنْتَ تَدْعُو لِلنَّاسِ فَيُشْفَوْنَ، فَلَوْ دَعَوْتَ لِنَفْسِكَ لَرَدَّ اللَّهُ عَلَيْكَ بَصَرَكَ. فَتَبَسَّمَ، ثُمَّ قَالَ: يَا بُنَيَّ، قَضَاءُ اللَّهِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ بَصَرِي[3].

وقمة التباين والتفاوت بين فكري هذا وبين نهج الصحابة يتضح في قول الله تعالى {وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا اسْتَكَانُواْ وَاللهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ} [آل عمران 146]. فهؤلاء أصابهم أشد مما يصيبني من بلاء، أصابهم بلاء متنوع وعظيم وهم يُجاهدون بجانب النبي (صلى الله عليه وسلم) في سبيل الله، ومع هذا لم يُثبطهم البلاء عن الاستمرار واستكمال العمل الصالح، وهو المُجاهدة.

---

[1] مسند أحمد 21306.

[2] سنن الترمذي 2326.

[3] مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين لابن قيم الجوزية 317/2.

ليس نتكلم أنهم أقبلوا على المعاصي بعدما أصابهم البلاء، بل نتكلم أنهم لم يتركوا العمل الصالح حتى، بعذر التهوين على أنفسهم. هؤلاء قوم إذا أصابهم البلاء زادهم إيمانًا، {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ} [آل عمران 173]، {وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا} [الأحزاب 22]. فهُم بخلاف من يتخذ موقف الخذلان عند البلاء، يُضعِف إيمانه بالمعصية.

يضاف إلى أن الابتلاء يُمّيز المؤمن من المنافق {وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ} [العنكبوت 11]، أن ابتلاء العبد هي سُنَّة الله في عباده حتى لا يفسقوا ويطغوا ويتكبروا وما شابه. فكم من عبدٍ متكبر وبعيد عن الله بسبب ثرائه، تواضع وانكسر وتقرب إلى الله عندما سُلِب منه ماله؟ قال ابن القيم (رحمه الله): فلولا أنه سبحانه يداوي عباده بأدوية المِحن والابتلاء لطغوا وبغوا وعتوا، والله سبحانه إذا أراد بعبد خيرًا سقاه دواءً من الابتلاء والامتحان على قدر حاله، يستفرغ به من الأدواء المهلكة، حتى إذا هذبه ونقاه وصفاه، أهَّله لأشرف مراتب الدنيا، وهي عبوديته، وأرفع ثواب الآخرة وهو رؤيته وقربه[1]. فإن زادت النعم على العبد كان أقرب للإكثار من المعاصي بطبعه، أفإن نقصت استكثر من المعاصي أيضًا؟ فما الذي يُرضيك يا عبد الله حتى تتقي الله؟

ومعلومة ينبغي أن يُدركها كل مسلم: إنك لا تمتحن الله، إنما هو الله الذي يمتحنك. معنى هذا الكلام هو أنه لا يليق أن تقول مثلًا –بعدما عملت عملًا صالحًا (أو أعرضت عن معصية كدت أن ترتكبها)– أنك تنتظر كيف سيُكافئك الله عليه في المقابل، فإن الله قد لا يجزيك عليه في الدنيا ويدَّخِر لك الثواب في الآخرة. فواجه نفسك وجاوب عن هذا السؤال بصدق: ما الذي ستفعله إن لم تأتيك مكافأة؟ إنما هذا الفكر يفتح الباب لتمرد النفس. أو الأسوأ وهو أن يُكافئك في الدنيا ولكنك لا ترضى بها أو لا تلاحظها، فتُقبل ثائرًا على المعصية بعدما تفاديتها وترتكبها وأنت بالفعل قد نلت مُكافأة تركها!

بل الأسوأ والأسوأ هو إذا حدّد العبد طلبه من الله مُسبقًا، بنعمة أو برفع بلاء أو برؤية علامة من الله، نظير أن يفعل خيرًا أو يترك معصية، حتى إذا نال ما طلبه ضعُف عن فعل الخير أو غلبته نفسه فعاد إلى ارتكاب المعصية، فيكون في حكم من أخلف ما عاهد اللهَ عليه وما يترتب على هذا من مصائب. فأي خدعة وورطة تلك التي قد أوقعت نفسي فيها آنذاك: معي مُكافأة من الله لتجنب معصية، قد ارتكبتها في نهاية الأمر؟! أليس مثل هذه الأوضاع تدعو للخجل والندم، بل والرعب من انتقام الله إذ عندي سلعة طلبتها ثم لم أُقدِّم ثمنها؟

[1] زاد المعاد لابن القيم 195/4.

ثم إن مُحاولة التعامل مع الله بالمُبادلة، أي مبدأ أنك تفعل خيرًا مُقابل أن تُمنح شيئًا من مقتنيات الدنيا، فيه عدة مشكلات، منها أن فائدة العمل الصالح تعود عليك في الأساس وليس على الله بشيء، فكيف تريد نيل مُكافأة على فعل شيءٍ هو مصلحة لك في حد ذاته. أيضًا إن هذا السلوك سيؤدي إلى أنك تُحد من فعل الخير، إذ إنك تفعل الخير فقط عندما تريد مصلحةً بدلًا من فعل الخير باستمرار. وبقياس الخير بالواحدة مع الله ستجد أنه قد أنعم عليك أكثر بكثير مما قدَّمته، فأنت مديون في الأصل وعليك السداد. فوق هذا فإن الله يُنعم بإكرام، فإذا أردت أن يُنعم عليك بالواحدة فقد ضيَّقت واسعًا، وحرمت نفسك من النعم، فأنت الخسران ولو نلت المُكافأة التي كنت تتمناها.

إضافةً، إنك قد تُحدد أمرًا بعينه تريد نيله في حين هو في الحقيقة سيضرَّك، مثل انتظار أن يُفتح عليك في رزق المال في حين الله يعلم أنه لو أعطاك هذا فستُفتتن به وتبتعد عنه تعالى وترتكب به المُحرمات، فيمنعك الله من نيل هذا. فقل لي هل منعك من الذي أردته ستراه خيرًا {لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ} [النور 11، جزء من الآية]، أم سترى أن ما حدث معك هو ضررٌ أو ظُلمٌ لك فتسخط؟

على نفس الوزن ولكن على الوجه الآخر، لا تقل مثلًا: أصابني بلاء كذا فإني معذورٌ في أن أفعل معصية كذا، كأن تقبل رشوة مثلًا إذا ضاق عليك الحال. إن مثل هذا التصرف من سوء الخُلُق مع الله، وفشلٌ في اختبار الله لك بأن يُعرِّضك للفتنة لينظر ماذا ستفعل. فلا تفعل شيئًا ثم تقول: سأُراقب ماذا يفعل الله معي بعدها؛ أو تتشرط بقول: سأفعل كذا (سواء كان خيرًا أم ترك شرًّا) إن أعطاني الله كذا؛ فإنك لا تختبر ربك ولن تفرض عليه شيئًا، لأننا مُجرد عباد عنده، وإن أجابك فسيكون بتكرُّمٍ منه وتفضُّلٍ.

ثم إن ذلك الأسلوب في التعامل مع الله يجعل الإنسان ينتظر الخير قبل، أو بعد، أن يُقدِّم العمل الصالح، أو يتوقع أن يقيه الله نزول بلاء يحذر منه. فإن لم يأتِ له الخير، أو ربما حتى نزل عليه ما يراه شرًّا بدلًا منه، أصابه الإحباط، بل وربما سَخِط على نصيبه من الدنيا، فيهبط في درجاته عند الله، خَسِر من الدنيا والآخرة بجحوده ما قسمه الله له.

وقد ذم الرسول (صلى الله عليه سلم) صفة قد تنشأ بسبب ذلك المنهج مع الله، وهي صفة الرضا والسخط بناء على ما يُقسمه الله للعبد من أمور الدنيا على أيدي الناس. قال (صلى الله عليه وسلم) "تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ وَعَبْدُ الدِّرْهَمِ وَعَبْدُ الْخَمِيصَةِ، إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ، تَعِسَ وَانْتَكَسَ وَإِذَا شِيكَ فَلا انْتَقَشَ. طُوبَى لِعَبْدٍ آخِذٍ بِعِنَانِ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَشْعَثَ رَأْسُهُ مُغْبَرَّةٍ قَدَمَاهُ، إِنْ كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ، وَإِنْ كَانَ فِي السَّاقَةِ كَانَ فِي السَّاقَةِ، إِنْ اسْتَأْذَنَ لَمْ يُؤْذَنْ لَهُ، وَإِنْ

شَفَعَ لَمْ يُشَفَّعْ"[1] (شِيكَ فَلا انْتَقَشَ أي إذا أصابته شوكة لا يقدر على إخراجها، وذلك بالإضافة إلى قوله: تَعِسَ وَانْتَكَسَ وَإِذَا شِيكَ فَلا انْتَقَشَ هو تعبير ذمٍ؛ السَّاقَةِ هم الذين يكونون في آخر العسكر؛ إِنْ اسْتَأْذَنَ لَمْ يُؤْذَنْ لَهُ وَإِنْ شَفَعَ لَمْ يُشَفَّعْ هي دلالة على مدى هوانه عند الناس).

إنما قد أوقع الله البلاء بأحدنا ليختبر ما هو صانع، وليس العكس بأن المرء يأخذ البلاء عذرًا لارتكاب المعصية. وليس له أن يتعجب من أن الله أصابه ببلاء بدلًا من خير ينتظره بعد عملٍ صالح أتمَّه، لأن الله يراقب ماذا سنفعل تحت الضغط، فهل يُقيِّم المرءَ ويُعرف حقيقة معدنه إلا في الشدائد؟

ثم إن الأصل في التكليف هو أن نتقي الله، سواء في اليُسر أم العسر. وفيما يختص بالعسر، فإن الفرَج يأتي بعد العُسر حتمًا لأن الله قد وعد بهذا {فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (5) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا} [الشرح 5–6]. وهذا خاصةً إذا كان العبد يتقي الله، فإنه تعالى يجعل له مخرجًا وإن استيقن العبد أن البلاء لا مخرج منه، بل وسيرزقه من حيث لا يحتسب {وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (2) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا} [الطلاق 2–3]. أي لو أن شدةً تدفع بالمرء إلى الرشوة أو السرقة مثلًا، فإن ضِيق الحال سيكشفه الله لا محالة، وإن طال. فالمُحصِّلة أن العبد سيكون معه مال ثانيةً سواء من الحرام أم الحلال، ولكن سيبقى مع المرء الطريق الذي اختاره يُحاسَب عليه. أيرى أحدنا أن الله يتخلى عن عبده الذي يريد تقواه إلى أن يضطر إلى أخذ الحرام ثم يُعاقبه الله عليه؟ أهكذا ظنُّنا في الله، ظن سوء؟!

فلا ذريعة أن يُقنع المرء نفسه أنه مُضطر إلى أخذ الحرام، فهذا في أخف الأوصاف يكون عجزًا، لأن المرء إذا صدق في إرادته اتقاء الله، وصبَر، وتفكر بابتكار كيف يخرج من الموقف دون أن يلجأ لما حرَّمه الله، فإن الله قطعًا سيجعل له مخرجًا عن الحرام. هذا مع بيان أن هناك فرقًا بين أن المرء يأخذ الحرام بالسعي إليه وبين أن يُفرض عليه بتهديد حياته مثلًا، فالثاني قد يكون له عذر إن كان مُهددًا بحق.

والداهية فوق كل هذا هو أن هناك خللًا فادحًا وعلة جذرية في افتراضيات هذا الفكر، وهي أن في معظم الأحوال ينزل البلاء بسبب معصية لابن آدم {وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ} [الشورى 30]. هذا الابتلاء يكون عقوبة من الله، وتطهيرًا للعبد من ذنبه إذا صبر. فكيف إذًا يتحجج المرء، للإقبال على معصية، بمصيبة أصابته هي في الأصل نتيجة معصية ارتكبها سابقًا؟ ومتى ستتوقف الابتلاءات بهذه الطريقة؟ ثم أكان المرء في الأصل يتقي الله في الرخاء ولا يعصيه أبدًا حتى يتحجج أنه سيعصي الله لبلاء أصابه. وهل معنى كلامه أنه يعهد الله بأن عندما ينكشف البلاء سيتقي الله ولا يعصيه؟ هل يستطيع تطبيق هذا صدقًا؟

[1] صحيح البخاري 2673.

هنا قد يسأل سائل، ماذا بخصوص الرسول (صلى الله عليه وسلم) إذ يُبتلى وهو لم يعصِ الله قط، فكان يوعك عند وفاته مثل رجلين مثلًا؟ أولًا، بالرغم أنه لم يعصِ الله، فإن أتباعه كانوا يُخطئون فيعصون الله أحيانًا، فكانت عواقب سيئاتهم تعم حتى تناله هو والمسلمين. فلم تقتصر آثار المعصية فقط على الخاصة، بل تشمل العامة (إذا اشتد الخبث). ومثل هذا حدث في غزوة أُحُد عندما عصاه فئة الرُماة من المسلمين، فنال المشركون منه (صلى الله عليه وسلم) ما نالوا. ثانيًا، أن البلاء ليس كله عقابًا على السيئات، بل البلاء قد يكون لرفع الدرجات عندما يصبر العبد، وبما أن للرسول (صلى الله عليه وسلم) له أعلى منزلة في الجنة: الوسيلة (إن شاء الله)، فبلاؤه مُضاعف كي يبلغها. فالقضية أساسها قضية حقوق وتحقيق العدل كما تكلمنا سابقًا.

ثالثًا، أنه (صلى الله عليه وسلم) قدوة، ففي غزوة الخندق عندما اشتد البلاء على المسلمين وتكالبت الأحزاب عليهم، كان يحفر مع الناس وبلغ من الجوع إلى حد أنه ربط حجرين على بطنه. فعندما اشتكى أحد الصحابة من الجوع ورأى حال الرسول (صلى الله عليه وسلم)، وهو أشرف وأكرم الخلق عند الله، كان ذلك تخفيفًا عليه وتسرية له، وهانت عليه نفسه فأكمل عمله دون شكوى. فكونه (صلى الله عليه وسلم) مُكلفًا أنه رسول من الله، أصبح قدوة للناس، والتي فَرَضت عليه أن يُبتلى حتى يدركوا أنه إنسان مثلهم في أحوال الحياة، وحتى يتعلموا منه بالامتثال الطرق الشرعية لمواجهة الابتلاء. إصابته بالابتلاءات تجعل أتباعه صامدين وصابرين على البلاء، إذ يدركون أنه يصيبه مثل ما يصيبهم ويُعاني مثلهم، بل وأكثر.

في النهاية وإلمامًا بالقضية، تبقى الوقائع: نحن لم نُوضع على الأرض لنُختَبر إذا كنا سنعمل صالحًا فقط عندما تكون عوامل الحياة في صفِّنا، بل أيضًا لرؤية إذا كنا سنعمل صالحًا وعوامل الحياة ضدنا. فالذي يعمل المعاصي مع توفر سبل الرخاء هو أسوأهم من هذا الجانب، والذي يعمل صالحًا بالرغم من أن سُبُل الحياة تُعيقه هو أفضل منه في هذا الجانب. أما أرقاهم منزلة، فهو الذي يعمل صالحًا في اليسر والعسر سواء.

إن وساوس الشيطان تتردد في ذهني حتى أكاد أن أُجن أحيانًا، فلا تخمد إلا بفعل المعصية

ليعلم المرء أن الوساوس التي تنشأ في عقله إنما هي من اختبار الله للعبد، هل سيُفتَتَن فيُقدم على المعصية أم يكِدّ ويتصدى لهن {أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء وَزُلْزِلُواْ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ} [البقرة 214]. والفتن تأتي بطرق شتى لاختبار المرء، فقد قال تعالى {لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ} [آل عمران 186]. ووساوس الشيطان من الأمور التي يُبتلى المرء بها في

نفسه، فهذا ليس بعذر لارتكاب المعصية، كما أن البلاء وفتنة الناس له لا يُعتد بهم كعذر لارتكاب المعصية.

هذا النهج الفكري يُشبه التداوي بالحرام، إذ إن المرء يُبيح فعل الحرام للتداوي من داء في عقله؛ يبيح ارتكاب المعصية لإسكان الإلحاح الذي يتردد في ذهنه. ولو تبنى عامة الناس هذا المسلك لفُتحت جميع أبوب المُحرَّمات على الناس، فيَضلون ويَفسدون ويهلكون، إذ إن هذا يتداوى من المشكلات النفسية بالخمر، وهذا يتداوى من شكِّه باللجوء إلى كاهن، وهذا يتداوى بالتدخين ليُهدئ توتر جسده. وهكذا حتى تُستباح جميع المُحرمات.

ولننتبه إلى نقطة جوهرية، أن الله لم يضع شفاء لداءٍ فيما حرَّمه، كما نبأنا الرسول (صلى الله عليه وسلم) قائلًا "إنَّ اللَّهَ لم يجعَلْ شفاءَكُم فيما حرَّمَ عليكُم"[1]. ثم ليس من المنطقي أن يضع الله شفاءه في شيء يبغضه فحرَّمه، فيُجبَر الناس على ارتكابه، خاصة أن الحرام إنما حرَّمه الله لضرره على الناس، وهذا نقيضٌ للتداوي. وهذا كله يعني أن الدواء الأمثل لإلحاح الوساوس ليس في ارتكاب المعصية كي تسكن، بل يكون بالاستعاذة بالله، مع الصبر ومجاهدة الوساوس لتحقيق تقوى الله، كما جاء في آية سورة آل عمران، لتجاوز نهائيًّا المرحلة العصيبة إلى مرحلة الاستقرار والسكون، مثلما تتجاوز السفينة أمواجًا عالية حتى تصل إلى الساحل. فهذا العلاج، على المدى الطويل، يُعالج الوساوس من جذورها (الأسباب المنشئة لها)، فتتباعد فتراتها حتى تكاد تذهب تمامًا، خاصة لو قابل العبد تلك الوساوس بأعمال صالحة ضدها. هذا هو التداوي الفعَّال.

أما عن التفرقة بين وساوس الشياطين ووساوس النفس، فقد قال أبو حازم (رحمه الله) في الفرق بينهما: ما كرهتْه نفسُك لنفسِك فهو من الشيطان فاستعذ بالله منه، وما أحبَّته نفسُك لنفسِك فهو من نفسك فانْهَها عنه[2]. وذكر بعض العلماء فرقًا آخر مهمًّا، وهو أن وسوسة الشيطان هي بتزيين المعصية حتى يقع فيها المسلم، فإن عجز الشيطان انتقل إلى معصية أخرى، فإن عجز فإلى ثالثة، وهكذا. فهو لا يهمه الوقوع في معصية معينة بقدر ما يهمه أن يعصي هذا المسلم ربَّه، يستوي في هذا فعل المنهي عنه وترك الواجب، فكلها معاصٍ. وأما وسوسة النفس فهي التي تحث صاحبها على معصية بعينها، تحثه عليها وتُلح عليه طلبًا.

ينبغي للمرء أن يُميِّز بين وساوس الشيطان له وبين وسوسة نفسه له. هذا كيلا يكون المرء يُلقي باللوم على الشيطان ثم يتضح له يوم القيامة أن ما كان يأخذه كمبرر له في ارتكاب معصية مُحددة هو في الحقيقة من نفسه. فهكذا سيزداد مأزقه الذي هو فيه لبطلان حُجته وتوريطه لنفسه، ويُدرك كم كان جاهلًا، فيجد أن وضعه مُشفقًا مُخجِلًا.

---

[1] بلوغ المرام لابن حبان 379، قال عنه: صحيح. ورُوي مثله في السلسلة الصحيحة للألباني 175/4.

[2] مجموع الفتاوى لابن تيمية 529/17-530.

ثم هناك ملحوظة يجب أن يوقنها المرء تُفنِّد الاحتجاج بعلاج الوسوسة عن طريق المعصية، ألا وهي أنه إذا استجاب لتلك الوساوس كي يُسكن هذا الإلحاح بارتكب المعصية، فحتميًّا سيبدأ الإلحاح على مرحلة متقدمة أكثر. هذا لأن بتنازله واستسلامه للمعصية أمام الإلحاح هو في الواقع إبداء التراخي والضعف أمام النفس والشيطان. فإن كانت نفسه هي التي تُلحّ عليه، فستطلب المزيد، لأن النفس طمَّاعة لا تشبع؛ وإن كان الشيطان هو الذي يُلح عليه، فإنه سيطالب الانتقال لما هو أفدح منها، مِن ترك العمل الصالح لارتكاب صغيرة لارتكاب كبيرة لتبني الشرك ثم إلى الكفر بالله، وهذا لأنه يريد أسوأ مصير ممكن للإنس. فمن الأسهل مقاومة الوسوسة في بوادرها مهما كان هذا صعبًا، فإن المرحلة التالية ستكون أصعب قطعًا.

أما مواجهة هذا الفكر من جهة الحقائق الصادمة المُفيقَة، فليست الوسوسة هي التي قد تقود العبد إلى الجنون فعلًا، إذ إن الله لن يخذل عبده بالتخلي عنه ليبلغ مرحلة الجنون في أثناء مقاومة المعصية التي أَمَرَه الله أن يتفاداها، فإن الله يأبى أن يَمرَض عبده بسبب تمسكه بشرعه تعالى. لكن الجنون الحقيقي سيحدث للمرء عندما يَضُمّه قبره مع رائحة عمله المُنتنة يوميًّا دخولًا وخروجًا إلى أن تقوم الساعة؛ أو حين يُعرض عليه مقعده من الجنة في القبر ولكن يُقال له: هَذَا مَقْعَدُكَ الَّذِي كَانَ لَكَ مِنْ الْجَنَّةِ، قَدْ أُبْدِلْتَ مَكَانَهُ مَقْعَدَكَ مِنْ النَّارِ[1]، فيُغلق باب الجنة ويُفتح عليه باب إلى النار. أو سيتحقق عندما يمكث خمسين ألف سنة عطشان تحت أشعة الشمس؛ أو عندما يظل على مدى سنين يُستَجوَب على كل جانب من كل معصية دقيقة ارتكبها طوال حياته؛ أو عندما يرى جسر جهنم ويُؤمر أن يَعبُره؛ أو عندما يُحرق تكرارًا في جهنم وهو لا يدري متى ينتهي هذا العذاب.

ثالثًا: الأفكار التي ترد على أساس تحسير المرء:

ستفوتني لذة المعصية إذا لم أغتنمها!

لا شك أن هذه الفكرة من أكثر الأفكار تأثيرًا وإغراءً للمرء، إذ إنها تُشعره أن فوات المتعة من المعصية أو الغاية (كالشهرة أو الشهوة أو غير ذلك)، إذا تركها، تكون بمنزلة خسارةٌ لغنيمة كان من الممكن تحصيلها. وهذا يثير رغبته أكثر في الإقبال عليها، على افتراضية أن فواتها لا يمكن تعويضه. ويزداد الوضع تفاقمًا إذا تسول للمرء أن تلك المعصية سيأخذها غيره إن لم يلحقها هو، مثل السرقة من أموال مؤسسة، فتُثار غيرته بالباطل على أمرٍ فيه مَفسدة. فالوسوسة تعمل على إثارة التحسر على فوات المتعة، وأن المرء سيخرج خاسرًا من هذا كله. فهي فكرة ماكرة ومؤثرة، لكن:

---

[1] مسند أحمد 14195.

أولًا، إن المبدأ أن المعصية التي تفوت لا يُمكن تعويضها فكرة باطلة إذا رأى المرء الصورة الشاملة (الدنيا والآخرة)، وإنما تبدو كذلك لمن ينظر فقط إلى الدنيا. هذا لأن العبد إذا ترك شيئًا اتقاء لله فلا شك، ولا شك، ولا شك، أن الله سيُعوِّضه بأجود منها، حتى إن كان الذي تركه لم يكن حرامًا ولكنه تركه تورعًا من الوقوع في الشُبهات. ولقطع الجدل بالدليل، فإن ذلك منصوص عليه في قول الرسول (صلى الله عليه وسلم) "إِنَّكَ لَنْ تَدَعَ شَيْئًا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ إلا بَدَّلَكَ اللَّهُ بِهِ مَا هُوَ خَيْرٌ لَكَ مِنْهُ"[1]. لكن، يجب الالتفات إلى لفظ الحديث "مَا هُوَ خَيْرٌ لَكَ مِنْهُ"، فمعنى ذلك أن الله يُعوِّضك بما هو خير لك بعلمه للغيبيات وبحكمته، وليس بما تختاره لنفسك أو تراه أنت هو خيرًا لك.

ثم إن التعويض على تفويت تلك اللذة التي في معصية الله لا يُشترط أن يكون في الدنيا، لأن الأساس هو أن الدنيا دار عمل وليس دار جزاء. وهذا الظن الخاطئ قد يقع فيه كثير من المسلمين، وهو الذي يظنه المشركين عامة: أن العبد إذا عمل عملًا صالحًا يُشتَرَط أن يُكافأ عليه في الدنيا. بل وإن منهم من قد يتوقع تعجيل المكافأة، فإن لم تأتِ سريعًا وبالصيغة التي يريدها جحد وسخط، وربما ارتد إلى المعصية التي فوَّتها. ذلك لأن فكر مثل هؤلاء مؤسس على أن مَن عنده فائض من النعيم يعني أن الله راضٍ عنه ويُحبّه، وأن من يُبتلى ويُقدَر عليه النِعَم فذلك يعني أن الله يبغضه ويُعاقبه، كما أشار قول الله تعالى عنهم {فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (15) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ} [الفجر 15-16] ("فَأَمَّا الْإِنسَانُ" يُقصد بها الكافر، كما جاء في التفاسير).

لكن، في الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة، ومن واقع الحياة الذي نراه، دليل على أن النعم ليست مؤشرًا على حب أو كره الله للعبد، إذ إن هناك من يُحبه الله ومع ذلك لم يكن عنده سعة في النعم. وأكبر مثل لنا على هذا هو الرسول (صلى الله عليه وسلم)، الذي كان أحب وأكرم الخلق عند الله، ومع ذلك كانت تأتي أيام لا يجد فيها (صلى الله عليه وسلم) طعامًا يسُد جوعه. وقد وضّح هذا لنا الرسول (صلى الله عليه وسلم) هذا بقوله "إنَّ اللَّهَ تعالَى ليَحمي عبدَه المؤمنَ منَ الدُّنيا، وهوَ يحبُّهُ، كما تَحمونَ مريضَكمُ الطَّعامَ والشَّرابَ تخافونَ عليهِ"[2].

بل وكان ينال منه (صلى الله عليه وسلم) المشركون أحيانًا، مثلما حدث في غزوة أُحُد، ويبتليه الله ليرفع من مقامه. وعلى الصعيد الآخر، فإن هناك من يفجر أشد الفجور ومع هذا فإن الله يبسط عليه النعم، وذلك استدراجًا من الله، إذ إن الدنيا التي يعطيها الله لذلك الفاجر لا تزن شيئًا عنده تعالى.

---

[1] مسند أحمد 21996.

[2] الجامع الصغير للسيوطي 1787، وقال عنه: صحيح.

فكما يتبين، ترك المعصية لله لا يعني بالضرورة التعويض عليها في الدنيا. وإذا شاء الله أن تكون هناك مكافأة في الدنيا، فلا يُشترط أن تكون من جنس ما تركه العبد. لا يُشترط أن التعويض يكون بالمال لتارك الرشوة على سبيل المثال. وقد يكون التعويض بالفعل من نفس جنس اللذة، فمن يغُضَّ بصره عن نساءٍ لا تحل له ربما يُعوضه الله في الدنيا بزوجة تُقرّ عينه جدًّا، ويكون من الحلال أيضًا فيكون فوزه مُضاعفًا. ولكن مما لا شك فيه هو أنه ستقر عينه بالحور العين المخصصين له في الجنة، ولا شك أنهن أجمل وأنقى مما كان سينظر إليه.

فليست هناك متعة في الدنيا إلا وفي الجنة أجود منها، فلمن تخلى عن الخمر في الدنيا، فإن الخمر في الآخرة لا شك أنه ألذ وأسلم. ومن ترك مالًا حرامًا لله، فلا شك أن عُلُوِهِ درجة في الجنة أغنم، ولو صرف على ارتقاء تلك الدرجة كل ما اكتسبه في حياته من مال، مع أن ارتقاء درجة في الجنة أغلى مما على الأرض من مال.

ثانيًا، الواقع هو أن الغنيمة في أمر قد نهى الله عنه ليست بغنيمة في الحقيقية، بل هي نقمة، لأنها يتبعها آثار مُضرةٌ على نفس المرء في الدنيا، وسيُحاسب عليه ويُكفِّر عنها في الآخرة. ومن ثمَّ، فإن المُحصلة أنها ليست بغنيمة تفوت أو يخسرها المرء، بل هي حملٌ على المرء يتفاداه؛ فيجب تصحيح منطلق نظرتي للمسألة واتباع هذا بالمجاهدة والصبر. قد قال أحد الواعظين، مُقِرًّا بصعوبة مخالفة الشهوة عند المعصية: الصبر عن الشهوات شديد، ولكن الصبر على النار أشد منه، ولا بد من أحدهما (انتهى). وليُعلم أن ألم منع النفس من شهوتها ومعاناة مُفارقة وتفويت معصية ما سيزولا، وينخفضان مع مرور الوقت عند تكرار عرض المعصية على المرء، إلى أن تأتي مرحلة (ولو بعد أمد طويل) أنه يُبصر ويشعر أن ضررها أكبر من متعتها فلا يرغب في الخوض فيها، ويسهل عليه الإعراض عنها. ولكن حتى عندما يبلغ العبد تلك المرحلة فلا يزال ينبغي ألا يُرخِّي حذره منها، كي لا ينتكس فيعود إليها.

ثالثًا، هذا الفكر يحمل في طيَّاته أن المسلم يريد تحصيل متعة الدنيا مع طمأنينته بنيل كل متاع الآخرة، وهذه رؤية قاصرة ومُخالفة للمنطق والواقع، إذ إن تحصيل متعة في معصية الله قد تتسبب في حرمانه منها في الآخرة، والتي ستكون أجود كما ذكرنا، فهذه هي الخُسارة الفعلية. وأمثلة على هذا هو في شرب الخمر والرجل الذي يلبس الحرير، فقد قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "مَنْ شَرِبَ الْخَمْرَ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ لَمْ يَتُبْ مِنْهَا حُرِمَهَا فِي الْآخِرَةِ"[1]، "مَنْ لَبِسَ الْحَرِيرَ فِي الدُّنْيَا فَلَنْ يَلْبَسَهُ فِي الْآخِرَةِ"[2]. فينبغي للمرء أن يُبصر الحقيقة، فهي عكس الاستنتاج الذي في هذا الفكر، إذ إن المسلم إذا فَوَّت لذةٍ من معصية فمن المؤكد أنه سينالها في الآخرة، ولكن إذا أقبل عليها كي لا تفوته

[1] صحيح البخاري 5147.

[2] صحيح البخاري 5384.

في الدنيا يُصبح هناك احتمالٌ أن يُحرم منها في الآخرة، وهذا هو الفوات الحقيقي والخسارة الفعلية؛ قد أبدل الفوز المؤكد بحِرمانٍ مُحتمل!

وأخيرًا، إن المعصية إذا بلغت في قلب العبد أنه يهواها بهذه الطريقة، فتلك إشارة على أنه هناك خطبٌ ما في قلب العبد بلا شك. والمعنى هو أن العبد إذا أبصر المعصية على حقيقتها بكل جوانبها وآثارها، لا يمكن أن يتعلق قلبه بها لهذه الدرجة من العشق، درجة أن يرى فواتها 'خُسارة'. يقول أبو الفرج بن الجوزي: لا ينال لذة المعاصي إلا سكران بالغفلة[1]. دوائي إذا بلغت هذه الحالة هو أن أتحرى وأعي التبعات السلبية لهذه المعصية عليَّ وعلى المخلوقات، والعواقب التي تنتظرني، والفوائد من تركها، وتذكر أن الغنيمة والسلامة تكون في تمكين العقل على الرغبات، مع الاستعانة بالله في المقام الأول.

رابعًا: الأفكار التي ترد بناءً على جهل أو سوء استيعاب:

إن للدنيا حقًّا، فلا يمكن أن نترك تحصيل الرزق، ولا يجوز أن نترك الأرض دون تعمير

هذا المبدأ على حق في الأساس، ولكنّ كثيرًا من الناس يسيئون تطبيقه بأن يتخذوه ذريعة ليُمرروا تحته أكل الباطل، أو المبالغة به فيكتسبون من الحلال ولكن ينشغلون عن دينهم. فمثلًا تجد أن المرء يعمل إلى درجة أن ذلك يلهيه عن عبادة الله، فيؤجل صلاة الفريضة أو حتى يُضيّعها، ويتحجج بأنه يقوم بأمر مهم، وهو تعمير الدنيا لمواكبة تقدم أعداء الإسلام حتى نكون ندًّا لهم.

ومنهم من يقول كيف لنا ألا نُعمِّر الأرض، ولماذا ينهى الإسلام عن تعمير الأرض؟ وهذا الفكر فيه التباس، إذ إن الإسلام لا يمنع عن تعمير الأرض، إنما يذم أن ينشغل الإنسان بتعمير الأرض عن عبادة الله، فتكون الحقيقة أن تعمير الأرض عنده أولى من عبادة الله. والأحرى للذي يقتنع بهذا الفكر أن يتفكر بالمنطق، وهو أن الله يستطيع أن يُعمِّر الأرض من دوننا، فكيف يكون تعميرنا للأرض عذرًا لانشغالنا عن عبادة الله، بحجة أن الله طلب منا تعمير الأرض؟

وقد يقول كثير من الذين بلغوا ونالوا من الدنيا إما مالًا أو منصبًا أو علمًا أو شهرةً، وهو لا يُحَكّم الشريعة في حياته، أن الدنيا لها حقُّها، بمقصد باطل أن للدنيا حقها وإن طغى على عبادة الله. ولا يعجز هؤلاء عن ترديد أقوالٍ منسوبة باطلًا إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) وهي لا أصل لها، مثل المقولة: العمل عبادة. وهناك من يروي القصة المتداولة أن رجلًا كان يتعبد في المسجد ليل

[1] صيد الخاطر لابن الجوزي 149.

نهار وله أخ ينفق عليه، فرآه النبي صلى الله عليه وسلم فسأله من ينفق عليك؟ قال: أخي، فقال: أخوك أعبد/خير منك؛ والحقيقة أن تلك الواقعة لا أصل لها.

بل إن الشريعة جاءت بالحث على عكس ذلك، فلعل القصة المذكورة جاءت تحريفًا لحديث جاء في سنن الترمذي أنه كَانَ أَخَوَانِ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَكَانَ أَحَدُهُمَا يَأْتِي النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالآخَرُ يَحْتَرِفُ (أي له عمل)، فَشَكَا الْمُحْتَرِفُ أَخَاهُ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فردَّ صلى الله عليه وسلم "لَعَلَّكَ تُرْزَقُ بِهِ"[1]. وهذا حثٌّ على تقديم العبادة على العمل الذي يلهو، كالعمل لكسب المال فوق حاجة المرء بكثير، أو بعمل لا ينفع المجتمع، لاسيما لو كان عملًا في مُحرَّمٍ. هذا بالإضافة إلى ما جاء في القرآن {رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ} [النور 37].

فهذا خلط في الأولويات وجب الحذر منه، فإذا كان الله يحث على العبادة فوق العمل، فكيف حالي وأنا أعصي الله بدل العبادة؟ والصواب هو أن العبد يؤثِر الآخرة على الدنيا مع الأخذ من الدنيا ما يكفيه من أن يكون عبئًا على الناس، مع الحرص ألا يُخالف الشريعة ولا تشغله عن الآخرة. والأدلة على ذلك المنهج كثيرة، منها قول الله تعالى {وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا} [القصص 77، جزء من الآية]. إضافة إلى هذا، كان حال الصحابة أنهم كانوا لا ينشغلون بالدنيا، وكثير منهم لم يكن عندهم متاع كثير ولا أكل مخزون في بيوتهم. فالحقيقة هي أن الله هو الذي بيده الرزق، فالذي يلجأ إلى الله بالعبادة يتولى الله أمور رزقه، والنتيجة هي أن العبد يجني قدر حاجته بسعي يسير. وكأن المجهود هو هو، فإما يُبذل أغلبه في طاعة الله وإلا سيبذله في جمع الرزق.

أما المقولة: أَحْرِزْ لِدُنْيَاكَ كَأَنَّكَ تَعِيشُ أَبَدًا، وَاعْمَلْ لآخِرَتِكَ كَأَنَّكَ تَمُوتُ غَدًا[2]، ففيها اختلافات على نسبتها ولكنها لم تثبت عن الرسول (صلى الله عليه وسلم)، وشرح العلماء لهذه المقولة، فيما معناه، أن الشق الثاني من المقولة يحث أن يُسارع الإنسان في جمع الأعمال المفيدة للآخرة. وأما الشق الأول فيجب أن يُحمل على أنه يحث على التمهل في طلب الدنيا وعدم اللهفة لتحصيلها مثل أمور الآخرة، إذ إن من طال عمره في الدنيا زهد عنها. هذا لأنه وإن لم يُحَصّل ما أراده اليوم يتريث فلا يجزع ولا يفزع، لأنه يعلم أنه قد يُحصّله الغد فلا داعي للهفة عليه. فليس المقصد أن يلهف في جمع الدنيا قدر المستطاع كأنه باقٍ فيها.

---

[1] سنن الترمذي 2267.

[2] المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية لابن حجر، وقد رواها عن عبد الله بن عمرو بن العاص؛ وقد ذُكرت في إصلاح المال لابن أبي الدنيا بلفظ "احرث لدنياك" عن عبد الله بن عمر.

والسعي في الدنيا بهدف جمع مقتنيات الدنيا لا ينفع العبد في الآخرة، وهو كالذي يذاكر مادة الجَبر للامتحان ثم عندما يدخل اللجنة يكتشف أنه امتحان كيمياء، فهل تنفعه مذاكرة مادة الجبر؟ فقد اجتهد الطالب، ولكن جهده كان هباءً وذهب سُدى لأنه أخطأ في القصد، فسعيه لم يكن في مَحلِّه، والقصد هو الأساس الذي يُبنى عليه، فقد خاب وخسر.

ويجب أن يُعلم أنه لم يُطلب منا تعمير الأرض كتكلفة من الله، وإنما كُلِّفنا بعبادته فقط {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (56) مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ (57) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ} [الذاريات 56-58]. إنما المطلوب أن نُعمِّر فيها قدر حاجتنا منها، ومواكبةً لتطور أعداء الإسلام لنُعدَّ لهم من القوة حتى نكون كُفئًا لهم، بل وأقوى، وهذا أيضًا كي ندفعهم عنا لنتمكن من عبادة الله، فكل ما لا يتحقق الواجب إلا به فهو واجب أيضًا. مع ملاحظة أن تسلسل الآيات تتوجه إلى أن الله هو الرزاق، مما يدل على إذا أطعناه وعبدناه ولم ننشغل بالدنيا، فإن الرزق لن يزال يأتينا لأنه بيد الله، يصرفه كيف يشاء.

أما تعمير الدنيا بما لا ينفع، وقد يصل حتى إلى مرحلة التفاخر والتباهي، مثل بناء معالم شديدة الارتفاع، والبناء على أطراف الجبال، ووسط البحار، فهذا تمادٍ وإسراف في تعمير الأرض، إن استطعنا تصنيفه كتعمير. وغالبًا ما يكون فيه بزخ وتبذير للمال والمصادر التي هي كلها من نعم الله. والأسوأ من ذلك كله أن فيه انشغالًا لموارد الأمة الإسلامية من عقول وجهود وأوقات المسلمين عن قضايا ومنافع الأمة الإسلامية وعن العمل للآخرة، وبالطبع صرف المال في أوجه الزخرفة في حين الفقراء أولى به.

كلمة عامة وشاملة، مما وعيت به من العلماء ثم لمسته أيضًا أنه ليس هناك سبيلٌ أفضل لزيادة الرزق من تقوى الله. هذا مع العلم أن الرزق لا ينحصر فقط حول قضية المال، بل كل ما يرزقه الله للعبد مثل الصحة أو زوجته صالحة أو ذرية أو مصدرٍ للطعام وإلخ. والأدلة على أن تقوى الله تجلب الرزق كثيرة، من أبرزها قول الله تعالى {وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (2) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ} [الطلاق 2-3، جزء من الآيات].

وفي حديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "ثَلاثَةٌ حَقٌّ عَلَى اللَّهِ عَوْنُهُمْ: الْمُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَالْمُكَاتَبُ الَّذِي يُرِيدُ الأَدَاءَ، وَالنَّاكِحُ الَّذِي يُرِيدُ الْعَفَافَ" دليلٌ آخر (وَالْمُكَاتَبُ الَّذِي يُرِيدُ الأَدَاءَ قيل هو العبد الذي يريد أن يعتق نفسه من سيده، وربما المقصد أعم وهو فيمن أراد أداء الدين الذي عليه). فمن الظاهر أن الثلاثة يريدون تحقيق الحق وتجنب الضلال أو عصيان الله، فتلك هي التقوى، فوعدهم الله أن يعينهم، وهذا بالطبع يشمل الرزق.

وهناك أمور أخرى تُزيد من الرزق، مثل الاستغفار، وصلة الرحم كما أشار الرسول (صلى الله عليه وسلم) "مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ وَأَنْ يُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ"[1] (يُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ أي يظل يُذكر بين الناس حتى بعد وفاته)، ولكن ما شعرت به هو أن تقوى الله أثمرهن. ربما ذلك لأن الاستغفار يكون تصحيحًا لمسارٍ خاطئٍ للعبد (وهو الوقوع في المعصية)، فينتج عن ذلك أن الذنب يُغفَر فلا يمنعه الله من الرزق، ولكن تقوى الله لا شك أنها درجة أعلى وهي مجاهدة النفس قبل الوقوع في المعصية من أجل الله. فالاستغفار بمنزلة ترميم الثقوب في مركب يتسرب من خلالهن الماء، ولكن التقوى التي تجعل المرء يتجنب المعصية من الأساس هي بمنزلة حسن صناعة المركب بحيث ألا يكون فيها ثقوب في المقام الأول، فأيهما فعَّالٌ أكثر؟

إن الذي يعصي الله ثم يتوب أفضل من الذي لا يعصي الله ولا يتوب؟!

قد يتسول للعبد أن أن من تاب بعد معصية أفضل ممن لم يرتكبها في الأصل، تحت استيعاب وتطبيق خاطئ لأحد النصوص مثل أن الله يبدل سيئات التائب حسنات. فإن كان يزعم أنه يعمل تحت مثل هذا الافتراض، فلم لا يفعل العمل الصالح مباشرةً ويأخذ الحسنات؟ هذا خصوصًا أنه ليس مضمونًا إقباله على التوبة، وإن حققها فليس مضمونًا أن تكون صحيحة وتُقبَل خاصةً إن لم يندم من المعصية، وإن قَبِلها الله فليس مضمونًا أن تُبدل سيئاته حسنات إذ إن القاعدة هي أن كل تائب يُغفر له ولكن لا يُشترط أن تُبدَّل سيئاته إلى حسنات. وقد استفضنا في العلل وراء ما يُشابه هذا النهج الفكري في فصل سابق.

بهذا الفكر يبلغ المرء مرحلة من تجاهل للحقائق إلى حد خداع النفس، إذ إنه يفترض أن العبد الذي لا يعصي الله ليس له حسنة ولا سيئة. والحقيقة هي أن التقيَّ الذي يزجر نفسه عن المعصية له أجر، وهذا إن لم يكن التقي يُقبل على طاعة في حين يُقدم المرء على المعصية. فكيف، بالمنطق، لهما أن يتساويا في نهاية الأمر والوضع هو أن التقي قد تقدَّم على العاصي من قبل أن يبدَءَا السباق؟! فإن حدث وتقدم العاصي بتبديل الحسنات، تقدم التقي أيضًا، فيُستبعد تحصيله. هذا والتقي يأخذ أجرًا حتى على أعماله الشخصية الراتبة، فقد قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في بعض حديثه "وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ" قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيَأْتِي أَحَدُنَا شَهْوَتَهُ وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ؟! قَالَ "أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ أَكَانَ عَلَيْهِ فِيهَا وِزْرٌ؟ فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلَالِ كَانَ لَهُ أَجْرًا"[2].

ولمن يزال لا يقتنع، فليحسبها بالأرقام بناءً على حديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "إِنَّ رَبَّكُمْ رَحِيمٌ، مَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةً، فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ عَشْرًا إِلَى سَبْعِ مِائَةٍ إِلَى

[1] صحيح البخاري 5526.

[2] صحيح مسلم 1674.

أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةً، فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ وَاحِدَةً أَوْ يَمْحُوهَا، وَلا يَهْلِكُ عَلَى اللَّهِ إِلا هَالِكٌ"[1]. ففي أصغر معصية، تُكتب للعاصي سيئة واحدة، فإن بُدِّلت في أحسن الأحوال ستكون حسنة واحدة. وتُكتب للذي نهى نفسه عنها حسنة واحدة في أقل تقدير إن لم تُضَاعَّف، لأن امتناعه عن المعصية تُعد من الأعمال الصالحة كما دل قوله (صلى الله عليه وسلم) "وَنَهْيٌ عَنْ مُنْكَرٍ صَدَقَةٌ" في جزء آخر من الحديث المذكور آنفًا، ونهي النفس أولى من نهي الناس فيُعدّ صدقة. أما إن كان التقي قد أقبل على عمل صالح في نفس الوقت الذي أقبل فيها العاصي على المعصية، فإن له عشر حسنات زائد حسنة إعراضه عن المعصية، أي أحد عشر حسنة، وهذا في أقل تقدير إن لم تُضَاعف إلى سبع مائة ضعف أو حتى أكثر.

ثم ليضع المرء نفسه في مكان التقي، كيف سيكون شعوره عندما يرى أن العصاة والفُجار يسبقونه ويرتقون عنه في المنازل فقط لأنهم تابوا بعدما كانوا يرتكبون ما يشتهون. هذا خاصة في حين كان هو يَكدِّ في تقوى الله ومصارعة النفس عن معصية الله، فهل يرى أن هذا عدل؟

هذا الظن الفكري، إذا كان حقيقةً، فإنه سيُحث على الفساد، إذ إنه يُرسخ عند المُتقين أنهم إذا أرادوا بلوغ الدرجات العُلى عند الله فعليهم ترك طاعة الله، والإقبال على معصيته تعالى ثم على التوبة. وهكذا، لسعى عامة المتقين إلى المعاصي، وهذا فيه تناقض واضح وإفسادٌ كبير في الأرض، والله لا يُحب الفساد.

ومحور آخر قد يسوق العبد للاقتناع بهذا الفكر العام هو أن يُسيء استيعاب حديث الرسول (صلى الله عليه وسلم) "وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللَّهُ بِكُمْ وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ فَيَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ"[2]. هذا قد يوهم العبد أن الله يُحب للعبد أن يعصي ثم يستغفر، أو على الأقل لا يُمانع أن يرتكب العبد معصية ما دام سيستغفر بعدها، وهذا في الحقيقة تحريف لمغزى الحديث عندما يُوضع بجانب أحاديث أُخر. فمثلًا، هل المعصية المسموحة تتضمن الكفر أو الشرك بالله؟ بمعنى آخر، هل يظن المرء أن الله يُحب أن العبد يكفر به ثم يعود إلى الإسلام، أو أن يُشرك بالله ثم يرجع للتوحيد؟

هذا مع العلم أن الكفر والشرك أبغض الذنوب عند الله، وأن حتى إن استطاع العبد أن يرجع منهما بعدما تعمد ورضي بارتكابهما، فإنه لن يعود إلى الإسلام سالمًا كما كان قبل أن يُقبِل عليهما. قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "مَنْ حَلَفَ فَقَالَ: إِنِّي بَرِيءٌ مِنْ الْإِسْلَامِ؛ فَإِنْ كَانَ كَاذِبًا فَهُوَ كَمَا قَالَ، وَإِنْ كَانَ صَادِقًا فَلَنْ يَرْجِعَ إِلَى الْإِسْلَامِ سَالِمًا"[3]. بل وقد لا يرجع أصلًا ولا يُغفر له، كما قال

[1] سنن الدارمي 2667.

[2] صحيح مسلم 4936.

[3] سنن أبي داود 2836.

تعالى {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا} [النساء 137].

فقد يجادل أحدٌ ويقول إن مثل هذه المعاصي العظيمة مُستثناة، قاصدًا أن المعاصي الصغيرة هي التي يسري عليها حديث ارتكاب الذنوب، فمن أين له الدليل على هذا وقد ثبتت القاعدة ابتداءً من الكفر أنه قد لا يرجع من المعصية سالمًا. وليُنبئنا بعلمٍ: من أي معصية تحديدًا (وتبعيًّا ما هو أصغر منها) يبدأ يسري عليها الحديث؟

بل وقد يتمادى أحد فيتوهم بهذا الحديث أن الله يُحب أو يرضى أن تُرتكب الرذائل، وهذا من أكبر الافتراءات وأوضح التناقضات إذ إن الله هو الحق العدل الطيب، فلا يليق به (ولا يُمكن) أن يدعو إلى عبثٍ أو شرٍ أو ظُلمٍ أو قُبحٍ أو فسادٍ {وَإِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءنَا وَاللّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء أَتَقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ} [الأعراف 28]. فأنى قد يُحوّل العبدُ الحديث إلى هذا المفهوم في حين مغزى الحديث أن الله قدَّر أن يكون الإنسان خطَّاء فلا مفر من ذلك، وأن ما من إنسان يستطع بلوغ تقوى الله إلى حد أنه لا يعصي الله نهائيًّا، فإنما عليه الاستغفار إذا وقع في ذنب بعدما اجتهد في تجنب العصيان. فالحديث مواساة للمتقين عن اليأس عندما يُخفقون وليس رخصةً للمسلم بأن يُسرف في المعاصي، وأن الله يُحب المُستغفرين وليس العُصاة.

يُضاف على هذا قول العلماء إن المُصرّ على الصغيرة كالمستهزء بحدود الله فلا تُقبل توبته حتى يترك الإصرار. ومن ثمَّ لن يُحقق هذا المُصرّ جانب الاستغفار من الحديث، فلن ينطبق عليه الحديث من الأصل.

فوق هذا أن حتى إن فهم المرء الحديث بالتأويل المُنحرف، أي أن فيه حث على العصيان، فإنه إن نظر إلى نفسه سيرى أنه عنده ما يكفي من رصيدٍ للذنوب وأنه بالفعل قد حقق لوازم تصنيفه كعبدٍ يقع في المعاصي، إذ إن الإنسان بطبعه يقع في المعاصي باستمرار بتلقائية أو بعدم اعتبار أنه وقع في معصية (ولا أقصد بالخطأ، والذي قد لا يؤاخَذ عليه المرء). ففي خلال اليوم الواحد، يقع العبد في عدة معاصٍ لم يُخطط لها، فلا يحتمل الوضع أن يزيد عليهن بالمعاصي المُخَطط لهن. بل والسؤال الذي ينبغي أن يواجه كل امرئ منا نفسه به هو: هل نواظب على الاستغفار باستمرار للتكفير عن هذه الذنوب التي لا نُلقي لها بالًا حتى نبدأ بالتخطيط لمعاصٍ أُخرى؟

إني سأرتكب هذه المعصية لأُحقق خيرًا من ورائها

قد يُسوَّل للمرء فكر غاية في الخبث والفتنة، ألا وهو أنه سيجني من وراء المعصية خيرًا أو منفعة أو يُحقِّق عدلًا، خاصة لو كانت لمنفعة عامة وليست خاصة عليه فحسب. ومثالًا على هذا هو

أن المرء قد يرى أنه سيسرق من شخصٍ بالغ الثراء (وربما ظالمٌ أيضًا) ثم سيتصدق بهذا المبلغ للفقراء والغارمين، فيُحقق مصلحة عامة أكبر من الضرر الواقع على فرد، ويظن أنه يُقدِّم خيرًا للمجتمع وعملًا صالحًا لله.

لكن، القواعد التي تُبطل هذا الفكر والمُبادرة لسلوك هذا السبيل كثيرة جدًّا، منها قول سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) "أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لا يَقْبَلُ إِلا طَيِّبًا، وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ فَقَالَ {يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنْ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ}، وَقَالَ {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ}"[1]. وهناك أيضًا قوله (صلى الله عليه وسلم) "من أصابَهُ شيءٌ من الأدواءِ فلا يَفْزَعَنَّ إلى شيءٍ ممَّا حَرَّمَ اللهُ، فإنَّ اللهَ لم يجعلْ في شيءٍ ممَّا حَرَّمَ شفاءً"[2]. وهذا كمبدأ عام، بمعنى أنه لا يمكن أن يكون بلوغ الخير عن طريق الشر (أي بما حرَّمه الله).

ثم ليتذكر العبد أن الله إنما حرَّم ما حرّمه علينا لأن ضرره أكبر من نفعه، فلا يُمكن للمرء أن يُقدِّم أو يُحصِّل منفعة أكبر من الضرر عن طريق معصية. أما في الاستثنائات التي يكون فيما حرَّمه الله (عامةً) منفعة أكبر من ضرره فهو مذكور في الشرع، مثل الخُيلاء في الحرب لإرهاب العدو، أو الكذب للإصلاح بين الناس، فيجب أن يكون عند المرء نص صريح يستدل به على جواز فعل مُحرَّم بعينه وفي وضعٍ مُحدد، وإلا لعمّت الفوضى.

أما المبدأ العام، فهو ما ذُكر أن في المعصية ضررًا أكثر من المنفعة ولكن قد لا يستوعبه أو لا يراه العبد. ففي المثل الذي ضربناه –السرقة من الثري ثم التصدق بها للفقراء– يهدم المرء العادات والمبادئ الراسخة في المسلمين بصون وحُرمة ممتلكات غيرهم، وتحقيق الأمن والأمان في المجتمع اللذين هما أُسس في تقدم الأمة وازدهارها. وضرر هدم هذه القواعد أعظم بكثير مما يحتسبه المرء، أعظم من المنفعة التي سيجلبها، وهذا مشهود عليه بالتجربة والخبرة على مر التاريخ، ومن أسباب أن العلماء توصَّلوا إلى قاعدة وضعوها: درء المفسدة مُقدَّم على جلب المنفعة. ثم إن الأفعال الخبيثة وإن كان وراءها نيات حسنة تجلب على صاحبها الشك فيه والاتهام، بل والأدهى أن بالأفعال الخبيثة يسهل أن تُقلب نياته إلى نيات خبيثة، فلعله بعد أن يسرق المال يدَّخر بعضًا منه لنفسه أو يستخدم منه لنفقاته، وهكذا يكون هو شخصيًّا أكَل مالًا حرامًا.

فلا يُمكن للمرء أن يقتنع أن معصية الله ستجلب له منفعة، فحتى إن كانت فيها منفعة يسيرة فإنها تجلب معها أضرارًا جمة، بل ولعل من هذه الأضرار ما سيمحو أثر هذه المنفعة اليسيرة المُحصَّلة ولكن بعد حين، وربما تزيدها تفاقمًا حتى. ومثالًا على المُستوى الشخصي، فلا يليق ولا

---

[1] صحيح مسلم 1686.

[2] السلسلة الصحيحة للألباني 892/6.

يصح للمرء أن يقتنع أنه بالنظر إلى ما حرَّمه الله من نساء لا تحل له أنه سيستوعب بعضًا من عظمة الله عن طريق التأمل والتفكر فيما أبدعه الله من جمال في مخلوقاته، فهذا فكر خبيث وباطل ودنيء من عدة جوانب. ونتيجة مثل هذا الفعل هو أن قلب العبد سيبتعد عن الله انشغالًا بالسعي وراء شهواته بدلًا من الاقتراب من الله. ولا يمكن للمرء –تحت أي حال من الأحوال أو افتراض من الافتراضات– أن يقتنع أنه بالمعصية سيرتقي منزلةً عند الله، سواء على أساس أنه سيكون أفضل بعدها بالتوبة أو أنه هكذا يتواضع لله أو أنه يتقرب إلى الله عن طريق اسمه الغفار أو أنه سيزداد علمًا وإيمانًا ودراية بالله، أو غير هذا من المُبررات الباطلة.

ونموذجٌ آخر من هذا الفكر الخاطئ هو أني أتحجج بأن المعصية تجعلني أكثر انكسارًا ورجاءً وإخلاصًا في مناجاة الله بعدها. تحت هذا المبرر، يتسول لي أني سأخرج بفائدة إيمانية من المعصية؛ قد قلبت القواعد والواقع. وهذه الفكرة مُفتنةٌ جدًّا إذ فيها بعض الحقيقة، وهي أن المعصية تورث صاحبها ذُلًّا سواء كان فاجرًا أم تقيًّا، ولكن يزيد التقي على هذا أنه يصبح أكثر انكسارًا ورجاء لله إذ إنه يندم ويتضرع إلى ربه ليغفر له. وليس ذلك للفاجر إذ لا يندم على المعصية، بل قد يفرح ويتباهى بها.

المشكلة المبدئية من وراء هذا النهج هو أن تعمد العبد لاستغلال هذا الواقع هو أشبه بالمكر مع الله بدلًا من الصدق مع الله، مما قد يجلب على التقي عقاب الله بأن يسوقه إلى أن يكون قلبه مثل الفاجر (لا يندم بعد ارتكاب المعصية)، فلا ينكسر إلى الله. ولم لا يحدث هذا وقد صار التقي مستهزءًا بالقواعد التي وضعها الله، متهاونًا في مخالفة حدوده تعالى؟

فوق هذا، فإني إن كنت لا أبلغ أقصى الانكسار والرجاء والخشوع والتضرع والإخلاص في المناجاة مع الله إلا بالمعصية، فالعِلة فيّ أنا، إذ إن هناك أدلة قطعية تنقض اقتناعي بهذا. منها أن الأنبياء بلغوا من الانكسار مع الله والخضوع والرجاء ما لن أبلغه أبدًا، وبلغوا منتهى الصفات الحميدة، وهذا دون عصيان الله. فها هو سيدنا إبراهيم (عليه السلام)، الذي كانت معصيته الوحيدة (كما يرى هو) أنه كذب ثلاث كذبات[1]، وهن في الحقيقة تعريضٌ بالكلام وليسوا بكذبات حتى، قد شهد الله له أنه صِدّيق، وأنه من المتعبدين، ومن المنيبين.

[1] قد تَعلل سيدنا إبراهيم عليه السلام، يوم يأتيه الناس ليشفع لهم عند الله يوم القيامة، بأنه عصى الله بالكذب كما في الحديث "فَيَقُولُ لَهُمْ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ وَإِنِّي قَدْ كُنْتُ كَذَبْتُ ثَلاثَ كَذِبَاتٍ، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى مُوسَى". قال العلماء: إن كلامه أنه سقيم هو بقصد أنه سقيم من شركهم بالله؛ وقوله فعله كبيرهم هذا هو من باب التقريع وبيان علة عبادتهم الأصنام وإثبات الحجة عليهم، وهم يعلمون أن كلامه لا يمكن أن يُحمل بمعناه الظاهر إذ يعلمون أن هؤلاء الأصنام لا ينطقون ولا يتحركون؛ وقوله لزوجته أن تُخبر الملك الظالم أنه أخوها هو بمقصد أنهما إخوة في الإيمان.

قال تعالى {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا} [مريم 41]، وقيل عن معنى الصدِّيق: من صدّق الله في وحدانيته وصدّق أنبياءه ورسله وصدّق بالبعث، وقام بالأوامر فعمل بها. ولا شك أن القيام بأوامر الله تشمل الامتناع عما نهى الله عنه، فهذه شهادة من الله أن سيدنا إبراهيم (عليه السلام) لم يكن يعصيه. ثم جاء {وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ (71) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ (72) وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ} [الأنبياء 71-73]، ومصطلح العابد يشمل أنه كثير التضرع إلى الله. ومما لا شك فيه، أنه لا يبلغ منزلة المُتعبِّد من يُبرر تعمده في عصيان الله.

وفي آية أخرى جاء {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ} [هود 75] (أَوَّاهٌ أي الخاشع المتضرع كثير الدعاء؛ مُنِيب أي السريع والمُكثر في الرجوع إلى الله بالتوبة والاستغفار)، فهو منيب إلى الله بالرغم من عدم عصيانه لله. بناء على هذا كله، فقد بلغ سيدنا إبراهيم (عليه السلام) منزلة المتعبد المُخلص المنيب، وإلى لدرجة أن الله اتخذه خليلًا، دون الحاجة إلى أن يعصي الله.

وليس فقط هو، بل رفع الله من شأن أنبياء أُخر بالتحديد، مع العلم أن الله قد اصطفى من الناس من يكونوا أنبياء بناءً على صفاتهم وأخلاقهم الحميدة، ومنها بالطبع أنهم لا يرتكبون ما تستنكره الفطرة أو يُخالف الحق والعدل والآداب. قد قال تعالى عن سيدنا موسى {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا} [مريم 51]، وعن سيدنا إسماعيل {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا} [مريم 54]، وعن سيدنا أيوب {وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ} [ص 44]، عليهم السلام جميعًا.

وهناك بالطبع أرفع الخلق مكانةً وهو الرسول (صلى الله عليه وسلم)، الذي يبلغ منزلة الوسيلة (هي أعلى منزلة عند الله لبشر) بإذنه تعالى، ومنها أنه هو الوحيد الذي أُذِن له أن يشفع للناس يوم القيامة. إنه (صلى الله عليه وسلم) لم يعصِ الله قط، ومع هذا فإنه بلغ مرتبة الإنابة كما شهد ابن عمر (رضي الله عنهما): إِنْ كُنَّا لَنَعُدُّ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْمَجْلِسِ الْوَاحِدِ مِائَةَ مَرَّةٍ "رَبِّ اغْفِرْ لِي وَتُبْ عَلَيَّ إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ"[1]، وبلغ مرتبة التعبد بدليل كثرة قيامه الليل وقوله عندما سُئل عن ذلك "يَا عَائِشَةُ، أَفَلا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورا"[2]، وكان يبلغ ما يبلغه من الانكسار والرجاء والتضرع في أثناء مناشدته الله كما شهد عبد الله ابن مسعود (رضي الله عنهما) قائلًا: ما سمعْنَا مناشدًا ينشدُ ضالَّةً أشدَّ مناشدةً من محمدٍ لربّهِ يومَ بدرٍ: "اللَّهمَّ إني أنشدُك ما وعدْتَنِي"[3].

---

[1] سنن أبي داود 1295.

[2] صحيح مسلم 5046.

[3] فتح الباري لابن حجر العسقلاني 337/7.

بل إن حقيقة وضعي أَمَرُّ مما أتخيل، وهي أني إن لم أبلغ الانكسار والخشوع مع الله في المناجاة فهذا حاجزٌ قد وضعه الله بيني وبينه كعقاب لي على معاصٍ سابقة مني! وهذا ما يشير إليه كثير من العلماء، فقد ذكر ابن الجوزي أن بعض أحبار بني إسرائيل قال: يا رب كم أعصيك ولا تعاقبني؟ فقيل له: كم أعاقبك وأنت لا تدري، أليس قد حرمتك حلاوة مناجاتي؟ [ثم عقَّب ابن الجوزي رحمه الله] فمن تأمل هذا الجنس من المعاقبة وجده بالمرصاد، حتى قال وهب بن الورد وقد سُئل: أيجد لذة الطاعة من يعصي؟ قال: ولا من همَّ [أي ليست حتى لمن عزم على معصية ولم يرتكبها بعد]. فرب شخص أطلق بصره فحُرِم اعتبار بصيرته، أو لسانه فحُرِم صفاء قلبه، أو آثر شبهة في مطعم فأظلم سرّه، وحُرم قيام الليل وحلاوة المناجاة، إلى غير ذلك. وهذا أمر يعرفه أهل محاسبة النفوس[1].

وتحديدًا، إن كان هذا وضعي، فالعلة في قلبي. قال يحيى بن معاذ: سَقَمُ الجسد بالأوجاع، وسَقَمُ القلوب بالذنوب، فكما لا يجد الجسد لذة الطعام عند سقمه، فكذلك القلب لا يجد حلاوة العبادة مع الذنوب[2]. فإذا كانت معصيتي لله هي التي أفقدتني حلاوة العبادة والإخلاص في مناجاة ربي وقوة التضرع مع الله، أفأعمد إلى استرجاع قوة مناجتي لله والإخلاص في عبادته بمعصية أخرى؟! أمنطقي هذا؟ وإن فلح هذا النهج على المدى القصير، فإنه ولا بد سيفشل على المدى البعيد، إذ إن الإنسان بطبعه يفقد توسله إلى الله ويذوب انكساره لله عند أبسط إشارة أنه قد غُفر له؛ عندما ينال طلبه من الله عامةً.

فلعل بعد المعصية أجد أني أرجع كما كنت في أقل من يوم، قد ذهب الانكسار والتضرع إلى الله لأن الندم زال عني؛ قد بدأت أضحك وأمرح وكأن شيئًا لم يصدُر مني. بل وربما رجعت أسوأ مما كنت عليه، إذ استبدلت الانكسار بالغرور اقتناعًا أني قد قُبِلَت توبتي، وأرى أني أصبحت أفضل من قبل إذ سوَّلت لي نفسي أني مُميز عند الله لأنه يغفر لي بالقليل من العمل. والأفج هو أني أحيانًا قد أبلغ من الجرأة وتعظيم النفس والوقاحة أن أرى أن كمّ وتكرار ما قدَّمته، وبطُرُقٍ شتى، من استغفار وتوبة وانكسار فهو يكفي لمحو هذا الذنب! ولكن أنَّى الدليل على أن الله قَبِلَ توبتي بالرغم من احتمالية أن تضرعي إليه لا يتناسب مع عِظم جُرم المعصية التي ارتكبتها، فإنما يتقبلها بالتفضل؟! وأنَّى الدليل على أني مُميز عند الله مع أني أعصيه، بدلًا من أكون مُستَدرَجًا من الله؟! وأنى الدليل على أن الله أحبَّني بعد التوبة بدلًا من أن يمقُتني لأني أستكبرت وقلت في نفسي: يكفي ما قدّمته من توبة؟

---

[1] صيد الخاطر لجمال الدين بن محمد الجوزي 34.

[2] ذم الهوى لعبد الرحمن بن علي بن الجوزي 68.

بل الأدهى هو: هل أنا الذي تم مُخالفة حقِّه، والتوبة هذه مُقدَّمة لي، حتى يحق لي أن أُقرر أرضيت بها أم لا؟ أم هل أنا الذي بيدي وضع الأجر على توبتي حتى أقول إنها تُغطي قدر الانتهاك؟

أنتظر حتى يهديني الله لأُقلع عن المعاصي

قد يقول المرء لنفسه تمنيًا على الله مع ترك الأسباب: ربنا يهديني. وهذا فيه قصر في النظر، لأن ليست القاعدة الأساسية أن الله يهدي أو يضل أناسًا بعشوائية، فتعالى الله أن يفعل شيئًا دون حكمة. إنما هي استثناءات أن يهدي الله شخصًا وعمله غير صالح، كالمثل الذي جاء في حديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ إِلَيْهِ مَلَكًا بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ فَيُكْتَبُ: عَمَلُهُ وَأَجَلُهُ وَرِزْقُهُ وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ؛ ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ الرُّوحُ. فَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَدْخُلُ الْجَنَّةَ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُ النَّارَ"[1].

والجزء الأخير من الحديث هو ضرب المثل بالحالات الاستثنائية لإبراز دقة الكتاب، وعامة الناس يعلمون أن هذا هو الاستثناء، وإلا لخاض كل الناس في المعاصي مع التزامهم بالدعاء لأنفسهم أن يهديهم الله. وقياسًا توضيحيًّا للأمر، فلنتأمل في عكس ذلك، وهو الذي يدخل النار بالرغم من أن عمله كان (يبدو) صالحًا، فهذه ليست القاعدة بل الاستثناء، والدليل هو أن الناس يحكمون أن مثل هذا الشخص يكون مظلومًا من ظاهر الأمر.

هنا ينبغي التوضيح أن الله يكتب على العبد شقاء أو سعادة الآخرة ليس كحكم نافذ على المرء دون أسباب، بل هو من علم الله للغيب مسبقًا عن العبد وما في قلبه، فيكون في الحقيقة ما يستحقه العبد. والاستثناء في هذه الحالة تكون لأن ذاك الشخص، كما جاء في تفاسير الأحاديث، الذي يعمل بعمل أهل الجنة ثم يُختم له وهو يعمل بعمل أهل النار، في الحقيقة باطنه مُخالف لظاهره. وذلك مثل المنافق الذي يُصلي ويصوم ولكن يتربص للمؤمنين الأذى، فظاهر عمله للناس صالح ولكنه يمكر ويبغي الفساد بباطنه، أو في نفسه ريبة من ناحية الإيمان بالله.

والمرء الذي يعمل بعمل أهل النار ثم يُختم له بعمل أهل الجنة قد يكون عكس ذلك، كما جاء في جزء من حديث آخر "إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ الْجَنَّةِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ وَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ النَّارِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ وَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ"[2]، ويجب ملاحظة لفظ الحديث "فِيمَا

[1] صحيح البخاري 3085.

[2] صحيح البخاري 2683.

يَبْدُو لِلنَّاسِ". فقد يكون ذاك الشخص يرتكب معاصي في العلانية ولكنه في السر يعمل عملًا يسيرًا صالحًا بالغ الإخلاص، وهذا العمل عند الله استثنائي وبالغ القدر. أو قد تكون عنده نيَّة حسنة صادقة مثل أنه يريد ترك باب مفتوح بينه وبين الله بعملٍ صالحٍ من بين معاصيه الكثيرة، فيدفع نفسه دفعًا لتحقيقه، فيتقبل الله ذلك منه، والله أعلم بأحوال عباده.

أو يكون هذا الشخص باطنه طيبًا وصافيًا، يريد لإخوته حوله الصلاح والنجاة، بالرغم من ضعف صبره ووقوعه كثيرًا في المعاصي شخصيًّا، فلا يريد لهم البلاء مثله، بل يرجو لهم العفو والعافية مما هو فيه. وهذا بخلاف ما نراه من كثير من العصاة في المجتمع الآن، فإنهم انزلقوا في المعاصي ويريدون جر الناس معهم ليكونون سواء.

عامة، إن الأدلة تشير إلى أن هدى الله يُنال بالنيات الطيبة في القلب (أي الإيمان الصادق) مع القول والعمل الصالح. والأمثلة على هذا كثيرة مثل {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ} [يونس 9]، {نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى} [الكهف 13]، {وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ} [محمد 17].

وكذلك العكس مع من يُضله الله، مثل ما جاء في قوله تعالى {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ} [النحل 36]، مع ملاحظة جملة "مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ". وأمثلة أخرى هي {فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللّهُ مَرَضا وَلَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ} [البقرة 10]، {أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَـهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ} [الجاثية 23]، {الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ} [غافر 35]، {إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاء رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ} [التوبة 93].

وهذا العذر، بانتظار هدى الله أن يصيب المرء دون عمل يجلب ذلك، هو إيقاع النفس في فخ، لأن تلك ليست سنة الله التي سنّها وليست الكيفية التي تسير بها الأمور. حاله كالذي ينتظر الرزق وهو جالس في بيته ولا يعمل ولا يفتح لأحد، حتى يجد نفسه يقول مثل الذين قالوا {وَبَرَزُواْ لِلّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاء لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللّهِ مِن شَيْءٍ قَالُواْ لَوْ هَدَانَا اللّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاء عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ} [إبراهيم 21].

فالعمل العمل، مع طلب الهداية من الله بالدعاء. وهناك طريقان أساسيان لجلب الهداية من الله، إما بالعمل الصالح مثل الأخذ بكتاب الله قراءة وتدبرًا وتنفيذًا، ولمن يستطيع حفظًا أيضًا، أو بالإعراض عن منكر (معصية) نهى الله عنه. أما الصبر على البلاء ففيه إمكانية تحقيق الأمرين، عن طريق الرضا بقضاء الله وبتجنب دفع البلاء بما حرَّمه الله. فكلا الطريقين يزيد من الهداية بجلب هدى الله وحبه للعبد، فهل تُتناول الثمار إلا بعد الكد؟

ثم إن هذا النهج الفكري هو على نحو ما احتج به مشركون، فجاء عنهم {سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ} [الأنعام 148]. وضعوا ذلك المبدأ الصحيح في غير موضعه، إذ إنهم لم يريدوا ترك الشرك فلم يسعوا لذلك، فتحججوا بالمبدأ ظُلمًا وعنادًا، ويكأنهم يقولون: ننتظر حتى يجبرنا ربنا على ترك عبادتنا للأصنام!

بل وتعدوا ذلك في الإيحاء بأن الشرك الذي هم عليه لا يسخط عليه الله وإلا لمنعهم عنه، ولم يكونوا ليستطيعوا أن يُحرّموا أصنافًا من الدواب لو لم يُرد الله ذلك. ولو كانوا صادقين مع الله وأنفسهم لأقروا ببطلان حُجّتهم، إذ تعني أن كل ما حرَّمَه الله على عباده لن يقدروا على فعله وإن أرادوا. يريدون ترويج فكرة أن الله راضٍ عما يفعلونه بما أنه لا يمنعهم مما يصنعون، فأي افتراء وعناد وفجور هذا؟

ويتشابه سلوك المسلم بهم عندما يتبنى ذلك الفكر الباطل منتظرًا أن يهديه الله، أي ينتظر حتى لا يجد طريقةً لارتكاب المعصية، قد منعه الله من ارتكابها. ولو أن الهداية عبارة عن منع العبد من إيجاد سبيل لارتكاب المعصية، فأين الاختبار والتمحيص الذي يتم بين الناس لتحديد درجاتهم في الآخرة؟ بمعنى آخر، إذا كانت الهداية عبارة عن أن الله يمنع العبد من إتمام المعصية، فكيف يُعرف العبد الذي اجتهد وامتنع عن ارتكاب المعصية مع قدرته على ارتكابها؟ ولو أن هذا هو الواقع فَعَلى ماذا يأخذ أجرًا؟ فهذا تعريف خاطئ للهداية. إن الله يريد من العبد أن يختار طاعته تعالى وتجنب عصيانه مع قدرة العبد على عصيانه، فهذا هو العبد القيّم عند الله، وإلا فهو تعالى قادر على أن يخلق إنسانًا أعمى أصمّ أبْكَم مُعاق العقل ومشلول الجسد غير قادر على المعصية، أو أن يكون مجبولًا على طاعة الله كالملائكة، أو يشعر كأنه سيموت عندما يقترب من معصية فيفر من العصيان كفراره من الموت، فهل نظن أن هكذا تحقق ما يُريده الله منا؟

ويتَّصف مثل هذا المُتمني بأنه لا يأخذ خطوات، ولو بسيطة، سعيًا لهداية الله على أساس أنه لعل الله أن يهديه بإحداهن، وحتى يكون آملًا إياها بصدق. فهو في الواقع لا يفتح بابًا مع الله قد يجلب الهداية عليه، بل وإن فُتح له سبيل لاستحقاق هداية الله، يُغلقه!

حقيقة الأمر أن رغبتي من وراء هذه الحجة هي الاستسهال، بحيث أن الالتزام لا يتطلب مني جُهدًا. واقعيًّا، بهذا الفكر أريد من الله أن يُسري بعقلي حتى يكون العمل الصالح مُسليًا لي، وأن يدفع قدمي لأسير إلى العمل الصالح، ويرفع يدي لإتمام العمل الصالح، ثم آخذ أجرًا على هذا، ثم أدخل الجنة بهذا الأجر. فاحكموا أنتم على هذا الفكر. فما الذي أنتظره حقيقة حتى أُقلع عن عصيان الله، إلى هذا الذي اعترفت به أم حتى يصير حالي إلى ما وصفه الرسول (صلى الله عليه وسلم) "كُلُّ أَهْلِ النَّارِ يَرَى مَقْعَدَهُ مِنْ الْجَنَّةِ فَيَقُولُ: لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي! فَيَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً"[1]؟

إن المعاصي التي أرتكبها مكتوبة عليَّ فلا يمكن أن أتفاديها

هذا الفكر يتسول للمرء كذريعة لارتكاب المعاصي بحرية، بإلقاء اللوم على أن المرء مُسيَّر، أي احتجاجًا بأن كل شيءٍ سيفعله مكتوب في اللوح المحفوظ مُسبقًا. وقد يستدل أيضًا بأحاديث للنبيّ (صلى الله عليه وسلم) مثل "كُتِبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ نَصِيبُهُ مِنْ الزِّنَا مُدْرِكٌ ذَلِكَ لَا مَحَالَةَ، فَالْعَيْنَانِ زِنَاهُمَا النَّظَرُ، وَالْأُذُنَانِ زِنَاهُمَا الِاسْتِمَاعُ، وَاللِّسَانُ زِنَاهُ الْكَلَامُ، وَالْيَدُ زِنَاهَا الْبَطْشُ، وَالرِّجْلُ زِنَاهَا الْخُطَا، وَالْقَلْبُ يَهْوَى وَيَتَمَنَّى، وَيُصَدِّقُ ذَلِكَ الْفَرْجُ وَيُكَذِّبُهُ"[2].

والحقيقة هي أن هذا المنظور معلول من عدة جهات، بدايةً لأن هذا الاستنتاج مؤسس على مفاهيم خاطئة، منها أنه يظن أن كل ما كُتب في اللوح المحفوظ مفروض عليه، ولكنه هكذا يخلط أمورًا ويرى أمورًا أخرى بالمقلوب. إن العبد مُسيَّر في أمور ومُخيَّر في أمور، فهو مُسيَّر في المكان والوقت الذي يُولد فيه مثلًا، وهو مُخيَّر في أمور مثل ما يأكله ويشربه. اللوح المحفوظ مكتوب فيه الجانبان، ما العبد مُسيّر عليه وما هو مُخيَّر فيه، فلا يقع أحدنا في خطأ خلط أمور التسيير مع التخيير.

فيما يختص بما هو مكتوب عليه في الأمور المُخيَّر فيها، إنما هي مكتوبة من علم الله للغيب، أي إن الله يعلم أن العبد سيختار هذا، وليس مكتوبًا كقضاء عليه، وإلا لم يكن ليُؤاخَذ بذنب المعصية عندما يعصي الله، لأن آنذاك سيكون ظُلمًا له، ولكن الله لا يظلم. فواقع الأمر أن ما هو مكتوب على المرء في اللوح المحفوظ من المسائل المُخيَّر فيها هي تجميعٌ لاختياراته في الدنيا، وليس العكس بأن هذا ما يُفرض عليه. ثم إذا كان هذا كقضاء نافذ على المرء لا محالة، لكان من الأمور المُسيَّر إليها من الأساس وليست من باب الأمور المُخيَّرة، وهذا يُنافي المنطق إذ إن العبد يُدرك أنه كان مُخيَّرًا.

---

[1] مسند أحمد 10240، جزء من الحديث.

[2] صحيح مسلم 4802.

أما الحديث المذكور فهو يجمع بين المسألتين، بين ما هو مُسيَّر على العبد وما هو مُخيَّر فيه. فمثلًا، إنه مُسيَّر عليه أن تعبر من أمامه امرأة متبرجة فيقع نظره عليها عفويًّا، فلم يكن له يد في ترتيبات هذا الحادث، ولكن ما سيفعله بعد ذلك هو ما هو مُخيّرٌ فيه ومؤاخذٌ عليه. فإذا أطال النظر أو نظر إليها ثانيةً ليتأملها كُتب عليه ذنب الزنا بالعين، وإذا تعمد اشتمام عطرها فيُكتب عليه الزنا بالأنف، وإذا تعمد التكلم معها أو يُصافحها أو يمشي إليها كُتب عليه الزنا بالفم أو اليد أو الرجل.

جاء في تفسير هذا الحديث على أن القلب يهوى ويتمنى، أي أن المرء قد يتخيل بقلبه أحداثًا وما شابه بناءً على ما أصابه من زنا الجوارح. والفرج يُصدّق ذلك كله بزنا الإيلاج (الدخول) فيكون قد ارتكب كبيرة من كبائر الذنوب، أو يُكذّب الفرج سائر الأعضاء وما يهواه قلبه بأن ينتهي عن التمادي إلى الزنا هو أيضًا. وجاء أن ما هو دون زنا الفرج فهو اللَّمَم (ما يُلِمَ به المرء من شهوات النفس في صغائر الذنوب)، ولكن تم تسميتهم بالزنا، كزنا العين وزنا الأُذن وزنا اليد، لأنهم يدعون ويقودون المرء إلى الزنا الحقيقي: زنا الفرج.

وعلة أخرى من الاحتجاج بمثل هذا الحديث هو أن العبد يرى المسألة بالمقلوب، أي على أن الحديث يفتح الباب للتراخي في قضية المعاصي إذ شهد أنه لا يمكن للعبد أن يتفادى جميع المعاصي. ولكن حقيقة هذا الحديث هو أنه يُخبر بواقع وضع العبد، أنه كُتب عليه أنه سيقع في العصيان لا محالة لأنه ضعيف والطريق وَعِر، وليس المقصد من هذا الكلام أنها رخصة له، لكنه حتى لا ييأس فيترك مُجاهدة المعصية والاستغفار بعدها، ويُشار إلى هذا بجملة "الْفَرْجُ وَيُكَذِّبُهُ".

فمَثَّل وضع العبد كمثل الجُندي في التدريب، يُطلب منه اجتياز ساحة الحواجز، في حين يعلم قائده ويعلم الجندي أنه سيُصاب بالجروح في أثناء هذه المرحلة. فهذا الإجراء ضروري ليتم تمحيصه، ويعلم قبل خوضه أنه سيُصاب ولكنه سيُحاول ألا يُصاب، وإن أُصيب فإنه يتحمَّل ويُثابر حتى يتم المُهمة، ويتعلم من إصابته فيأخذ تدابير ويعزم ألا يُصاب في المرة القادمة. وهذه هي الرؤية المطلوبة من العبد تجاه الحياة الدنيا والمعصية؛ أي أنه –وهو يمشي– إذا سقط فعليه أن يزيل ما تعلق به من تراب ثم يُكمل.

وإذا كان المرء يزعم أن المعاصي التي سيرتكبها مكتوبة عليه وهو مُنقاد إليها، فلماذا إذًا يتفادى النار إذا اقتربت منه ولا يثبت حتى يرى أمكتوب عليه أنها تصيبه أم لا؟ لماذا يتفادى الأجسام المتحركة التي ستصطدم به ما دام أنه مكتوب عليه أنها ستصيبه؟ أليس يزعم أن ما كُتب عليه أن يُصيبه فسيصيبه لا محالة سواء حاول أو لم يُحاول تجنبه، فالقاعدة واحدة في كل الأمور، بين المعاصي وبين ما يتَّجه نحوه من أذى. فلماذا يسعى ليتفادى الأذى ولكن لا يسعى لتفادي المعصية؟

وينبغي للمرء أن يُفرِّق بين أمرين، بين أنه مكتوب عليه أنه سيُخطئ ويزل فيقع حتمًا في معصيةٍ ما في خلال فترة حياته، وبين أنه يرى أنه حتمًا سيقع في 'هذه' المعصية تحديدًا، فالأولى حق ولكن الثانية هوى النفس. لا يمكن أن يزعم المرء أن معصية مُحددة مكتوبة عليه، خاصة أنه هو الذي يسعى إليها، في حين أن المكروهات التي تُفرض على المرء لا يُسعى إليها بغرض قصدها! هل رأينا المرء يسعى إلى شرب السُمِّ ثم يقول: هذا مكتوبٌ عليَّ؛ أم هل رأينا من سعى في أن يُولد دون يدٍ أو قدمٍ؟

ثم ليكن المرء صادقًا مع نفسه، إن ارتضى بهذا الفكر كعذر له في ارتكاب المعاصي عند الله فليقبله من جميع الناس أيضًا. فلا ينبغي له أن يؤاخذ الناس ولا يغضب من أحد إن عصوه أو آذوه، فلا يحق له أن يُعاتب أو يُعاقب زوجته وولده إن خالفوا أمره أيضًا، كما أشار ابن القيم (رحمه الله): يا ويله ظهيرًا للشيطان على ربه، خصمًا لله مع نفسه، جَبري المعاصي، قَدَريّ الطاعات، عاجز الرأي، مِضياعًا لفرصته، قاعدًا عن مصالحه، معاتبًا لأقدار ربه، يحتج على ربه بما لا يقبله مِن عبده وامرأته وأَمَتِه إذا احتجوا به عليه في التهاون في بعض أمره، فلو أمر أحدهم بأمر ففرّط فيه، أو نهاه عن شيء فارتكبه وقال: القدر ساقني إلى ذلك؛ لما قبل منه هذه الحجة، ولبادر إلى عقوبته.

فإن كان القدر حجة لك أيها الظالم الجاهل في ترك حق ربك، فهلّا كان حجة لعبدك وأَمَتِك في ترك بعض حقك؟ بل إذا أساء إليك مسيء، وجنى عليك جانٍ، واحتج بالقدر لاشتد غضبك عليه، وتضاعف جرمه عندك، ورأيت حجته داحضة، ثم تحتج على ربك به، وتراه عُذرًا لنفسك؟! فمن أولى بالظلم والجهل ممن هذه حاله؟

ثم أشار إلى أن عُذر القَدَر [أي الجبر أو المساقاة] في المعصية لا يَصِح، لأن آنذاك سيدخل فيه جميع العباد ويكونون معذورين. فذكر: عُبَّاد الأصنام والأوثان، وقتلة الأنبياء، وفرعون وهامان، ونمرود بن كنعان، وأبا جهل وأصحابه، وإبليس وجنوده، وكل كافر وظالم، ومتعدٍّ حدود الله، ومنتهك محارم الله، فإنهم كلهم تحت القَدَر، وهم من الخليقة، أفيكون عذر هؤلاء من حقيقة التوبة؟[1] (انتهى بتصرف).

يُضاف إلى هذا أنه إذا اجتهد المرء مرة واحدة لتجنب معصية كان سيقع فيها فاستطاع أن يتجنبها، هذا ينسف افتراضه أن المعصية مفروضة عليه. وأيضًا إذا حدث أنه أقبل على معصية بحجة أنه مجبور عليها، واجتهد في ارتكابها، ثم حدثت ظروف حالت بينه وبينها فلم يستطع فعلها، فهذا يهدم حُجّته تلك نهائيًا، إذ إنه ثبت أمامه بالدليل القطعي أنها لم تكن مكتوبة عليه بعدما زعم

[1] مدارج السالكين لابن القيم 1/210-215، بتصرف.

ذلك. ولكنه قد جمع بالباطل بين مبدأ أنه كإنسان مكتوب عليه أن يقع في المعصية لا محالة وبين أنه ستُعرض عليه معاصٍ كثيرة في أثناء حياته ليُختبَر، فقَبِل جميع المعاصي على أنها مكتوبة عليه.

وبعض العلماء قد جاء بردٍ آخر، قائلين إن القدر سرٌّ مكتومٌ لا يعلمه إلاَّ الله حتى يقع، فمن أين للعاصي العلم بأنَّ الله كتب عليه المعصية كي يُقدم عليها؟ أفليس من الممكن أن يكون قد كُتِبت له الطاعة؟ لماذا لم تُقدِم على الطاعة مُقدِّرًا أنَّ الله تعالى قد كتبها لك، فإنه لا فرق بينها وبين المعصية في الجهل بالمقدور قبل صدور الفعل منك؟ فلا حجَّة للعاصي على أنه من قدر الله تعالى، لأنَّ العاصي يُقدم على المعصية باختياره من غير أن يعلم أنَّ الله تعالى قدّرها عليه، إذ لا يعلم أحد قَدَرَ الله تعالى إلا بعد وقوع مقدوره {وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا} [لقمان: 24]. فكيف يصحُّ الاحتجاج بحجَّة لا يعلمها المحتجُّ بها حين أقدم على ما اعتذر عنه؟

قضية شائكة ومُعقَّدة. سؤال صعب قد يَطرأ على بال من يتفكر في أمور الدين، وهو أنه إذا كان الله قد حدد في اللوح المحفوظ مسبقًا من يدخل الجنة ومن يدخل النار، فما الداعي أن أُقاوم المعصية أو أن أعمل عملًا صالحًا بما أن مكاني محفوظ في كل الأحوال؟ وصميم القضية هي أن الله حدد لكلٍّ منزلته بحسب عمله بناء على علمه تعالى للغيب، حتى إن سوَّلت لي نفسي ما ذكرته أعلاه فتركت العمل، فإن منزلتي ستكون في النار وسأجد أن الله قد كتب في اللوح أني تغيرت وتركت العمل فاستحققت النار. أي أن حتى إن تغيرت نظرتي للحياة وسلوكي في أفعالي، سأجده كان مكتوبًا في اللوح المحفوظ، وجزائي مُرتب بناءً على ذلك كله.

بل والأعقد من هذا: أن الدعاء قد يرد قَدَر الله كما جاء عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) "وَلَا يَرُدُّ الْقَدَرَ إِلَّا الدُّعَاءُ"[1]. أي أن المرء إذا دعا الله دعاءً يتعارض مع ما قدَّره الله (وليس مع شريعة الله في حرام أو ما وعد به الله مثل معاقبة من لا يؤمن به؛ فهناك فرق)، فإن الله قد يُغيّر ما قدَّره استجابةً لدعاء العبد. السؤال هو: فما حال اللوح المحفوظ في هذه النقطة؟

معلوم أن اللوح المحفوظ قد كُتب فيه كل ما سيكون كما نبأنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ: الْقَلَمَ؛ فَقَالَ: اكْتُبْ. فَقَالَ: مَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبْ الْقَدَرَ مَا كَانَ وَمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى الْأَبَدِ"[2]، ونبأنا أن ما هو مكتوب لا يُغيَّر ولا يُبدَّل فيه "رُفِعَتْ الْأَقْلَامُ وَجَفَّتْ الصُّحُفُ"[3]، وما

[1] سنن ابن ماجه 87، جزء من الحديث.

[2] سنن الترمذي 2081.

[3] سنن الترمذي 2440، جزء من الحديث.

سيحدث للمرء ومصيره في الآخرة مكتوب "جَفَّ الْقَلَمُ بِمَا أَنْتَ لَاقٍ"[1]. وهذا كله مبنيٌّ على حقيقة قوله تعالى {إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ} [القمر 49]. والظن هو أنه مكتوب في اللوح المحفوظ أن الله قدَّر أن يحدث كذا، ولكن سيدعو فلانًا بكذا، فسيُغيِّر الله قَدَرَه استجابةً لفلان، فيحدث في النهاية كذا. وهذا كله لعل الله يُطلعنا عليه في الآخرة ونستوعب الأمر برُمَّته آنذاك بعدما نرى الصورة المُجملة. ولكن لا يمكن أن نفهم القضية بجوانبها في الدنيا إذ إن هناك عقبتين: علم الله للغيب الذي يجب أن يكون محجوبًا عنا؛ وعقولنا المحدود قدرتها في الدنيا.

وهذه من آيات الله لنا مما يُبهِرُنا، وقد يُحيِّرُ البعض. وأمثلة واقعية حول هذه القضية هي عندما أنزل الله {تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (1) مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (2) سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (3) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (4) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ} [المسد 1-5]. كان ذلك في أثناء حياة أبي لهب وزوجته، فلما سمعا تلك الآيات لم يؤمنا، بل ازدادا إصرارًا على الإنتقام والبطش من الرسول (صلى الله عليه وسلم) على أنه قال فيهم ذلك. ولو أنهم كانا آمَنا لأثبتا أن القرآن على خطأ وحققا غايتهما الأسمى (وقف دعوة الإسلام)، ولكنهما بكبرهما وإصرارهما على الكفر أثبتا صحة ومعجزات آيات الله أكثر!

ومثال آخر هو عندما قال الرسول (صلى الله عليه وسلم) على أحدٍ ممن في صفوف المسلمين، ويجاهد معهم جهادًا ضروسًا، إنه من أصحاب النار (مع أنه يُجاهد مع المسلمين ويُشبههم في الأفعال)! لأترك الرواية كما يرويها لنا سيدنا سَهْلٍ بن معاذ (رضي الله عنه): الْتَقَى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْمُشْرِكُونَ فِي بَعْضِ مَغَازِيهِ فَاقْتَتَلُوا، فَمَالَ كُلُّ قَوْمٍ إِلَى عَسْكَرِهِمْ، وَفِي الْمُسْلِمِينَ رَجُلٌ لا يَدَعُ مِنْ الْمُشْرِكِينَ شَاذَّةً وَلا فَاذَّةً إِلّا اتَّبَعَهَا فَضَرَبَهَا بِسَيْفِهِ، فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا أَجْزَأَ أَحَدٌ مَا أَجْزَأَ فُلانٌ. فَقَالَ "إِنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ"، فَقَالُوا: أَيُّنَا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ إِنْ كَانَ هَذَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ؟ فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ الْقَوْمِ: لأَتَّبِعَنَّهُ، فَإِذَا أَسْرَعَ وَأَبْطَأَ كُنْتُ مَعَهُ؛ حَتَّى جُرِحَ فَاسْتَعْجَلَ الْمَوْتَ فَوَضَعَ نِصَابَ سَيْفِهِ بِالأَرْضِ وَذُبَابَهُ بَيْنَ ثَدْيَيْهِ ثُمَّ تَحَامَلَ عَلَيْهِ فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فَجَاءَ الرَّجُلُ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ! فَقَالَ: "وَمَا ذَاكَ؟"، فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ "إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ وَإِنَّهُ لَمِنْ أَهْلِ النَّارِ، وَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ وَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ"[2] (شَاذَّةً وَلا فَاذَّةً أي الشخص المنفرد، وهي عبارة يقصد بها أنه يقتل كل من يُلاقيه). والسؤال الذي يبقى هو: هل هذا كان مكتوبًا عليه دخول النار ليس له الخيرة وكان مجبورًا على ذلك، أم أن عمله أدَّى إلى مصيره ذلك؟

---

[1] صحيح البخاري، باب جف القلم على علم الله.

[2] صحيح البخاري 3885.

عامةً، هذه قضية شائكة مُعقدَّة، ولم يغفل بعض الناس عن التفكر فيها والاستفسار عنها من الرسول (صلى الله عليه وسلم). قد جاء عَنْ أَبِي الأَسْوَدِ الدِّيلِيّ (وهو أحد التابعين رحمهم الله) قَالَ: قَالَ لِي عِمْرَانُ بْنُ الْحُصَيْنِ (وهو أحد الصحابة رضي الله عنهم): أَرَأَيْتَ مَا يَعْمَلُ النَّاسُ الْيَوْمَ وَيَكْدَحُونَ فِيهِ، أَشَيْءٌ قُضِيَ عَلَيْهِمْ وَمَضَى عَلَيْهِمْ مِنْ قَدَرِ مَا سَبَقَ أَوْ فِيمَا يُسْتَقْبَلُونَ بِهِ مِمَّا أَتَاهُمْ بِهِ نَبِيُّهُمْ وَثَبَتَتْ الْحُجَّةُ عَلَيْهِمْ؟ فَقُلْتُ: بَلْ شَيْءٌ قُضِيَ عَلَيْهِمْ وَمَضَى عَلَيْهِمْ، فَقَالَ: أَفَلا يَكُونُ ظُلْمًا؟ قَالَ: فَفَزِعْتُ مِنْ ذَلِكَ فَزَعًا شَدِيدًا وَقُلْتُ: كُلُّ شَيْءٍ خَلْقُ اللَّهِ وَمِلْكُ يَدِهِ فَلا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ؛ فَقَالَ لِي: يَرْحَمُكَ اللَّهُ، إِنِّي لَمْ أُرِدْ بِمَا سَأَلْتُكَ إِلا لأَحْزِرَ عَقْلَكَ، إِنَّ رَجُلَيْنِ مِنْ مُزَيْنَةَ أَتَيَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالا: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَرَأَيْتَ مَا يَعْمَلُ النَّاسُ الْيَوْمَ وَيَكْدَحُونَ فِيهِ أَشَيْءٌ قُضِيَ عَلَيْهِمْ وَمَضَى فِيهِمْ مِنْ قَدَرٍ قَدْ سَبَقَ أَوْ فِيمَا يُسْتَقْبَلُونَ بِهِ مِمَّا أَتَاهُمْ بِهِ نَبِيُّهُمْ وَثَبَتَتْ الْحُجَّةُ عَلَيْهِمْ؟ فَقَالَ "لا بَلْ شَيْءٌ قُضِيَ عَلَيْهِمْ وَمَضَى فِيهِمْ، وَتَصْدِيقُ ذَلِكَ فِي كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ {وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا}"[1]. وفي رواية أخرى: قَالَ (صلى الله عليه وسلم) "بَلْ شَيْءٌ قُضِيَ عَلَيْهِمْ وَمَضَى عَلَيْهِمْ"، قَالَ السائل: فَلِمَ يَعْمَلُونَ إِذًا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ "مَنْ كَانَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ خَلَقَهُ لِوَاحِدَةٍ مِنْ الْمَنْزِلَتَيْنِ يُهَيِّئُهُ لِعَمَلِهَا، وَتَصْدِيقُ ذَلِكَ فِي كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا"[2].

ومن هذا الحديث قد يتوهم به البعض إلى ترك العمل على أساس أن المصير قد حُدد له مُسبقًا، فيأخذه مبررًا لترك نفسه ويرتكب المعاصي لأن منزلته في الآخرة حُدِّدَت وثابته. القضية تفاصيلها مُعقدة لدرجة أن البعض قد يجد صعوبة في استيعاب الأساسيات حتى، فحينئذ يكون العمل بوصية الرسول (صلى الله عليه وسلم) مع الإيمان بها دون فهمها كفاية للنجاة إن شاء الله. وليس العيب في عدم الفهم لأن في كثير من الأمور يكون الأمر إيمانيًا بحت، لأنه أكبر من قدرة استيعاب عقل الإنسان له كاملًا وأعلى من منزلته ليعلمها (مثل الغيبيات). إنما العيب في ترك العمل بالنصيحة التي فيها خلاصة الفهم.

عن تعلق هذه المسألة بموضوع هذا الفصل، كانت خلاصة الشرح قيلت عندما سُئل عن ترك العمل (كما جاء في حديث آخر) "لا، اعْمَلُوا، فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ". والحديث كامل هو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال "مَا مِنْكُمْ مِنْ نَفْسٍ إِلا وَقَدْ عُلِمَ مَنْزِلُهَا مِنْ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ"، فقال من حوله: يَا رَسُولَ اللَّهِ فَلِمَ نَعْمَلُ، أَفَلا نَتَّكِلُ؟ قَالَ "لا، اعْمَلُوا، فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ"، ثُمَّ قَرَأَ {فَأَمَّا مَن أَعْطَى وَاتَّقَى (5) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (6) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى (7) وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (8) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (9) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى} [الليل 5-10][3].

---

[1] صحيح مسلم 4790.

[2] مسند أحمد 19089.

[3] صحيح مسلم 4787.

وخوضًا في الموضوع لمن أراد تدبر الصورة كاملةً، هو بأن ننظر للقضية كأن لها جانبين، وهذا للتبسيط. الجانب الأول هو أن الله يعلم الغيب مُسبقًا وقد كتب في اللوح المحفوظ من سيدخل الجنة ومن سيدخل النار، ولكن ذلك بمعرفته المسبقة لمن سيكون شقيًّا ومن سيكون طائعًا في الدنيا في اختياراته. وهذا لئلا يكون ظلمًا على الناس إذا كان أمرًا قضائيًّا ليس لهم الخيرة ولا فرصة العمل للنجاة، كالذي كُتب عليه النار من قبل أن يعمل، ونؤمن بأن الله لا يظلم.

الجانب الثاني من القضية، إذا اعتمد المرء على أنه داخل الجنة فلا داعي للعمل، هو أن المرء إذا لم يعمل فما الذي يُبرهن ويحتج به أمام الله يوم الحساب؟ فإننا نحتاج الأعمال كأدلة ملموسة على طاعتنا لله، لنستند إليها في كلامنا مع الله، لعلنا بتلك الأعمال تُدركنا رحمة الله فيُدخلنا الجنة، وذلك الجانب نؤمن به أيضًا. وذلك خلاصة الأمر، ويأتي استيعاب القضية بجمع هذين الجانبين من القضية، ويأتي تفاصيله فيما يلي.

إنه معلوم أن كل امرئ مصيره مكتوب في اللوح المحفوظ ولن يتغير، وأن السعي في الحق أو الباطل مؤشر (في أغلب الأحيان، لأن الله يختم للمرء بما يشاء) على مصير الإنسان إلى الجنة أو النار، ففي ظاهر الأمر تعارض. والتعارض المُتوهَّم هو أنه كيف يكون الأمر مُحددًا مسبقًا عند الله ومع ذلك نحن نعمل في زمننا الحالي لتحسين مصيرنا في الآخرة. فَهم الأمر يحتاج إلى استيعاب لجزء من قدرة الله تعالى وهي علمه بالغيب، لأنه تعالى علام الغيوب، ولا يحتاج إلى استنتاج المستقبل بناءً على مؤشرات لأنه أعظم من ذلك، فإنه لا يحتاج إلى مؤشرات ليعلم الغيب!

فالله عليٌّ عن القواعد التي نحتاجها نحن، مثل التنبؤ والتوقع والفراسة والاستنتاج، وأن مضمون مغزى الماضي والمستقبل يستلزم تقييد الشخص بالزمن، والله هو الذي خلق الزمن وقوانين الوقت لنستقر وننتظم نحن. بل وخَلَق الإنسان والبيئة التي يُوضع فيها ويضع القواعد، فكلٌّ يخضع له، ويجمع الله أبعاد كل العوامل. فالله هو الذي يُقيد الزمن وليس مُقيَّدًا بالزمن سبحانه، والتفكر في هذا أكثر من ذلك يفوق إمكانية العقل في الاستيعاب، إذ إننا لم يسبق لنا تجربة العيش خارج إطار الزمن قط.

وبناءً على هذا، فإن الله يعلم مُسبقًا ماذا سيُفكر فيه العبد، وإلى أين سيقوده ذلك التفكير وماذا سيعمل عندما يتعرض للبيئة التي حوله. ومن ثَمَّ، يُمكن أن نستنتج منطقيًّا أن الله يعلم من يستحق الجنة ومن يستحق النار. بما أن الله يعلم الغيب، فإنه يعلم نيات المرء في قلبه قبل أن تنشأ، وإن الله ليفتح أبواب الأعمال الصالحة لمن طابت نيات قلبه ويُيسِّرها له. وكذلك العكس، فإن الله ليفتح أبواب المعاصي لمن خبثت نيات قلبه ويُغريه بها حتى لا يستطيع الإعراض عن تلك المعاصي.

وعلى هذا الأساس يكون قد حدد الله من سيدخل الجنة ومن سيدخل النار، وذلك معنى القول "مَنْ كَانَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ خَلَقَهُ لِوَاحِدَةٍ مِنْ الْمَنْزِلَتَيْنِ يُهَيِّئُهُ لِعَمَلِهَا". وهذا يعني أن عملك الذي ينتج عما في القلب هو مفتاح من المفاتيح لتحديد جزائك، ولكن نظرًا لأننا مُقييدون بالزمن منذ ولادتنا فإن العقل لا يجد استيعابًا لذلك، فيظن أن المصير محسوم مُسبقًا كحُكم من الله. ولكنه ليس بُحكم بمعنى أن ليس للإنسان فيه حيلة، لأنه إن كان كذلك فحينئذ لن ينفع العمل فعلًا وما كان الداعي من أن يعطينا الله مهلة في الأرض إذًا؟ هذا بالرغم من أن المكتوب صائب لا محالة وأنه سبق وقوع الأحداث، وهنا تكمن الصعوبة في الفهم والالتباس في الأمور.

ولشرح المعنى بطريقة مختلفة نحتاج إلى بعض السعة في التفكير. لندرك أولًا أن القاعدة الأساسية أنه من يعمل صالحًا يدخل الجنة، ومن يعمل سوءًا يدخل النار، ثم تخيل اللحظة التي تكون فيها جميع الخلائق قد عملوا وكُتبت أعمالهم وينتظرون الجزاء. تلك اللحظة بالنسبة إليك الآن أنها في المستقبل، أما بالنسبة إلى الله الذي لا يُقَيِّدَه شيء، بما فيهم الوقت والمسافة، فإن تلك اللحظة وكل اللحظات حاضرة عند الله. وهذا مدلول عليه قطعيًّا في الإسراء والمعراج، إذ إن الرسول صلى الله عليه وسلم رأى أصحاب الجنة وأصحاب النار، وسمع صوت صحابي يقرأ القرآن في الجنة، وسمع صوت خُطى سيدنا بلال، وغير ذلك.

فإنه تعالى يعلم أعمال العباد، ويعلم كيف يكون جزاؤهم، فحكم الله في مصير الإنسان ليس من باب الحكم النافذ العشوائي الذي لا يملك المرء فيه من اجتهاد ولا حيلة. إنما هو حُكم مترتب على ما يحتويه قلبه من خير أو شر مما اختار العبد تنميته، ومن ثمَّ أيضًا ما يعمل العبد في حياته (أو سيفعله لأن الماضي والمستقبل سواء عند الله).

ولبيان الوضع من منظورٍ آخر للتوضيح أكثر، تخيل أن حياتك مضت وحُكم عليك بالجنة أو النار بناء على عملك، ثم إن الزمن عاد لما قبل الخلق، أفلا يكون الله عالمًا بما تستحقه؟ وهذا المثال الأخير للتشبيه وللفهم، وليس بواقع لأن الله لا يحتاج للأمور أن تحدث كي يعلمها، بل يعلمها قبل حدوثها، حتى إن ورقة الشجر لا تقع من الشجرة إلا بإذن الله وأمره لها. وربما تستوعب القضية إذا نظرت إلى الأحداث بالمقلوب أو بترتيب مختلف، أن الإنسان يعمل في الدنيا (في أثناء حياته)، ثُم يُحكم عليه بحسب عمله ويُكتب في اللوح المحفوظ (ولكن قبل نشأته)، ثم يأخذ جزاؤه بحسب الحكم الصادر عليه (في الآخرة بعد موته). واقعيًّا، وكأن تدوين الحُكم على أعمال العبد إنما نُقل من المستقبل إلى الماضي (بالنسبة إلينا) بقدرة الله!

من الناحية النظرية البحتة، ذلك يمكن أن يحدث (أن ينقل الوقت من موضع لآخر)، لأن الله قادر على كل شيء لا يُقييده قانونٌ ولا يحكمه الوقت ولا مكان، إنما هو الذي يحكمهم. إنما هم خلقٌ من مخلوقاته تعالى، خلقهما كقواعد لنا نحن، ويستطيع الله أن يُحنيهما كيف يشاء. ومن أبرز

الأمثلة على ذلك هي رحلة الإسراء والمعراج، إذ عاد الرسول (صلى الله عليه وسلم) إلى فراشه بعد تلك الرحلة الطويلة ووجده لا يزال دافئًا من استلقائه عليه.

فهذه الأحاديث فيها قِطَع توضيحية لقضية كيف كُتب في اللوح المحفوظ كل شيء من قبل أن يحدث دون أن يَظلم الله، وكيف أن كل شخصٍ معلوم مصيره ومقعده إما في الجنة أم النار. ويُفَسِّر أيضا لماذا يحكم الله يوم القيامة أن من كل ألف شخص يدخل فرد واحد فقط الجنة. لكن، المهم من كل هذا معرفة أنه ليس عيبًا أن لا يستطيع بعض الناس احتواء هذه المفاهيم، أو أن لا تستوعب عقولنا جميع أطراف القضية. بل العيب أن نخالف ما أُمرنا به أو نجحده فنترك العمل، فقط لأننا لا نستوعبه فلا نقتنع به.

المفترض الآن، وبعد هذا الشرح، أن يستوعب المرء حديثًا أصعب عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، عندما قال "إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ خَلَقَ خَلْقَهُ فِي ظُلْمَةٍ فَأَلْقَى عَلَيْهِمْ مِنْ نُورِهِ، فَمَنْ أَصَابَهُ مِنْ ذَلِكَ النُّورِ اهْتَدَى، وَمَنْ أَخْطَأَهُ ضَلَّ، فَلِذَلِكَ أَقُولُ جَفَّ الْقَلَمُ عَلَى عِلْمِ اللَّهِ"[1]. المسألة في الصميم هي مسألة إيمانيات: أن الله لا يظلم إطلاقًا، أن مثل هذه الواقعة تصدر بناءً على علم الله للسرائر والغيب، أن عمل العبد في تقوى الله يعود عليه بالنفع في الدنيا والآخرة.

قد بيَّن الرسول (صلى الله عليه وسلم) القضية أكثر حين كَانَ فِي جَنَازَةٍ فَأَخَذَ شَيْئًا فَجَعَلَ يَنْكُتُ بِهِ الأَرْضَ فَقَالَ "مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلا وَقَدْ كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنْ النَّارِ وَمَقْعَدُهُ مِنْ الْجَنَّةِ"، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَلا نَتَّكِلُ عَلَى كِتَابِنَا وَنَدَعُ الْعَمَلَ؟ قَالَ "اعْمَلُوا، فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ، أَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاءِ فَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ"، ثُمَّ قَرَأَ {فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (5) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى} (الآيَةَ)[2].

مثل هذا الحديث قد يجعل بعض الناس ييأسون من العمل أيضًا، إذ قد يرون أنهم قد يعملون ثم يكون مصيرهم النار بالرغم من ذلك. وأقول لهم، ذلك من تسويل الشيطان للإنسان كي يترك العمل فيضمن دخول النار، وإن تركت العمل فما الدليل الملموس الذي ستحتج به أمام الله يوم الحساب؟ جاء في فتح الباري في أثناء شرح جملة "فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ" فيما معناه أن العبد مُكلّفٌ بالعمل إذ إن هذا هو الجانب الظاهري، أما الجانب الباطني وهو ما يجري عليه مقادير الله فهو من علم الله للغيب الذي لا ينبغي أن نتبعه أو نعرفه. فترك العمل يُوجب النار إذ إن العبد قد قصَّر فيما كُلِّف به من الله، أما إذا عمله فهو غالبًا يصير إلى الجنة، إلا إذا قدَّر الله خلاف ذلك نظرًا لغيبيات في علمه تعالى، ومنها سرائر العبد، فعلينا العمل ولله القَدَر.

---

[1] سنن الترمذي 2566.

[2] صحيح البخاري 4568.

ثم إن الله ليس بظالمٍ، من عمل صالحًا يدخل الجنة لأن ذلك وعد الله، والله لا يُخلف وعده {وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ قِيلا} [النساء 122]. المهم في القضية هو الإخلاص في النيات والعمل بما يوافق سنَّه الرسول (صلى الله عليه وسلم)، مع طلب العون والتوفيق والثبات من الله. وتوقع الخير بإذن الله، إذ إن الله قد جعل حق العباد عليه أن يدخلهم الجنة إذا عبدوه ولم يُشركوا به شيئًا. وتفاءل بالخير كما وصَّانا الرسول (صلى الله عليه وسلم) ولأنه كان يُحب ذلك، وهو أفضل من الطِّيَرَة (وهو التشاؤم) التي سُئل عنها فرَدَّ قائلًا "أَحْسَنُهَا الْفَأْلُ، وَلَا تَرُدُّ مُسْلِمًا، فَإِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ مَا يَكْرَهُ فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ لَا يَأْتِي بِالْحَسَنَاتِ إِلَّا أَنْتَ وَلَا يَدْفَعُ السَّيِّئَاتِ إِلَّا أَنْتَ وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ"[1] (وَلَا تَرُدُّ مُسْلِمًا أي أن الطيرة ينبغي ألا تُحبط عزيمة المسلم فترده عما كان يُقدِم عليه).

وتبقى قضية معنى "وَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاءِ فَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ"، وكيف لا يكون ذلك ظُلمًا أيضًا؟ وقد أشير إلى هذا قريبًا بأن الله يُيسر العمل الصالح لمن طاب وصفى قلبه وصلحت نياته، وأن الله يُيسر المعصية للذي خبث قلبه ونياته، ويُكمن البغض والحسد والكِبر على الناس، حتى إنه يصعب عليه الإعراض عن المعصية، وهذا مكرٌ واستدراج وفضحٌ من الله له.

وذلك شبيه بمضمون المعنى في آيات مثل {وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ} [محمد 17]، {يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُواْ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللهُ مَا يَشَاء} [إبراهيم 27]. ففي الآيات دلالة على أن الله ييسر زيادة الهداية لمن يقبل الهدى، وييسر الضلال للكافر والظالم والمُسرف والكاذب، وأدلة على أن الله يهدي ويُضل الناس بناء على أسبابٍ وليس عشوائيًّا. وبالنسبة إلى الظالم، فقد قال تعالى {وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَافِرُونَ} [التوبة 125]، {إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ} [النمل 4]، {وَلَقَدْ جَاءكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءكُم بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ} [غافر 34]، {إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ} [المائدة 67].

فليس على المرء إلا أن يُصلح قلبه ويصدق في عزيمته مع الله، وسيجد العون من الله في تيسير العمل الصالح له، ثم ما عليه إلا بعض الجهد لإنجاز ذلك العمل. هذا رأيي والله أعلم، وأقول ختامًا، لعلي أكون قد أخطأت في فهم الأمر، وفي الأول والآخر فإن الله يفعل ما يشاء. فحقًّا كما قيل "كُلُّ شَيْءٍ خَلْقُ اللَّهِ وَمِلْكُ يَدِهِ، فَلا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ"، وليس ذلك فقط من باب بيان الغلبة والقهر، بل ومن باب الإعفاء لنا عما لا تتحمله عقولنا في استيعابه.

---

[1] سنن أبي داود 3418.

إنني في منتهى الصغر بالنسبة إلى الله من أن ينظر إليَّ فيغضب لمعصيتي له، وهو غنيٌّ من أن يعذبني عليها

هذا الظن فيه جهلٌ شديد واستسلامٌ كبير. الجهل الذي فيه هو أن الله قد ألقى كلمته أنه سيُحاسب كل شخصٍ منا شخصيًّا ومنفردًا أمامه تعالى {وَكُلّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدا} [مريم 95]، {الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ} [غافر 17]. فهذا سيحدث لا محالة إذ إنه بمنزلة عهد، والله لا يُخلف عهده. وقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلا سَيُكَلِّمُهُ اللَّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تُرْجُمَانٌ، فَيَنْظُرُ أَيْمَنَ مِنْهُ فَلا يَرَى إِلا مَا قَدَّمَ، وَيَنْظُرُ أَشْأَمَ مِنْهُ فَلا يَرَى إِلا مَا قَدَّمَ، وَيَنْظُرُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَلا يَرَى إِلا النَّارَ تِلْقَاءَ وَجْهِهِ، فَاتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ" (وفي رواية زاد "وَلَوْ بِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ").

وأما الاستسلام الذي فيه، فهو الاستسلام للأماني والأوهام، على أن الله قد لا يُعذِّب العبد مقارنةً بالمعاصي الكثيرة التي ارتكبها جميع الخلق، أو لأن معاصي المرء لا شيء بجانب عظمة الله إذ إنه الغني عنه وعن أعماله. ويجب أن يُعلم، أن الله لا يغفل عن ذنبٍ واحدٍ لأي شخص، وأنه لو لم يُحاسب شخصًا على ذنبه فأين إذًا العدالة الإلهية المُطلقة؟ إذا كان ذلك الظن هو الواقع، فأين إذًا تحقيق قول الله تعالى {يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ} [لقمان 16]؟ ولكن ينبغي التوضيح أن هناك فرقًا بين المحاسبة والمؤاخذة، فقد يُحاسب الله العبد ولكن يعفو عنه فلا يُؤاخذه على ذنبه، وربما يصل العفو إلى درجة أنه تعالى لا يعرِض ذنب العبد على العبد.

ثُم ليُعلم، أن هذا النمط الفكري ينشأ (ولو جُزئيًّا) على استيعاب مُحرَّف لقاعدة أن الله لا ينتفع إذا فعل الناس جميعهن كل الطاعات، ولا يُضَر إذا فعل الناس جميعًا كل المعاصي. وليست القضية إذا كان ينتفع أو يُضَرّ الله بطاعتي له أو معصيتي له، بل القضية أن الله قد حكم على جميع الخلائق أن العدل التام سيتحقق يوم القيامة فيما بينهم {قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ} [الزمر 4]. يُروى أن ابن عقيل (رحمه الله) سمع رجلًا يقول: من أنا حتى يعاقبني الله؟ فقال له: أنت الذي لو أمات الله جميع الخلائق وبقيت أنت، لكان قوله تعالى {يَا أَيُّهَا النَّاسُ} خطابًا لك[1].

هناك أيضًا قوله تعالى {وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ} [الشورى 14، جزء من الآية]. والمعنى هو لولا أن الله قد سبق منه حكم أنه يقضي بين الناس ويُجازيهم بدقة يوم القيامة بدلًا من الدنيا، لقُضي بينهم في الدنيا ونزل بهم العذاب. هذا بعدما أمرنا الله بالامتناع عن الظُلم وبتحقيق العدل في الدنيا {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ

[1] تلبيس إبليس لابن الجوزي 389.

الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} [النحل 90]. فإذا كان الله يأمر عباده بالعدل، فهذا بالتأكيد يعني أن الله نفسه تولى تحقيق العدل.

وهذا يستوجب أن يُجازى كل مخلوق على كل طاعة أو معصية ارتكبها {مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ} [الأنعام 160]، إلى حد أنه يُقتص للشاة الجلحاء من الشاة القرناء. قال سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) "يَقْتَصُّ الْخَلْقُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ، حَتَّى الْجَمَّاءُ مِنْ الْقَرْنَاءِ، وَحَتَّى الذَّرَّةُ مِنْ الذَّرَّةِ"[1] (الْجَمَّاءُ هي التي لا قرون لها؛ الْقَرْنَاءِ هي التي لها قرون، والمعنى هو أن الدابة الجماء تأخذ حقها من القرناء التي نطحتها بقرونها).

بهذا يتم الوصول إلى حالة العدل المطلق بين كل الخلائق، كما وعد الله {وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ} [يونس 54]. فبالرغم من أن عملي في كل الأحوال لن يُحدث فرقًا مع الله، فإنه قد حكم أنه سيُعذِّب من يعصيه ويُكافئ من يطيعه، لأن له حق الطاعة علينا لأنه خلقنا ورزقنا، فسيأخذ حقه منا لتحقيق العدل المُطلق (أو يعفو إن شاء) وليس لأثر الأعمال معه.

هذا مع أن تعذيبه للعاصي أو إعطاء الطائع مِن مُلكه تعالى لن يُحدِث معه فرقًا أيضًا {مَّا يَفْعَلُ اللهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ وَكَانَ اللهُ شَاكِرًا عَلِيمًا} [النساء 147]، فهو غنيٌّ عن كل شيء من جميع الجهات. فالقضية ليست قضية صغر العبد ومعصيته أو كِبَرَهما، بل القضية قضية حقوق وعدل، فحتى إن كانت المعصية أصغر ما قد تكون، يأتي بها الله ليُحاسب عليها العبد يوم القيامة. إذا كانت الأرض التي أحدثت المعصية فيها، والسماء التي ارتكبت المعصية تحتها، سَيَدُكّ الله إحداهما دكًّا ويَشُقّ الأخرى، ثم يفنيان، فكيف أتصور أن أثر المعصية هو أساس القضية؟!

لا يمكن أن تكون تلك معصية إذ لا ضرر منها

هذا المبرر ينشأ لأسباب شتى، ولكن خاصة عندما يكتشف المرء أن ما كان يواظب عليه من فعل هو في الحقيقة معصية لله، فيتعجب أو حتى يُجادل بالباطل، فيتعلل أن تلك الفعلة ليس لها أضرار. لكن، عدم رؤية العبد لضرر المعصية لا يعني أنها ليست بمعصية، وليس تصريحًا له أن يرتكبها، إذ إنه قد لا يرى الضرر لعدة أسباب. فمنها مثلًا أن العبد قد يكون قد ألف أضرار تلك المعصية حتى إنه لا يراها، ومنها أنه قد يقع عليه الضرر ولكن لا يُدرك أن هذا الضرر مربوط بهذه المعصية.

[1] مسند أحمد 8401.

ومنها أنه، بقِصَر نظره وعلمه، قد لا يرى ولا يُدرك أبعاد المعصية، فعسى لمعصية أن تكون مظلمة لغيره بأخذ مُلكه أو منع حقٍّ عنه، أو تُسبب أذًى لشخصٍ غفل عنه المرء أو بطريقة لم يكن يتخيلها، فمن الذي يتحمل رد حقوق ذلك المظلوم؟ لا يمكن للمرء آنذاك أن يزعم أن مظلمة ذلك الشخص ليست خطأه بحجة أنه لم يقصدها.

وهذه نقطة لا يلاحظها كثير من الأفراد، أن المعصية تتسبب بضرر للناس بطريقة أو بأخرى، فمن الصعب جدًّا أن يرتكب المرء إثمًا ولا يكون له أثر على أحد من الناس، حتى ولو كان وحده وفي ظُلمة الليل. كفى أثرًا أن يظهر فساد معصيته في البر والبحر والجو كنتيجة لغضب الله من أن عبدًا له عصاه {ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} [الروم 41]، فيرى الناس هذا التغير ويشعرون بالأذى. بل وكفى بالعاصي ضررًا أنه يتعدى على روحه وجسده، واللذين هما من مِلك الله في الأصل، لم يكن للعبد حق في أن يتعدي بالضرر على ما لا يملكه.

الصميم هو أن المعصية تؤذي الآخرين لا محالة. ومراقبة الواقع بدقة يُثبت هذا، فليس هناك شيء اسمه معصية تقتصر ضررها فقط على مرتكبها، لأن في أقل تقدير يظهر على البر والبحر شؤم وآثار أن مخلوقًا عصى خالق الكون في ملكوته. قال مجاهد: إن البهائم تلعن عصاة بني آدم إذا اشتدت السنة، وأُمسك المطر، وتقول: هذا بشؤم معصية ابن آدم. وقال عكرمة: دواب الأرض وهوامها –حتى الخنافس والعقارب– يقولون: مُنعنا القطر بذنوب بني آدم[1].

سببٌ آخر لعدم تمكن المرء من رؤية ضرر المعصية هو أن تلك المُخالفة قد تكون في أمرٍ تشريعيٍ، يُراد به اختبار مدى خضوع واستجابة العبد لأوامر ربه. وهذا قد يكون الحال في بعض النُّسُك، مثل النهي عن الصيد للمُحرِم (أي الذي يلبس ثياب الإحرام للحج أو العمرة)، إذ إن الصيد أصله مباحٌ.

ثم ليس كل ما يُحرّمه الله ينبغي للمرء فهم سبب تحريمه، بل يكفيه معرفة أن الله قد وضع كل شريعة بناءً على علمه وحكمته المُطلقين. طلب المرء أن يعرف سبب كل تحريم، ثم يرتضيه العقل، هو مطلب فيه تعدي، وأن التمسك برأيه المخالف لنصٍّ شرعي في المسألة هو الضلال المبين؛ وقد أقر العلماء قاعدة: لا اجتهاد مع النص. هذا لأن العبد قد لا يُلمّ بكل المعلومات أو لا يُدرك أبعاد الحكمة من وراء الحُكم. فكم من امرئٍ لم يرَ سببًا مُقنعًا في تحريم مسألة، فيمضي مع رأيه، ثم يكتشف الحكمة بعدها بسنوات، ويرى أنه كان مُخطئًا وأنها تستحق التحريم حقًّا لما فيها من ضرر، بعدما ارتكبها مرارًا وتكرارًا، سرًّا وجهارًا، وضُرّ وأَضرّ؟ قال سيدنا عمر (رضي الله عنه) فيمن يُعجب

[1] الجواب الكافي لابن القيم 58.

برأيه بالرغم أن هناك نصًّا في المسألة: إياكم وأصحاب الرأي فإنهم أعداء السُّنن، أعيَتهم الأحاديث أن يحفظوها، فقالوا بالرأي، فضلوا وأضلوا[1].

إن الحكم الصائب والمتوازن يصدر عن علم شامل وحكمة بالغة، وليس العلم وحده ولا الحكمة وحدها، فالله –العليم الحكيم– يحكم بناءً على ما هو أصلح لجميع الناس مع عدم تكليفهم ما لا يستطيعونه. ولو كان الفرد يُصر على أنه ينبغي تحكيم العقل في كل مسألة ويصدق في أنه يريد الحق والمصلحة بذلك، فليشرح كيف يَتوقع أن يكون حُكمه بالمنطق (أو حتى قرار أغلبية الناس) أفضل من حُكم مَن يعلم المُستقبل؟ ثم لماذا يقبل الأحكام التي فيها تخفيف على العبد بالرغم من أنها تُخالف منطق المرء؟ فمثلًا، قال سيدنا علي (رضي الله عنه): لَوْ كَانَ الدِّينُ بِالرَّأْيِ لَكَانَ أَسْفَلُ الْخُفِّ أَوْلَى بِالْمَسْحِ مِنْ أَعْلَاهُ، وَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَمْسَحُ عَلَى ظَاهِرِ خُفَّيْهِ[2] (ظَاهِرِ أي أعلاه، وهذا عند الوضوء).

وأضاف العلماء أمثلة أخرى يُخالف الحكم فيها منطق الإنسان، مثل أن المرأة تقضي ما كان عليها في فترة حيضها من صوم ولا تقضي الصلاة بالرغم من أن الصلاة أهم من الصوم، وأن الذي يتبول يُكتفى له بالاستنجاء في حين المُحتلم يجب عليه الغُسل، هذا مع أن البول أنجس من المنيّ. لماذا يَتقبل المُجادل حُكم الله فيما يريحه ولكن لا يتقبل حكم الله فيما يطلب منه جُهدًا؛ لماذا لا يغتسل بعد التبول ولكن يطلب بتحكيم الرأي البشري في الأمور التشريعية؟ طالما أن العبد رأى أن عقيدة الإسلام منطقية وصائبة فقبلها، وجب عليه قبول أحكام الدين دون طلب شرح أو تبرير لكل حُكم.

في مجمل الأمر، حتى إن لم يكن لتلك المعصية ضرر، فإن الله الخالق المالك قد حكم أنها معصية عنده، فسيُحاسَب العبد على هذا الأساس في كل الأحوال. هذا حتى إن الله قد أمر رسوله (صلى الله عليه وسلم) أن يقضي بين الناس على أساس تلك الأحكام {وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ} [المائدة 49]، فأنى لنا أن نخالف بعده بناء على آرائنا؟

فالقضية هنا قضية ما شرَّعه الله، وليست ما يراه أو يشعر به العبد. وأما من أصر وأعرض، فقد وعظه الله ورسوله (صلى الله عليه وسلم) أنه سيؤاخَذ بناء على الأحكام التي وضعها الله بحكمته {إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ} [الأنعام 57، جزء من الآية]، ثم تبعها بعد بضع آيات {ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ} [الأنعام 62].

---

[1] فتح الباري شرح صحيح البخاري لأحمد بن بن حجر العسقلاني 302.

[2] سنن أبي داود 140.

أما فيما يختص بالعلماء وما يحدث معهم مما يشبه هذا المسلك الفكري، فقد نقله إلينا جمال الدين بن الجوزي (رحمه الله)، وهو أن النفس تأتي بالتأويلات على أن الأمر التي تشتهيه النفس إنما هو مباح، أو له جواز من جهة. قد ضرب لنا عبرة بواقعة حدثت معه فيروي: قدرت في بعض الأيام على شهوة النفس هي عندها أحلى من الماء الزلال في فم الصادي، وقال التأويل: ما ههنا مانع ولا معوق إلا نوع ورع.

وكان ظاهر الأمر امتناع الجواز. فترددت بين الأمرين، فمَنعتُ النفس عن ذلك. فبقيت حيرتي لمنع ما هو الغاية في غرضها من غير صاد عنه بحال إلا حذر المنع الشرعي. فقلت لها: يا نفس والله ما من سبيل إلى ما تودين، ولا ما دونه. فتقلقلت فصحت بها: كم وافقتك في مراد ذهبت لذته وبقي التأسف على فعله؟ فقدري بلوغ الغرض من هذا المراد، أليس الندم يبقى في مجال اللذة أضعاف زمانها؟[1]

ختامًا، أريد لفت الانتباه إلى مسألة مرتبطة بهذا الفصل، تلقي ضوءًا على القضية وتُلخِّصها. المسألة هي: كم من شخص كان يظلم ويعتدي على الآخرين مُبرِّرًا كل فعلة له وتخليصها من أن تكون معصية، ثم بعد أمدٍ عندما يقع في ورطة كبيرة أو تصيبه داهية لا يخرج منها، يعترف على نفسه بنحو: هذا بسبب ما فعلته في الماضي ودعوة الناس الذين ظلمتهم عليَّ؟!

لا يمكن أن يكون ذلك حراما إذ إن أغلب الناس يفعلونه!

هذا تسويل دهي من الشيطان كي يُقنع المرء بالإقبال على المعصية ومواكبة أفواج الناس. وهي فكرةٌ مغرية، إذ إن المرء قد لا يستوعب كيف يمكن لأغلب الناس أن يعتادوا ويقبلوا بأمر هو في الأساس قد نهى الله عنه. والإجابة تتمحور حول نقطة مهمة، وهي أن أغلب الناس في الأرض ليسوا بمسلمين. فلو أقررت أن هذا المبدأ الفكري صحيحٌ عامة (أن أغلب الناس يكونون على الصواب)، لكان اعترافًا ضمنيًّا مني أن الإسلام ليس الدين الصائب إذ إن أغلب الناس لا ينتسبون للإسلام، وأكون قد ضللت ضلالًا بعيدًا. الحقيقة المريرة هي أن الواقع خلاف ذلك: أن أغلب الناس على الباطل، لأن الحق ثقيل على النفس فلا يقبله أغلب الناس. وهذا ما أكده قول الله تعالى {وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ} [يوسف 103].

قد نزل القرآن ولكن أغلب الناس قد أعرضوا عنه، وعُرِضَ عليهم توحيد الله ولكنهم أبَوا، وذلك لأنهم إن قبلوا هذا فسيعقبه تكاليف وتقييد للهوى، فالإعراض هو أسهل الطريقين عليهم في الدنيا {وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُورًا} [الإسراء 89].

---

[1] صيد الخاطر لابن الجوزي 198-199.

فيجب أن أسأل نفسي، إن أغلب الناس على الأرض لا يُقرون بأنه لا إله إلا الله، فيتبنون ديانات أخر، وأشهر دينٍ ينتمي إليه من على الأرض هو النصرانية المزعومة، فإذا كان أغلب الناس على الشرك بالله، أوليس ما هو أبسط، وهو أن يلازم أغلب الناس معصية مُحددة، أيسر عليهم ومُتوقع أكثر؟

وقال تعالى أيضا {وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ} [الأنعام 116]. وهذا حال أكثر الناس بالرغم من أن على عهد سيدنا آدم، ثم على عهد سيدنا نوح (عليهما السلام) مع غمر الماء للأرض، لم يكن هناك شركٌ، مما يشير إلى أن الناس بأهوائهم ابتدعوا الشرك، ثم صار أغلب الناس عليه. هذا يدل أيضًا على أن هوى النفس يميل بالمرء إلى الشرك، كما أشارت الآية {وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ} [الأعراف 138]، فسبحان الله! ولكن نحن نتمسك بالإسلام لأننا نُدرك أنه الحق، والحق يُعرف أساسًا بالعقل ثم بالإحساس، وليس بالأحاسيس والهوى في المقام الأول.

ثم يجب إدراك أن كل امرئ يُحاسب يوم القيامة وحده، فالامتثال بالناس ليس بعذر ولا قيمة له يومئذٍ إذ إن المُشَرِّع هو الله. وفرع من الفروع الذي ينبت من هذه الفكرة الباطلة هو أن يقول المرء لنفسه إن ما الفائدة من مقاومة هذه المعصية وأناس كثيرون يفعلونها. فهذا أقرب لليأس، ولكن لن نتطرق لهذا الجانب في هذا الفصل، إلا بأنها رؤية للقضية بالمقلوب. قد نظر المرء إلى عدد الناس ولم ينظر إلى قول الله تعالى {وَكُلّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدا} [مريم 95]. مهما بلغ عدد الناس الذي يرتكبون معصية والضرر الناتج من فعلتهم، ومهما صغر الفرق في التأثير الصالح على المجتمع لترك امرئ واحدٍ لتلك المعصية، فكل ذلك لا يُعتبر له إذا نظرنا أن الوضع النهائي: أن كل فردٍ يُحاسَب وحده ومسؤول عن قراراته هو الشخصية أمام الله.

يُضاف هذا إلى أن المهم هو أن المرء يجعل نفسه يُعدّ مع المتقين عند الله، ويتحقق هذا بمجرد النية الصادقة، والتي تتمثل في أن يُحاول المرء الإصلاح حتى إن لم يُحدث فارقًا على أرض الواقع في المُحصِّلة، فالله يعلم سريرته أنه أحب الإصلاح وحاول. العقيدة القويمة هي أن المرء يُعلّق كل جوانب حياته، سكناته وحركاته وتفكيره، تدور حول ما يريده الله، ومن ثَمَّ تكون علاقته مع الله مباشرة، وينتج عن هذا أنه لا يلتفت إلى آراء وأفعال الناس ولا إلى ما الذي يتحقق من أفعاله؛ بل همَّه أن يُرضي ويُفرِّح الله.

إما بسلك المنهج الفكري أن ينضم إلى أفعال عامة الناس فسيطغى المرء وينحرف، حتى إن أدرك في نهاية المطاف أن هذه الفعلة حقًّا معصية فلن يزال يُقبل عليها. بل ربما يفتري بتأويل على الله أنه سيغفر له، وإما أنه معذور لكثرة الناس عليها، وهذا بالطبع من التمني.

وينبع من ذلك النمط الفكري فكرة أمكر وأخبث تُسوِّل للمرء الاقتناع أنه لا بأس من الخوض فيما خاض فيه جموع الناس، وهي أنه لا يُعقل أن يُعذِّب الله كل هؤلاء في الآخرة إذ إنهم كُثُر! والردود على تلك الفكرة الخبيثة متعددة، أولهم أن الله لا يُعجزه شيءٌ وأنه قادرٌ على أن يُعذب جميع الناس إن شاء. قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "لَوْ أَنَّ أَهْلَ السَّمَاءِ وَأَهْلَ الْأَرْضِ اشْتَرَكُوا فِي دَمِ مُؤْمِنٍ لَأَكَبَّهُمْ اللَّهُ فِي النَّارِ"[1] (دَمِ مُؤْمِنٍ أي قتله). كيف للذين تهاونوا بحدود الله ألا يهونوا على الله لدرجة أنه يعذبهم ولا يبالي لكثرتهم، ولو كانوا جميع مخلوقاته (وليس أغلب الناس فحسب)؟

ثانيًا، أن الباطل لا ينقلب مباحًا عند الله بحيث أنه لا يُعذِّب عليه بسبب كثرة الناس الواقعين فيه، وإذا كفر جميع الناس فلن يغفر الله لهم نظرًا لجمعهم، ولن يصبح الكفر مقبولًا ومباحًا {وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ} [إبراهيم 8]. لو حدث أن الباطل أُبيح نظرًا لكثرة الماكثين عليه لفسدت السماوات والأرض من كثرة الخبث والفساد الصادر من بني آدم، ولتفشى الظُلم. وفوق هذا، ما وقف الناس عند هذا الحد، بل لأقبلوا على باطلٍ آخر بالجموع.

ثالثًا، إذا كان يعز على الله أن يُعذب من هم على الباطل لأنهم كثيرون، فهل يعني ذلك أن الذين بلغوا من التهاون بدين الله في آخر الزمان ما نبأنا به الرسول (صلى الله عليه وسلم) "حَتَّى لا يُدْرَى مَا صِيَامٌ وَلا صَلاةٌ وَلا نُسُكٌ وَلا صَدَقَةٌ"[2] ليس عليهم لومٌ ومن ثمَّ ليس لهم عقاب؟ وفي الحديث دلالة أن ذلك هو حال أغلب الذين يقولون لا إله إلا الله، فهل هم معذورون ومُعفون عن تقصيرهم نظرًا لكثرتهم؟

رابعًا، أني بذلك النهج أكون ممن انضم إلى ذلك القطيع الكبير من العصاة، وزدت وضع الأمة سوءًا. وبهذه الطريقة، أكون صراحةً قد خالفت توجيهات رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من عدة جوانب، حيث إني أصبح إمَّعة، وهم الذين يقولون إنهم سيُحسنون إن أحسن الناس ويظلمون إن أصبح الناس ظالمين.

وأيضًا أُخالف أمره حين قال في جزء من حديثه "لَا تَكُونُوا عَوْنًا لِلشَّيْطَانِ عَلَى أَخِيكُمْ"[3]، حيث أُغرِّر غيري على ارتكاب المعصية كما اغتررت أنا بكثرة مرتكبيها. أفليس ذلك عونًا للشيطان على أخي؟ ومع أن سياق الحديث المذكور آنفًا كان يحث صحابة أن يتستروا على أخيهم الذي سرق، مع العفو والصفح فرصةً ألا يُعاوِد السرقة، وينصحونه بالعدول زجرًا له بدلًا من أن يفضحوه ويُقدموه للسلطات لإقامة الحد عليه (فيشمت الشيطان فيه)، فإنها قاعدة عامة. فإذا انضم كل فرد إلى جموع العصاة، فكيف ينتهي هذا التأثير المتسلسل ومتى حتى نخرج من الدائرة المتكررة؟

---

[1] سنن الترمذي 1318.

[2] سنن ابن ماجه 4039؛ جزء من الحديث.

[3] مسند أحمد 3955.

خامسًا، هناك حديث يتداول هذه القضية ويُنهي الخلاف، دالًّا على أنه لا اعتبار لعدد الناس ورأيهم أمام شريعة من شرائع الله، فلا مجال للنقاش في أمرٍ قد حكَم الله فيه وقال كلمته. ذلك حتى إن كانوا الأغلبية، وإن كان منهم من له من مكانة عالية، مثل أن يكون عالمًا في دين الله! جاء في جزء من حديث لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) "وَالْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي النَّفْسِ وَتَرَدَّدَ فِي الصَّدْرِ، وَإِنْ أَفْتَاكَ النَّاسُ وَأَفْتَوْكَ"[1]. فهذا دليل قطعي على أن عدد الناس الذين يفعلون أمرًا ويُصرّون أنه ليس مُحرمٌ ليس مؤشرًا ولا دليلًا على شرعية فعله. وقد كان الصحابة وسط قوم يُدينون بالشرك ويرونه أصوب وأفضل الأديان، ومع هذا لم يقتنع الصحابة أن قريش على الحق، بل خالفوهم وقاومهم حتى أقاموا الإسلام.

وأخيرًا، كيف يأمن المرء من عقاب الله بناءً على أن أغلب الناس يرتكبون مُخالفة ما، وهو الذي سيقول يوم الحساب لسيدنا آدم (عليه السلام) "أَخْرِجْ بَعْثَ النَّارِ، قَالَ: وَمَا بَعْثُ النَّارِ؟ قَالَ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَ مِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ"[2]؟ فإن كانت هذه قناعة ومنطق المرء بصدق، فسيُحقق الله له رؤية استنتاجه للأمور ولكن النتيجة ستكون مُغايرة لرغبته، إذ إنه سيرى أفواجًا طائلة من الناس يُقذفون في النار يوم القيامة، وبما أنه صادق في قناعته فهل سيقفز معهم في النار، أم سيريد مفارقتهم ههنا؟

وهناك فكر آخر يتفرع من هذا الفكر العام، وهو فكر ينتج إما عن سذاجةٍ وإما مكرٍ خبيثٍ، أنه لو كان حرامًا ما استطاع أناس كثيرون (أو قليلون) أن يرتكبوه، اعتمادًا على أن الله كان ليمنعهم. وهذا الفكر قد تحجج به المشركون باطلًا بقولهم {وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ} [النحل 35]. قد تعللوا أن الله لم يكن ليذرهم يُحرّموا أشياء (هي في الأصل حلال) إن كان لا يُرضى بذلك، على أساس أن الله يقدر أن يمنع الناس من ارتكاب ما يكرهه أو لا يُريده. والعلة في ذلك واضحة، وهي أن الله يتركنا نفعل ما نريد لينظر كيف نعمل ولتُقام علينا الحجة، حتى إن كانت معصية تُغضبه وتجلب لعنته. فليس منع الله العباد من الفعلة معيارًا على حرمانية أو جواز المسألة.

ثم ختامًا، هذا النهج الفكري نهجٌ سلبيٌّ يؤدي إلى اتباع عادات عامة الناس دون أساس من العلم الشرعي، وربما اتباع التقاليد وهي فيها من عادات الجاهلية. ومهما كثر الناس السالكين لطريقٍ مُحدد، فهذه ليست شهادةً على جودة الطريق إذ إن هناك عوامل أخرى تتدخل. إن حقيقة الوضع هو

---

[1] سنن الدارمي 2421، ورواه أحمد في مسنده، والحديث منقطع ولكن حسنه النووي والمنذري والشوكاني، وحسنه الألباني لغيره في "صحيح الترغيب" 1734.

[2] صحيح البخاري 3099؛ جزء من الحديث.

ما نقله ابن القيم عن بعض السلف: عليك بطريق الحق، ولا تستوحش لقلة السالكين، وإياك وطريق الباطل، ولا تغتر بكثرة الهالكين؛ [ثم قال:] وكلما استوحشت في تفردك فانظر إلى الرفيق السابق، واحرص على اللحاق بهم، وغض الطرف عمن سواهم، فإنهم لن يغنوا عنك من الله شيئًا، وإذا صاحوا بك في طريق سيرك فلا تلتفت إليهم، فإنك متى التفت إليهم أخذوك وعاقوك[1].

وتقع الطامة الكبرى حين تبلى السرائر في الآخرة، أن المرء يفضح نفسه فيُعلِن أنه كان فقط يتبع الناس، وتلك هي حُجَّته. جاء في جزء من حديث لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) عن المساءلة في القبر عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) "وَأَمَّا الْمُنَافِقُ وَالْكَافِرُ فَيُقَالُ لَهُ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ؟ فَيَقُولُ: لا أَدْرِي، كُنْتُ أَقُولُ مَا يَقُولُ النَّاسُ؛ فَيُقَالُ: لا دَرَيْتَ وَلا تَلَيْتَ، وَيُضْرَبُ بِمَطَارِقَ مِنْ حَدِيدٍ ضَرْبَةً فَيَصِيحُ صَيْحَةً يَسْمَعُهَا مَنْ يَلِيهِ غَيْرَ الثَّقَلَيْنِ"[2]. فانظروا كيف فضح نفسه عفويًّا، وأبرز غفلته وسفاهته إذ يعترف أنه كان يردد ما يقوله الناس ويمشي وراءهم عميانًا.

لا يمكن أن أُعاقب على هذا الفعل (المعصية) إذ سيكون ظُلمًا.

هذه الخاطرة تنشأ نتيجة توافق عدة عوامل، فمنها أن تكون المعصية سهلة المنال، ومنها أنها تُعرض على المرء تكرارًا، وفوق هذا كله تكون رغبة العبد فيها شديدة. وبالمثل للتوضيح، فمعلوم أن شهوة النساء عند الرجل قوية –خاصة وهو شاب ولم يتزوج بعد–، وهو يعلم أن الله قد حرّم النظر إلى امرأة متبرجة، لكن وهو يسعى في الأرض يكاد يجد المتبرجات في كل مكان لدرجة أن عينه تقع عليهن حتى وهو يُحاول تفاديهن. فهذا الوضع يُثير شهوته القوية أكثر، وضف إلى هذا إذا كان مُتعثرًا في الزواج لأسباب مثل أن ظروفه المادية محدودة أو أن العائلات تُبالغ في طلباتهن للموافقة على الزواج، ثم بعد كل هذا يجد أن نساء كُثُر يُعرضن أنفسهن للنظر، ولكن عليه كبح نفسه من النظر، ومن هنا يشتاط غضبًا وتبدأ المُبررات.

المبرر الذي يتبلور هو أنه لا يمكن أن يكون قد خلقه الله بهذه الشهوة القوية مع وجود كثرة المُتبرجات ثم يُعاقبه الله على أمر يسير مثل إطلاق بصره للتمتع (أو يدّعي أنه للتنفيس عن كبته) بالمتبرجات، وإلا سيكون ظُلمًا. المُحصلة أنه يرى أن مجرد النظر إلى المتبرجات أمر صغير نسبيًا، والرغبة فيه قوية جدًا، والمتبرجات منتشرين في أماكن كثيرة فيُعرَض عليه هذا بتكرار بالغ، ويسهل نيل تلك الشهوة لدرجة أنه يكاد لا يُبذل مجهودًا، ولا مانع لديهن –بل وربما يرى أنهن يرغبن ويرضين– في أن ينظر إليهن الرجال. ومن ثمّ يتزين له أنه لا يمكن أن يُعاقبه الله على إطلاق بصره لأن في كل الأحوال لا يُمكن أن يُتوقع منه أنه يستطيع تفادي النظر عن جميعهن، أي حتى وإن

[1] مدارج السالكين لابن القيم 21/1.

[2] صحيح البخاري 1285.

حاول فلن يحدث هذا بسبب كثرة المتبرجات في كل مكان ينظر إليه، وإن كان هناك وزر يُحمل فهو على المُتبرجات لأنهن أغرينه وهو في الأصل لا يريد إطلاق بصره.

وهذه حجة قوية ومُغرية، لكنها باطلة، وهي مشتركة مع عدة أفكار في هذا الجزء من الكتاب، والرد عليها ضمنيًا مذكور في أماكن متفرقة. لكن للرد على هذه الحُجة بتحديد أكثر، فهذا لأنه لا ينظر إلى القضية بأكملها. نعم، إن كانت تلك العوامل المذكورة لا يوجد غيرهن لكان ظُلمًا أن يُعاقب عليهن، ولكن أين حق الله في حساباتنا؟ وأين حق آباء وإخوة تلك المرأة؟ بل وأين حق المرء في أن يكون هو الذي يفرض إرادته وتصرفاته على نفسه فلا يصبح نِتاج اختيارات وشهوات الناس؟

أين حق الله، الذي خلقه وجعل له بصرًا، وخلق النساء والكون، في أن يُطاع ولا يُعصى فيما حدده من حرام، وأن يسري في مُلكه ما يأمر به؟ وأين حق آباء وإخوة المرأة المُتبرجة، ممن لم يرضوا لها التبرج ولكنها تمردت وتبرجت، فيمن أخذ منها نظرة؟ وأين حق المرء تجاه نفسه في تحديد مصيره وفرض إرادته على نفسه، بدلًا من أن يكون ماشيةً لشهواته وخاضعًا لرغبات الناس –أن تنتصر عليه المُتبرجة بجعله ينظر إليها–، وتُحمِّله وزرًا بدلًا من صيانة نفسه. لا يمكن أن يكون هو بريئًا ولا إثم عليه إذا نظر إلى متبرجة، ولو تبرجن كل النساء، وإلا لكان من يزني برضى المرأة يكون مُبرّأً من الإثم أيضًا. فإن تتبع المرء هذه الحُجة لآخر الطريق لوجد أن الزاني والقاتل والمُهمل لوالديه لا إثم عليهم ما داموا يفعلوا هذا بناء على شهوة، إن كانت هذه الحُجة صحيحة، وعليه ألا يلوم من يفعل مثل هذه الجرائم في أهل بيته أيضًا، بل ويرضى على نفسه ما رضي به على غيره.

وليُبصر العبد الصورة كاملة ينبغي أن يُصحح منظوره، فإن الوضع لم يُجعل هكذا والغاية هي عنائه وشقائه. إنما المُراد هو أن يختبر الله عباده فيتميزوا في درجات جزاؤه، فوضَع الشهوة فينا لبقائنا (فالغرائز تحملنا على الزواج والسعي للبناء والزراعة وهكذا)، ووضع حدود لا نتعداها ومنها ألا تتبرج المرأة. ولكن الله بعلمه للمستقبل علم أن لن يلتزم أغلب الناس، مما سيضع المؤمن القابض على دينه في عناء، وهذا لم يُخفيه الله عنا بل نبأنا به {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ} [البلد 4] (أي في شدة ومشقة). فالحقيقة هي أن العبد إذا قهر نفسه وأجبرها على الامتناع عن النظر إلى المُتبرجات وعانى بشدة في تحقيق هذا فهو ليس بمظلوم، فالله غني وأعلى من الحاجة إلى الظُلم أو تعذيب عباده، وهو لا يرضى بالوضع الذي أنت تشتكي وتُعاني منه ولكنه يؤجل مُحاسبة وعقاب المُخالفين (المُتبرجات) إلى الآخرة، وبرحمته وحلمه وعدله يعفو عن النظرة الخطأ ما دام العبد يصرف بصره فورًا، وهو يعلم النوايا والسرائر، ويعلم خائنة الأعين. بل وإذا أطلق العبد بصره على من خلقهن الله من النساء فسيصبح هو الظالم الحقيقي.

وإن كان هذا الكلام غير كاف لمن تُلح عليه هذه الحجة، فليشرح كيف يرى وضعًا يحل هذه المُعضلة، مع وضع في الحساب أن ليس جميع الناس يطيعون الله، وأن يوجد اختبار للناس من ربهم

فيما يقترحه. فلن يتوصل الفرد إلى إجابة سوى أن يُمسك العبد نفسه عن إطلاق بصره إن كان صادقًا مع نفسه، وسيرى أن ما يتمنى حصوله سيُبيح الاسترسال في المعاصي إن كان صريحًا مع نفسه.

أنا لم أختر أن أُختبَر

هذا المُبرر يراودني خاصةً عندما أحاول مقاومة معصية يكون القلب متعلقًا بها أشد التعلق، أو يشتد عليَّ مجاهدة النفس، فأراه (توهمًا) أنه عذرٌ قويٌّ لي عند الله، وأنه حجة الحجج إذ إن الله لا يظلم. أساس هذه الحجة هي أني وُضعت في هذا الاختبار دون موافقتي، فمن باب العدل المطلق من ربي أتحجج أنه كيف يُتوقع مني أن أجتهد في مقاومة المعاصي وأنجح اختبار الحياة مع أني لم أوافق على أن أُخلق وأولد وأدخل هذا الاختبار. ولو أني كنت خُيرت على أن أُخلق أم لا، لأخترت ألا أُخلَق ولا أن أُوضع وسط الفتن وأُختبر.

وهذه في الحقيقة حجة قوية جدًّا ومنطقية جدًّا، ولعلها أبرقهم، ولكني لن أطيل في الرد عليها إذ إن مواجهتها بسيطة ومنطقية. أولًا، يجب أن نعي هذا الحديث عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) الذي يُروى لنا "أَخَذَ اللَّهُ الْمِيثَاقَ مِنْ ظَهْرِ آدَمَ بِنَعْمَانَ (يَعْنِي عَرَفَةَ) فَأَخْرَجَ مِنْ صُلْبِهِ كُلَّ ذُرِّيَّةٍ ذَرَأَهَا، فَنَثَرَهُمْ بَيْنَ يَدَيْهِ كَالذَّرِّ ثُمَّ كَلَّمَهُمْ قِبَلًا، قَالَ {أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ}"[1] (ذَرَأَهَا أي خلقها). ومعنى الحديث أن الله أخرج من سيدنا آدم (عليه السلام) كل إنسان سيُولد، ثم كلمهم فأشهدهم أنه الله الذي لا إله إلا هو وأخذ منهم العهد ألا يُشركوا به شيئًا، ثم أعادنا في صلب سيدنا آدم (عليه السلام). وقد وقعت هذه الواقعة عندما أنزل الله سيدنا آدم (عليه السلام) إلى الأرض، ولكن لا نتذكرها.

فسؤالي هو، ماذا لو أن في أثناء تلك الواقعة التي لا أتذكرها قد وافقت أن أُبعث في الأرض وأُختبر بعد أن شهدت لله بالتوحيد؟ ماذا لو أن جانبًا مما تشمله الآية {إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا} [الأحزاب 72] هو أنها حدثت في أثناء تلك الواقعة أيضًا؟ بمعنى أني وافقت أن أحمل الأمانة (أي طاعة الله وفرائضه) تطوعًا بعدما رفضتها السماوات والأرض والجبال اختياريًّا، عندما عُرضت عليهم، لثقلها ولصعوبتها؟

[1] مسند أحمد 2327.

بل إن صيغة الآية تدل على أنه كان لكل من عُرضت عليهم الأمانة أن يرفضوا، فرفضها كل أولئك ولكن قَبلِت أن أحملها أنا. والدليل على هذا هو كلمة "جَهُولًا" إذ تشير أننا كنا نجهل مدى ثِقَل الرسالة وصعوبة تحقيق هذا الشرائع بحق، ونجهل مدى ضعف إرادتنا أمام شهواتنا.

ويؤكد على هذا أكثر ما جاء في تفسير الطبري للآية {وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ} [الأعراف 172]، وهو أن سيدنا ابن عباس (رضي الله عنه) قال: ثم أخذ عهودهم على الإيمان والمعرفة له ولأمره، والتصديق به وبأمره بني آدم كلهم، فأشهدهم على أنفسهم، فآمنوا وصدقوا وعرفوا وأقرّوا. وجاء أن مجاهد (رحمه الله) قال: إن الله لما أخرجهم قال: يا عباد الله أجيبوا الله –والإجابة: الطاعة– فقالوا: أطعنا، اللهم أطعنا، اللهم أطعنا، اللهم لبيك! قال: فأعطاها إبراهيم عليه السلام في المناسك: لبيك اللهم لبيك (انتهى بتصرف).

السؤال هو: ماذا سيكون موقفي آنذاك أمام ربي عندما تُعرض عليَّ لحظة موافقتي على دخول الاختبار، بعدما كنت مُتَّكِلًا على هذه الحجة أنها ستُبرّئني من عصياني عند الحساب؟!

ختامًا لعنوان هذا الباب، ينبغي معرفة أن ما هناك من ثغرةٍ ولا رخصة في الإسلام –الذي هو حُكمُ الله– لارتكاب المعاصي اختياريًّا دون المؤاخذة عليها. قد قال تعالى {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينا} [المائدة 3، جزء من الأية]. وما من زاوية ينظر بها العبد تبيح له أو تعذره من ارتكاب المعصية بإرادته، فقد أبطل الإسلام كل الأفكار الشبيهة بالتي ذكرناها. قد يجهل أحدنا الدليل على بطلانها، ولكنه موجود، فقد قال تعالى {مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ} [الأنعام 38، جزء من الآية].

ثم ليُعلَم، أنه حتى إن لم يهتدِ العبد للدليل على بطلان فكرة شبيهة بهؤلاء، فكفى باطِّلاع الله على القلوب والنيات تحذيرًا لنا، فإنه تعالى يعلم من تكون نياته خبيثة ممن تكون نياته صادقة. أي أنه تعالى يعلم ما الذي يريد العبد تحقيقه بتلك الأفكار {قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [آل عمران 29]، {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ} [ق 16].

ثم ينبغي التنبيه أن المرء، بأيٍّ من تلك الأفكار الملتبسة، يشرد عن الصراط المستقيم. وقد يبلغ بتلك الأفكار مرحلة أنه يُضل ضلالًا بعيدًا، خاصة إذا بُنى عليها أفكار شاذة أكثر ويبتدع في الإسلام، مما قد تبلغ به في بعض الأحيان أنه يخرج من الإسلام جملة. وهناك فِرَق من الإسلام،

وأُخر قد خرجوا منه، انشقَّت من الجماعة باستنادها إلى أفكار شبيهة جدًّا ببعض الأفكار الباطلة التي ذكرناها.

فمثلًا، هناك فرقة الشريكية، وهم من القَدَرِيّة، الذين يزعمون أن السيئات كلها مُقدَّرة إلا الكفر، أساءوا فهم قضية أن سيئات العبد مكتوبة مُسبقًا، فادَّعوا أنه سيقع فيها لا محالة، فلا يمكن تفاديها ولو مع الاجتهاد، فلربما تركو المُجاهدة. وهناك فرقة التاركية، وهم من المُرجِئة، الذين زعموا أن ليس لله على العباد فريضة سوى الإيمان به، فمن آمن به وعرفه فليفعل ما شاء، وهذا فيه كفرٌ واضح بحقوق الله على العباد.

فكيف يأمن المرء من أن منهجه التفكيري المنفرد لا يقوده إلى النار ولو تدريجيًّا، خاصةً وقد قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "لَيَأْتِيَنَّ عَلَى أُمَّتِي مَا أَتَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ حَذْوَ النَّعْلِ بِالنَّعْلِ، حَتَّى إِنْ كَانَ مِنْهُمْ مَنْ أَتَى أُمَّهُ عَلَانِيَةً لَكَانَ فِي أُمَّتِي مَنْ يَصْنَعُ ذَلِكَ، وَإِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ تَفَرَّقَتْ عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، وَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، كُلُّهُمْ فِي النَّارِ إِلَّا مِلَّةً وَاحِدَةً"، قَالُوا: وَمَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ "مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي"[1]؟ وقد ذكر الشيخ ابن القيم (رحمه الله) تلك الفرق في كتابه "تلبيس إبليس"، لمن أراد أن يتطلع أكثر في هذا الجانب.

[1] سنن الترمذي 2565.